جامعة الجزائر 2

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم التاريخ

إصلاحات قسطنطين الأول الدينية والسياسية في أوروبا (306- 337م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم

أعضاء لجنة المناقشة:

عبد العزيز بوكنة .....رئيسا

ويزة آيت عمارة ..... مقررا

إبراهيم العيد بشي ..... عضوا

طارق ساحد ..... عضوا

إعداد الطالب:

أحمد سحالي

تحت إشراف:

الدكتورة ويزة آيت عمارة

السنة الجامعية:

2014- 2015م

شكر وعرفان

أحمد الله تعالى وافر نعمته حمدًا كثيرًا يليق بجلال وجهه الكريم.

وأتقدم بالشكر الجزيل وامتناني وتقديري واحترامي إلى كل أساتذتي الدكتورة المشرفة "آيت عمارة ويزة" التي لم تبخل علي بالنصائح والتوجيهات والمساعدة منذ الوهلة الأولى لهذا البحث.

وإلى الأستاذ الدكتور "بلقاسم رحماني" أستاذ التاريخ القديم بجامعة الجزائر الذي لم يبخل علي بما يملكه من خبرة في ميدان التخصص التاريخ القديم.

وإلى الأستاذ "تومي رشيد" أستاذ تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في جامعة الجزائر 2.

وإلى الأستاذة "كربال زكية" التي قدمت لي كل ما تملك من تجربة في مجال الدراسات الغربية.

وإلى الأستاذة "بوعمران سامية" أستاذة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في جامعة الجزائر2.

إهـــــداء

إلى روح أمي رحمها الله وأسكنها الله فسيح جنانه.

إلى روح خالتي "ذهبية" رحمها الله.

إلى روح معلمي "مولود دريف" أستاذي في الإبتدائية.

إلى أخي "نور الدين" الذي ساهم في تكوّني العلمي والشخصي.

إلى والدي حفظه الله.

إلى" خالي حميد" الذي ساهم في تكوّني الجامعي .

إلى"مليكة" محررة هذه المذكرة.

إلى إخواني وأخواتي الذين شجعوني في دراستي.

إلى السائرين على طريق الهدى والحق.

إلى زملائي في قسم التاريخ في بوزريعة.

إلى كل الباحثين في حقل العلم والتاريخ.

.

مقدمة

مقدمة:

يعتبر المختصون في تاريخ الإمبراطورية الرومانية أن عهدي الإمبراطورين دقلديانوس وقسطنطين الأول يمثلان مرحلة انتقالية هامة عاشتها الإمبراطورية الرومانية خلال فترة أواخر القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي، لما أحدثاه من إصلاحات عميقة على جسم الإمبراطورية الرومانية المتداعي، والذي اهتز كيانه بشدة خلال أزمة القرن الثالث الميلادي أو ما يعرف بفترة الفوضى العسكرية.

وفي موضوع هذا البحث سنركز على تسليط الضوء ودراسة أوضاع الإمبراطورية الرومانية خلال عهد قسطنطين الأول (306- 337م) واستنتاج التغيرات الدينية والسياسية التي تولدت على الأوضاع الدينية والسياسية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية مع بداية القرن الرابع الميلادي، وذلك بفعل الإصلاحات الدينية والسياسية التي باشرها قسطنطين الأول.

ويعود سبب اختيارنا لهذا الموضوع إصلاحات قسطنطين الأول الدينية والسياسية في أوروبا (306- 337م) إلى عدّة اعتبارات نذكرها فيما يلي:

1- الدافع الذاتي، والمتمثل في ميلنا لهذه الفترة من تاريخ أوروبا وهي الفترة المتأخرة من العصور القديمة، أو فجر العصور الوسطى الأوروبية.

2- الدافع العلمي، قلة ما كتب في الجزائر عن هذه الفترة من تاريخ أوروبا بصفة عامة وعن تاريخ بيزنطة بصفة خاصة سواء الدراسات الأكاديمية الجامعية سواء في مستوى الماجستير والدكتوراه، باستثناء مجهودات بعض الباحثين القلائل الذين اختصوا في مجال الدراسات الأوروبية الغربية .

3- الدافع الموضوعي، والمتمثل في أهمية موضوع الإصلاحات الدينية والسياسية للإمبراطور قسطنطين الأول في فهم أهم التحولات الدينية والسياسية والثقافية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية في المرحلة الانتقالية من تاريخها من إمبراطورية رومانية لاتينية غربية وثنيةإلى إمبراطورية هلنستية شرقية مسيحية، منذ قرار نقل العاصمة إلى شرق الإمبراطورية، وظهور ما يعرف بالحضارة البيزنطية أو الإمبراطورية البيزنطية منذ قرار التقسيم السياسي لأراضي الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، القسم الشرقي والقسم الغربي.

4- أهمية الموضوع في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، واستمرار تأثيره على واقع أوروبا اليوم، فكما هو معروف فإن الإمبراطور قسطنطين الأول هو الذي أضفى الشرعية القانونية للديانة المسيحية كأحد الديانات المرخص إتباعها في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ومن ثمّ كان لهذا الاعتراف الإمبراطوري نتائج مباشرة على تطور المسيحية ووجودها، فمنذ ذلك العهد أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة الرومانية، وبعدها ظهرت الاختلافات المذهبية في الدين المسيحي فانقسمت الكنيسة المسيحية إلى كنيستين الكنيسة الكاثوليكية الغربية، والتي كان مقرها في روما والتي تحولت فيما بعد إلى بابوية لها السيادة على العديد من الأراضي في إيطاليا واستمرار وجودها إلى اليوم وهو المعروف بدولة الفاتيكان، بالإضافة إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والتي كان مركزها كائنا في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وعند فتح القسطنطينية تحول مقر الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية إلى موسكو عاصمة روسيا.

ومن خلال هذه الدراسة سنحاول الإجابة على جملة من التساؤلات التي طرحتها إشكالية البحث وهي: ما هي الخلفية التاريخية والدوافع التي أدت بالإمبراطور قسطنطين الأول إلى إصدار المرسوم المسمّى بمرسوم ميلانو سنة 313م؟ وما هي النتائج المترتبة عن هذا المرسوم على الساحة الدينية في العالم الروماني؟ وما هي الأسباب التي دفعت قسطنطين الأول إلى التفكير واتخاذ قرار نقل العاصمة الرومانية من روما في إيطاليا إلى القسطنطينية في آسيا الصغرى؟ وما هي التأثيرات السياسية والدينية المرتبة عن ذلك؟

وقد وظفنا لدراسة هذا الموضوع واستجلاء خفاياه منهج التحليل التاريخي وذلك بسرد الأحداث التاريخية قصد الوصول إلى فهم أهم التحولات التي عاصرت فترة حكم قسطنطين الأول وتأثيرها المباشر على الأوضاع العامة التي عرفتها روما بصورة خاصة وأوروبا بصفة عامة.

- وقد اعتمدنا لدراسة هذا الموضوع واستجلاء خفاياه الخطة التالية:

الفصل الأول والذي أعطيت له عنوان "**التعريف بشخصية قسطنطين الأول**" والذي خصصناه لدراسة هذه الشخصية التاريخية من مختلف الجوانب، **أولا** دراسة شخصية قسطنطين الأول بالحديث عن ولادته ونشأته وعائلته ووفاته، **ثانيا** بالحديث عن حياته السياسية وتدرجه في مختلف

وظائف السلطة الإمبراطورية، **ثالثا** بالحديث عن حياته الدينية أو مسلكه الديني وذلك بالحديث عن وثنية ومسيحية قسطنطين الأول.

أما **الفصل الثاني** والمعنون "**بالإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول (306-337م)**، والذي ارتئينا أن نعالج فيه دراسة الإصلاحات الدينية **لقسطنطين الأول**، وقد قمنا بتقسيمه إلى جزئين الأول دراسة الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية قبل عهد قسطنطين **الأول** وذلك بدراسة خريطة الديانات الوثنية والسماوية المنتشرة في ربوع الإمبراطورية الرومانية كخلفية تاريخية للأوضاع الدينية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية قبل عصر قسطنطين، أمّا الجزء الثاني فقد خصصناه لدراسة الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية أثناء عهد الإمبراطور قسطنطين الأول وذلك لإظهار أثر الإصلاحات الدينية التي قام بمباشرتها الإمبراطور قسطنطين الأول على الأوضاع الدينية التي شهدتها روما في عهده مقارنة بما سبق.

بينما خصّصنا **الفصل الثالث** والذي عنونّاه "**بالإصلاحات السياسية للإمبراطور قسطنطين الأول**" لدراسة الجانب السياسي من أعمال قسطنطين الأول والذي ركزنا فيه على نقل قسطنطينالأول لعاصمة الرومان من روما القديمة في إيطاليا إلى روما الجديدة (القسطنطينية) في آسيا الصغرى، وذلك بالحديث عن دوافع وأسباب نقل قسطنطينلعاصمة الرومان، وتحدثنا فيه عن مدّة بناء العاصمة الجديدة، وكيفية بناؤها، وعن تخطيط العاصمة الجديدة.

أمّا **الفصل الرابع** فقد أعطينا له عنوان "**تأثير إصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع الدينية في الإمبراطورية الرومانية**" وفيه تحدثنا عن نتائج وانعكاسات وتأثيرات الإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول على الأوضاع الدينية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية أثناء حياة وعقب وفاة الإمبراطور قسطنطين الأول، وقد قسمنا هذا الفصل إلى قسمين:

القسم الأول والذي تحدثنا فيه عن تأثير الإصلاحات الدينية على الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية وذلك بالحديث عن الانقسامات المذهبية داخل المجتمع المسيحي أثناء حياة قسطنطين الأول كالانشقاق الأريوسي والأزمة الميليتية والانشقاق الدوناتي.

القسم الثاني بالحديث عن الانشقاقات المسيحية بعد وفاة قسطنطين كالانشقاق الذي أحدثه

أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة والنسطورية، وكذا بالحديث عن نشأة البابوية وعلاقتها مع السلطة الإمبراطورية.

أما **الفصل الخامس** فقد خصصناه لدراسة تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسية على الأوضاع السياسية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية.

وقصد استيفاء الموضوع حقه من البحث اعتمدنا على مصدر عايش الأحداث وهو كتاب **تاريخ الكنيسة** لمؤلفه **يوسابيوس القيصري** والذي كتب باللغة اللاّتينية والذي ترجمه إلى العربية **القمص مرقس داود.**

عند الحديث عن أهمية كتاب تاريخ الكنيسة كمصدر عايش الفترة لها نؤكد أن هذا المؤلف الضخم الذي دونه أسقف قيصرية يوسابيوس القيصري المعاصر للأحداث، لخص تاريخ الكنيسة منذ فجر المسيحية إلى غاية عهد قسطنطين الأول تاريخ الصلح بين الكنيسة والدولة، وقد خصص مؤلفه يوسابيوس القيصري الكتابين التاسع والعاشر للحديث عن أوضاع المسيحيين وأوضاع الكنيسة المسيحية أثناء عصر قسطنطينمستعرضا فيه مختلف التحولات التي ميزت حياة المسيحيين مع مطلع القرن الرابع الميلادي، أفادنا كثيرا هذا المصدر التاريخي في استقراء مختلف التحولات الدينية والسياسية التي عاشها المسيحيون طوال حكم قسطنطين الأول، وتحدث هذا المصدر على مختلف السياسات التي انتهجها أباطرة هذا العهد من عمر الإمبراطورية الرومانية إزاء المسيحيين، بينما ركز هذا المصدر على السياسة الدينية التي أنتهجها قسطنطين تجاه الطائفة المسيحية حيث أعطانا هذا المصدر معلومات وفيرة عن مختلف الرسائل الإمبراطورية التي قام بتدوينها قسطنطين الأوللصالح المسيحيين، وأيضا صور القوانين الإمبراطورية الرومانية منها فحوى مرسوم ميلانو في مارس 313م، والذي جرى في ميلانو بين الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس وهو المرسوم الذي منح الحرية الدينية لصالح المسيحيين وأعطى الشرعية القانونية للديانة المسيحية كأحد الشرائع المرخص إتباعها في ربوع الإمبراطورية الرومانية بعد إقرار مبدأ حرية العقيدة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

وقد وظفنا هذا المصدر الأساسي عند الحديث عن الإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول والذي خصصت له الفصل **الثاني** من هذا البحث .

هناك مرجع آخر وظفناه في هذا البحث ألفه المؤرخ الإنجليزي **إدوارد جيبون** الذي عاش في القرن **الثامن عشر للميلاد**، وقد دون هذا المؤرخ الغربي مدونا ضخما بعنوان**اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، وقد استخدمت هذا الكتاب عند الحديث عن أسرة قسطنطين الأول وعن الظروف العامة التي تزامنت مع وفاة الإمبراطور، وهي المعلومات التي وظفتها في الفصل الأول من هذا البحث والذي كان بعنوان **التعريف بشخصية قسطنطين**، وبالتحديد عن ذكر والتعريف بالجانب الشخصي أو المعلومات الشخصية لهذا الإمبراطور الروماني.

استخدمت هذا المرجع القريب من الفترة والتي نحن بصدد الحديث عليها حيث أفادنا المرجع أيضا في دراسة **الإصلاحات السياسية للإمبراطور قسطنطين الأول** وكذا بخصوص النظام الإداري الذي أقامه قسطنطين الأول عند تدشين عاصمته الجديدة المرتكزة في مدينة القسطنطينية والمتمثلة في هيكلة الحكومة الجديدة وكيفية تقسيم قسطنطين للمهام والمسؤوليات داخل جهاز حكومته الجديدة إلى ثلاث أصناف أساسية البارزون ، المبجلون، الموقرون.

بالاضافة الى مجموعة من المراجع العربية والأجنبية تتفاوت من حيث القيمة العلمية منها المراجع الأساسية من الدرجة الأولى، والتي كانت أساسية في بحثنا، ومنها من كانت ثانوية وهي مراجع من الدرجة الثانية.

فعند الحديث على المراجع الأساسية والتي تصنف كمراجع من الدرجة الأولى والتي وظفناها في بحثنا نذكر كتاب "**الدولة والكنيسة**" في **جزئه الأول** والذي يتحدث عن عهد قسطنطين الأول، والذي كان من تأليف **عبد الحميد رأفت**، حيث أفادنا في الحديث عن شخصيته وكذا الجانب الديني.

ومن المراجع الأساسية التي وظفناها في بحثنا كتاب "**تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**" والذي ألفه **سعيد عبد الفتاح عاشور**، والذي وظفناه في معالجة الشخصية الدينية والسياسية للامبراطور قسطنطين.

من المراجع الأساسية التي وظفناها في بحثنا كتاب "**التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي**" الذي كان من تأليف

محمد البشير شنيتي، والذي وظفناه في متن الفصل الأول عند تحليل مسيحية قسطنطين الأول بالدوافع الدينية والسياسية وكذا في الفصل الثاني والرابع.

ونجد أيضا كتاب "**رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية**" الذي كان من تأليف **محمود محمد الحويري** والذي استعملناه في دراسة الجانب الشخصي من شخصية قسطنطين الأول، فيما يخص المعطيات التاريخية عن ولادته ونشأته بالإضافة إلى المعلومات المرتبطة بالجانب الديني والمسلك الروحي لقسطنطين وكذا **الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية قبيل** عهد قسطنطين الأول .

وهناك أيضا كتاب "**تاريخ الدولة البيزنطية**" الذي ألفه **جوزيف نسيم يوسف** أفادنا حول الحديث عن وفاة الإمبراطور قسطنطين وتعميده وفق مبادئ المذهب **الأريوسي**. وغيرها من المراجع الأخرى التي لاتقل أهمية.

بالاضافة الى المراجع العربية فقد استخدمنا مجموعة من الكتب الأجنبية تتفاوت من حيث القيمة العلمية.عند الحديث عن المراجع الأجنبية والتي كانت أساسية في بحثنا نذكر كتاب « **Constantin Un, Auguste Chrétien** » الذي كان من تأليف مزدوج لكل من **Bertrand Lançon** و**Tiphaine Moreau** الذي أمدنا بمعلومات معمقة وظفناها لمختلف التسميات التي عرف بها المؤرخون الاجتماع الذي حصل بين الإمبراطورين قسطنطين الأول وليكينيوس بالإضافة إلى المعلومات المتعلقة ببنود مرسوم جالريوس للتسامح الديني، وكذا نتائج مرسوم ميلانو على أوضاع مسيحي الإمبراطورية الرومانية.

ويتمثل المرجع الثاني في كتاب « **Le Christianisme de Constantin a la Conquête Arabe** » الذي ألفه المؤرخ الفرنسي **Pierre Maraval** تكمن أهميته في دراسة السياسة المنتهجة من قبل قطبي ميلانو تجاه أتباع الدين المسيحي، بالإضافة إلى اللّمحة التاريخية عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية في الفترة الممتدة من **اجتماع ميلانو** إلى توحيد الإمبراطورية تحت سلطة الإمبراطور قسطنطين الأول **(313- 323م)**.

الفصل الأول:
التعريف بشخصية قسطنطين الأول

الفصل الأول: التعريف بشخصية قسطنطين الأول.

I- حياة قسطنطين الشخصية.

II- حياة قسطنطين السياسية.

III- حياة قسطنطين الدينية.

قسطنطين الأول من الشخصيات التاريخية التي تركت أثرًا عميقًا في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بشكل خاص وفي تاريخ أوروبا بشكل عام، ويعتبر قسطنطين الأول أحد الأباطرة العظام في تاريخ الكيان الروماني وينتمي إلى العهد الإمبراطوري الثاني الذي يبدأ من عهد دقلديانوس (Dioclecianus) (284- 305م)[1]، ومن جانب آخر يعد قسطنطين الأول واضع نواة الإمبراطورية البيزنطية بتأسيسه لمدينة القسطنطينية[2]، وسنتناول بالدراسة في هذا الفصل حياة قسطنطين بجوانبها الشخصية والسياسية والدينية أي قسطنطين كشخصية تاريخية وكسياسي محنك وكرجل دين.

I- حياة قسطنطين الشخصية :

1- ولادته ونشأته:

هو فلافيوس فالريوس أوريليوس قسطنطينوس (Flavius Valerius Aurelius Constantinus) الملقب بقسطنطين الأكبر وهو ابن غير شرعي للقيصر قسطنطيوس كلوروس (Constantius Chloros) من عشيقته هيلينا (Helena) والمعروفة باسم هيلانة في المصادر العربية، والتي كان قد التقى بها في بيثينيا (Bithynia)، والتي كانت تعمل نادلة (ساقية) في أحد الحانات والتي كان قد أقام معها عدة سنوات ثمّ هجرها سنة 289م، ليتزوج من ثيودورا ابنة الإمبراطور ماكسيميانوس(Maximianus) وضعت هيلينا ابنها في مدينة نيسوس(نيش في صربيا) في إقليم إليريا في يوم 27 فيفري 272م أو حوالي 17 فيفري سنة 280م كما تشير بعض المراجع[3].

امتاز قسطنطين الأول بشخصية فذة فقد وهبته الطبيعة أثمن ما لديها فكان ذا عقل راجح وكان مهيب الطلعة، وكان محمود السيرة، وكان يضحك بتحفظ وأحتفظ منذ طفولته حتى أواخر

---

[1]- العبادي،م.، 1981، *الإمبراطورية الرومانية النظام الإمبراطوري و مصر الرومانية*،بيروت، ص.12.

[2]- حارش، م.هـ.، 1992، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*،الجزائر، ص.263.

[3]- خياط، ي.، 2010، *الدولة البيزنطية من النشوء حتى عهد جستنيان (284- 565م)*، الجزائر، ص.84، الناصري، س.أ.ع.، 1991، *تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري*، ط.2، القاهرة، ص. 428، الحويري، م.م.، 1995، *رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية*، ط.3، القاهرة، ص.35، ص.38.

عمره بقوته وصحته لالتزامه العفة وضبط النفس وكانت له عزيمة ماضية وكان عندما يريدأن يبلغ هدفًا معينا فإنّه يعمل فيه دون كلل أو ملل ويستنفذ كل وقته فيه ويفكر ويخطط له حتى يبلغ مبتغاه، وكان عبقريًا في تفكيره، وكان مجتهدًا ينظر في شؤون رعاياه، وكان في ميدان السياسة دبلوماسيا فذا وقد كلف باستقبال السفراء فأحسن المهمة، وفي ميدان المعركة فقد كان قائدا بارعا عرف كيف يتخلص من خصوصه واحدا تلو الآخر، عرف كيف يضع يده على نبض إمبراطوريته وهي في أحلك مراحل تاريخها، وقد قارن شعبه بين حكمته وعدالته، وبين الرذائل المتفشية في خصومه[1].

في سنة 293 ميعين الإمبراطور دقلديانوس قيصرين يكونا تحت الإمبراطورين الشريكين اللّذان يحملان اسم أغسطس(August)، وهما جالريوس (Galerius) في الشرق وقسطنطنيوس كلوروس في الغرب الذي أصبح قيصرًا على غالة وجنوب بريطانيا وإسبانيا وعلى إثر ذلك أرسل الأب ابنه إلى نيقوميديا(Nicomédie) عاصمة الإمبراطورية الرومانية ومقر إقامة الإمبراطور دقلديانوس لينال قسطا من التعليم وهناك نشأ قسطنطين نشأة ملكية ويتمتع برغد العيش ونشأ ملما بأحداث الإمبراطورية الرومانية عارفا بأسرار القصر الإمبراطوري وعارفا بخبايا السياسة ولم يكن لقلة تعليمه أثر في احترامه وتقديره للعلم والمعرفة ومختلف الفنون وطلاب العلم والعلماء، فقد شهد عهده نهضة علمية كبيرة[2].

2- أسرته:

كانت لقسطنطين أسرة كبيرة فبالإضافة إلى أبيه قسطنطنيوس كلوروس الذي كان قيصرا على غالة، وأمه هيلينا التي سلكت مسلكا متدنيا وأصبحت قديسة في الطائفة المسيحية كانت زوجة أبيه المعروفة باسم ثيودورا (Theodora) التي كانت ابنة أغسطس الغرب ماكسيميانوس.

كان أيضا لقسطنطين عدد من الأخوة من الذكور والإناث ففي الذكور كان له (3) ثلاثة إخوةهم يوليوس ودلماشيوس وهانيباليانوس وقضى أصغر الثلاثة نحبه وهو هانيباليانوس بينما تزوج أخواه الآخران من بنتين لشيخين موقرين في السناتو وأنجبنا فرعين جديدين للدوحة

[1]- عمران، م. س.، 2006 أ، *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، ط.1، بيروت، ص. 43.

[2]- الحويري، م.م.، 1995،ص. 39،الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 428، عمران، م. س.،2006أ، ص. 43.

الإمبراطورية فقد كان ليوليوس قسطنطيوس كثير من البنين والبنات أبرزهم جالوس وجوليان، أما أبنا دلماشيوس اللّذان منحا لقب الرقيب فهما دلماشيوس وهانيباليانوس بينما كان لقسطنطين3 إخوة من الإناث هن أناسطاسيا وأوتروبيا وقسطنطينا، بينما كانت له أخت من أبيه هي أناستاسيا(Anastasia) وقد تزوجت كل من أناسطاسيا وأوتروبيا من عضوين في مجلس الشيوخ الروماني من أصل نبيل في مرتبة القنصلهما أبتاتوس(Optatus) ونيبتيانوس (Neptianus)، بينما تزوجت الأخت الثالثة قسطنطينا من إمبراطور الشرق ليكينيوس وأنجبت منه ابنا هو ثمرة زواجهما ومنح لقب قيصر(Cesars) وبأمل مزعزع في السلطة بينما تزوجت أخت قسطنطين من أبيه أناستاسيامن باسيانوس (Basianus) الذي منحه قسطنطين حكم ايطاليا وبانونيا وإفريقيا[1].

تزوج قسطنطين مرتين ففي المرة الأولى تزوج مع منرفينا(Minervina) والتي تعلق معها في أيام شبابه، وتركت له ولدا واحدا وهو كرسبس(Crispus)، بالإضافة إلى بنتين هما قسطنطيناوهيلينا، وبعد ذلك تزوج الإمبراطور قسطنطين من الأميرة فاوستا (Fausta) إبنة الإمبراطور ماكسيميانوس وتركت له ثلاثة أولاد بالأسماء المتشابهة هم قسطنطين الثاني(ConstantinusII) قسطنطيوس الثاني(ConstantiusII) وقسطانز الأول (Constant I) وقد قسّم هؤلاء الثلاثة حكم الإمبراطورية بعد وفاة قسطنطين الأول سنة 337م، وكان التقسيم على النحو التالي:

1. أخذ قسطنطين الثاني غرب الإمبراطورية.
2. بينما أخذ قسطانز الأول الجزء الأوسط الشامل لإليريا والجزء الأوسط من شمال إفريقيا.
3. أما الجزء الشرقي من الإمبراطورية فقد كان من نصيب قسطنطيوس الثاني[2].

II- حياة قسطنطين السياسية:

1- نشأة قسطنطين الملكية: نشأ قسطنطين نشأة ملكية فقد أرسله أبوه قسطنطيوس كلوروس ليتربى في عرش دقلديانوس إمبراطور الشرق، الكائن في مدينة نيقوميديا (أزمير حاليا) الواقعة في

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، *اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها*، ج.1، ترجمة أبودرة، م.ع.، مراجعة وتقديم هاشم، أ.ن.، 1997، ط.2، القاهرة ، ص. 378، الناصري، س.أ.ع.، 1991،ص. 436.

[2]- جيبون، إ،بدون تاريخ، ص. 378، عاشور، س.ع. ف.، 2009، *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، بيروت، ص. 42.

آسيا الصغرى. وكانت في ذلك العهد مركز الإمبراطورية الرومانية فقد كان دقلديانوس هو مؤسس الحكم الرباعي[1].

بعد تنحي الإمبراطور دقلديانوس عن السلطة عام 305م ارتقى القيصر جالريوس إلى مرتبة الإمبراطور الأغسطس، وتربع على عرش الإمبراطورية الرومانية في مركز حكمه نيقوميديا، كما ارتقى والد قسطنطين القيصر قسطنطنيوس كلوروس إلى مرتبة الإمبراطور الشريك بينما صعد كل من ماكسيمينوس دايا(Maximinus Daia) وكذلك سفروس(Severus) إلى مرتبة القيصر، ممّا ساعد على تشكل الحكومة الرباعية الثانية والتي توزعت فيها السلطة على النحو التالي:

أ- الإمبراطور جالريوس والذي يحمل اسم الإمبراطور الأغسطس أو أغسطس الشرق أي الإمبراطور الأعلى مقاما، وتركزت دائرة سلطته في الأقسام الوسطى والشرقية للإمبراطورية الرومانية وهذه الأقاليم هي:

تراقيا(Thrace)، آسيا الصغرى(Asiana)، بنطس(Pontica)، مويسيا(Moesia) وكانت عاصمة حكم الإمبراطور هي مدينة نيقوميديا.

ب- الإمبراطور ماكسيمينوس دایاوالذي حمل اسم الإمبراطور القيصر أي الإمبراطور الأدنى مقاما، وتركزت دائرة سلطاته في الأقسام الشرقية المتبقية من الإمبراطورية وهي مصروسوريا.

ج- الإمبراطور قسطنطيوس كلوروس أو أغسطس الغرب أي الإمبراطور الشريك والذي يتركز حكمه في كل من جنوب بريطانيا، غالة، إسبانيا وكانت عاصمة حكمه هي مدينة تريفيز(Trivis).

د- الإمبراطور سفروس والذي حمل اسم الإمبراطور القيصر، والذي تركز حكمه في كل من إيطاليا وبانونيا وإفريقيا، وكان مركز حكمه هو مدينة ميلانو (Milano) في شمال إيطاليا[2].

غير أن هذا التقسيم السياسي الذي آلت إليه الإمبراطورية الرومانية بعد اعتزال كل من دقلديانوس وماكسيميانوس في عام 305م، سرعان ما اختل بسبب تطورات سياسية حدثت في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الرومانية وأول حدث هام طرأ في تلك الفترة من تاريخ

---

[1]- الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.428، -Besnier, M.,1937,*Histoire romaine,L'empire romain del'avènement des severes au concile de Nicée*,T.4 ,1ER P., Paris,p. 347.

[2]- عبد الحميد، ر.،1975، *الدولة والكنيسة*، ج.1، *قسطنطين*، القاهرة، ص. 59- 63، -Bergasse, H.,1975, *Le tescin de la décadence romaine, pour les hommes d'aujourd'hui* , paris,p.67.

الإمبراطورية هي تلك الغزوات الجرمانية(غزوات قبائل البيكت "Pictes") التي هددت منطقة النفوذ الرومانية في شبه الجزيرة البريطانية مما استوجب تحرك القوات الرومانية المرابطة في غالة، لصد تلك الغارات، وكان قسطنطين آنذاك نيقوميديا مقر إقامة الإمبراطور جالريوس، وكان الأمير الصغير قد استدعي من قبل أبيه أغسطس الغرب لمساعدته في حماية الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية، وقد تماطل أغسطس الشرق جالريوس في الإذعان لطلب أغسطس الغرب قسطنطنيوس كلوروس،خوفا من تولي الأمير الصغير عرش أبيه إذا وافت الأخير المنية حيث كان جالريوس يتحكم في ثلاثة أرباع الإمبراطورية لكون القيصرين ماكسيمينوس دايا وسفروسمن أتباعه، فلم يبقى له من منافس على السلطة الإمبراطورية سوى أغسطس الغرب، غير أن إلحاح قسطنطيوس بطلب ابنه سرعان ما أذعن له جالريوس، غير أن مؤرخ الفترة لاكتانتيوس(Lactantius) يصور الأحداث بصورة أخرى فيؤكد أن لحاق قسطنطين بأبيه في ميناء بولوني(Boulongne)، وهو يستعد للعبور إلى بريطانيا تم بفرار الأمير الصغير من قبضة إمبراطور الشرق وأن الأخير فور سماع فرار ابن أغسطس الغرب حتى جن جنونه فأمر بخيالته اللّحاق به، لكن عناية الرب أنقذت قسطنطين ومكنته من اللّحاق بأبيه[1].

ما أن أدرك قسطنطين أباه عند ميناء بولوني حتّى توجه الاثنان إلى بريطانيا وهناك تمكنا من القضاء على غارات الأعداء على حدود الإمبراطورية، وبعد ذلك عاد قسطنطيوس كلوروس إلى مدينة يورك(York) حيث توفي بتاريخ 25 جويلية عام 306م، وفور ذلك بايع الجنود قسطنطين أغسطسا مكان أبيه، غير أن هذا التطور الذي استجد على الأمير الصغير سرعان ما حرك عبقرية هذا الرجل فطلب من أغسطس الشرق جالريوس الاعتراف بسلطته فرفض الأخير طلبه ثم أذعن للأمر الواقع، ومنحه سلطة الإمبراطور بدرجة قيصر على مقاطعة غالة وما يتبعها من أقاليم[2].

---

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.63-64، -Le Beau, C., s.d., *Histoire du bas empire*, T.9,Paris,p.31, Duruy,V.,1883, *Histoire des romains depuis les temps les plus reculés jusq'à l'invasion des barbares*,T.7,Paris, p.5.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 65، - Le Beau, C., sans date, p.33

وبهذا التعديل البسيط في نظام السلطة الرباعية هبط قسطنطين من مرتبة الإمبراطور الشريك أي أغسطس الغرب، أي من المرتبة الثانية إلى المرتبة الرابعة غير أن قسطنطين تقبل قرار أغسطس الشرق جالريوس، لما ستأتي به الأيام ومقابل ذلك منح جالريوس تابعه الأمين القيصر سفروس لقب الأغسطس أي الإمبراطور الشريك، بينما أبقى على قيصره ماكسيمينوس دايا على مركزه كقيصر، وهكذا ولزمن قصير عادت الحكومة الرباعية من جديد[1].

غير أن السلام المؤقت الذي عاشته الإمبراطورية الرومانية سرعان ما انقلب إلى اضطراب وحروب، إذ حدث أن ثار الحرس البريتوري (الحرس الإمبراطوري) على محافظ مدينة روما(Roma) بسبب السياسة الضريبية القاسية التي أصدرها الإمبراطور سفروس أغسطس الغربعد أن قام بإحصاء سكان إيطاليا وروما قصد تحسين وضعية الخزانة الإمبراطورية لتكثيف قوات الإمبراطورية الرابطة على الثغور، وتم تصفية محافظ المدينة وإعلان ماكسنتيوس (Maxintius) إمبراطورا على إيطاليا وما يتبعها من أقاليم في يوم 28 أكتوبر عام 306م، وماكسنتيوس هو ابن ماكسيميانوس الذي اعتزل السلطة كما ذكرنا سلفا، وسرعان ما توجه ماكسنتيوس لضمان اعتراف جالريوس به وصك على عملته التي أصدرها حينئذ اسم "الأمير الذي لا يقهر". أغسطس الشرق جالريوس لدى سماعه الأخبار الآتية من الغرب استشط غضبا، وملأ الحقد قلبه تجاه ماكسنتيوسورفض الاعتراف بسلطته، واعتبره خارجا على القانون مغتصبا للسلطة ووجه رسالة إلى أغسطس الغرب سفروس يحثه على التحرك عسكريا لاسترجاع الأقاليم الضائعة من أيديه من قبل ماكسنتيوس ووضع تحت إمرته الجيش الذي كان تحت خدمة ماكسيميانوس وكان على ماكسنتيوس أن يواجه هذا العدوان ، فأرسل إلى أبيه يحثه على العودة من الاعتزال ويمنحه لقب الإمبراطور الأغسطس وقبل الأب عرض الابن وحمل العباءة الإمبراطورية من جديد وسرعان ما أحدث وجود ماكسيميانوس الفارق بين المتقاتلين وسرعان ما تحركت قوات سفروس شطر روما للقضاء على تحالف الأب مع ابنه غير أن الرياح جرت بما لا تشتهي أطماع سفروس، إذ فور التقاء الجيشين قرب روما حتى فعل وجود ماكسيميانوس فعل السحر في أفئدة

[1]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 65.

جنوده فحسب، بل حتى في صفوف الأعداء وفر سفروس هاربا وتحصن عند مدينة رافنا(Ravenna)غير أن ذلك لم يحمه من القتل[1].

أدرك ماكسيميانوس أدرك خطورة الموقف وانتظر تحرك جيش جالريوس من مركزه نيقوميديا فراح يعقد التحالفات لتقوية جانبه في الحرب فلم يجد أمامه سوى قسطنطين قيصر الغرب إذ أن قيصر الشرق ماكسيمينوس دايا كان تابعا أمينا لجالريوس لذلك أرسل ماكسيميانوس إلى قسطنطين يحثه على الانضمام إلى جانبه في الحرب القادمة ضد جالريوس وعرض عليه لقب الأغسطس ويد ابنته فاوستا، تردد قليلا الإمبراطور قسطنطين وراح يروي في الأمر لعله يجد حلا لهذه الأزمة فأدرك أنه من النفع بالنسبة له أن يدخل في حلف ماكسيميانوس بالنظر للعرض السخي، ضف إلى ذلك حتى يقوي صفه أمام جالريوس خصوصا وأن الأخير كان يتحين الفرصة للقضاء على نفوذ قيصر الغرب وقد قبل منحه لقب القيصر مرغما أمام مجريات الأحداث، وليس حبا في شخص قسطنطين غير أن قسطنطين لم يتحرك عسكريا لمؤازرة حليفه وصهره ماكسيميانوس، غير أن قبوله لعرض الأخير يعد تحديا صريحا لجالريوس[2].

إثر مقتل سفروس بعد تحالف كل من ماكسيميانوس وماكسنتيوس وخلو منصب الأغسطس الثاني أو أغسطس الغرب الشرعي حسب القاعدة التي وضعها دقلديانوس تحرك أغسطس الشرق جالريوسمن مركزه في نيقوميديا للثأر لمقتل شريكه في الحكم أغسطس الغرب سفروس، وكان ماكسيميانوس مدرك لخطورة الموقف فراح يعقد التحالفات كما ذكرنا آنفا، وعمل على تحصين مدينة روماتحصينا يمكنها من خلاله صد زحف قوات جالريوس، توجه الأخير بقواته نحو إيطاليالإعادة النظام وسيادة القانون ولتأديب أولئك الثائرين الرومان وكذا لتأديب السناتو، غير أن الحملة سرعان ما باءت بالفشل الذريع نظرا لقلة تلك القوات ونظرا لحصانة مدينة روما، ضف إلى ذلك تخوف جالريوس من ولاء قواته فعاد أغسطس الشرق أدراجه غير أنه أباح لجنوده تدمير كل

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.65- 66، - Albertini, E., 1970, *L 'empire romain*, 4eme éd., Paris,pp.348-349.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.67.

المدن ونشر الدمار حتى لا يعطي الفرصة لأعدائه للحاق به، فعم بذلك الدمار كل أراضي إيطاليا الشمالية[1].

كان من الانعكاسات الأساسية لفشل حملة جالريوس أن تحول الصراع إلى ماكسيميانوس وابنه ماكسنتيوس فسرعان ما حاول ماكسيميانوس أن ينفرد بالسلطة دون ابنه، ولم يطق الابن أن يشاركه الأب السلطة الإمبراطورية، وقد غال ماكسيميانوس في إهانة ولده ماكسنتيوس وقام بإهانته أمام الجنود ونزع عنه رداءه الإمبراطوري غير أن الجنود الذين ساهموا في رد حملة جالريوس سرعان ما انقلبوا على ماكسيميانوس وقدموا فروض الولاء والطاعة لأبنه ماكسنتيوس، وبذلك دارت الدوائر على ماكسيميانوس الذي لم يجد حلا سوى الالتجاء إلى صهره وحليفه قسطنطين الذي منحه قبل ذلك لقب الأغسطس، ويد ابنته فاوستاسلفا[2].

2- التحالف بين ماكسيميانوس وقسطنطين: أدرك قسطنطين خطورة الموقف فسعى لقبول عرض ماكسيميانوسحتى يضمن تأييد الأخير له في صراعه المرتقب أمام الإمبراطور ماكسنتيوس، وكذا لضمان عدم تحالف الأب مع إبنه ضده خصوصا أن موقفه أصبح ضعيفا أمام إتساع سلطان ماكسنتيوس، الذي ضم إلى دائرة سلطانه كل من إيطاليا وإسبانيا وإفريقيا، وبذلك أصبح ماكسنتيوسصاحب السلطة العليا في الجزء الغربي من الإمبراطورية[3].

من جانب آخر شعر منصب الأغسطس الثاني أو أغسطس الغرب بمقتل سفروس منذ سنة 306م، فعيّن جالريوس أغسطس الشرق رفيق السلاح ليكينيوس(Likinius) في منصب الأغسطس الثاني ومنحه إقليم بانونيا حتى يمكنه من استعادة أقاليمه الضائعة من قبضة ماكسنتيوس وتم ذلك في مؤتمر كارنونتوم (Carnuntum) عام 307م وهي مدينة واقعة على نهر الدانوب في بلد النمسا حاليا، واجتمع في هذا المؤتمر كل من دقلديانوس الذي كان يعيش في عزلة منذ استقالته من منصبه بالإضافة إلى ماكسيميانوس وجالريوس وصديقه ليكينيوس، وتخلف عن الحضور كل من قسطنطين وماكسيمينوس دايا وتقرر في المؤتمر كما بينا آنفا تعيين ليكينيوس إمبراطورا شريكا مكان سفروس وتمّ الاتفاق على تعيين كل من ماكسيمينوس دايا وقسطنطين نوابا

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.67- 68، Albertini, E., 1970, pp.348-349 -

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.68.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.68.

للأباطرة في مرتبة قيصر، واتفقوا على أن ماكسنتيوس عدوا للإمبراطورية وجبت محاربته غير أن قرار جالريوس منح رفيق دربه ليكينيوس لقب الأغسطس دفعة واحدة أغضب ماكسيمينوس دايا الذي احتج على هذا القرار وطلب من جالريوس منحه لقب الأغسطس هو كذلك، أمام هته الفوضى عمل أغسطس الشرق على منح لقب "أبناء الأباطرة" كل من القيصرين ماكسيمينوس دايا وقسطنطين غير أن الأول لم يقنع بذلك أما الأخير فإنّه تمتع بلقب الأغسطس منذ أن منحه إياه ماكسيميانوس عام 306م، فلم يجد جالريوس أمامه سوى الاستسلام ومنح بصورة قانونية عام 308م كل من ماكسيمينوس دايا وقسطنطين لقب الأغسطس وبذلك وجد في الإمبراطورية 6 أباطرة يحملون لقب الأغسطس وهم جالريوس ليكينيوس، ماكسيمينوس دايا، قسطنطين الأول، ماكسنتيوس، ماكسيميانوس الذي كان إمبراطورا بلا أرض[1].

3- مؤامرة ماكسيميانوس ضد قسطنطين الأول:

كان الخاسر الأكبر من مؤتمر كارنونتوم هو الإمبراطور ماكسيميانوس الذي كان إمبراطورا بلا أرض، فعزم على السيطرة على أحد الأقاليم من أقاليم الإمبراطورية، وكانت أفضل تلك الأقاليم التي يمكن لماكسيميانوس أن يضع يده عليها هي إقليم غالة وما يتبعها من بلاد وكان حاكمها هو الإمبراطور قسطنطين الذي تجمعه بالإمبراطور ماكسيميانوس صلة المصاهرة وراح ماكسيميانوس يدبر المؤامرات للقضاء على صهره وحليفه قسطنطين للتربع على عرش تلك المقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، وقد واتت ماكسيميانوس الفرصة عندما ثارت بعض قبائل الفرنجة في الضفة الشرقية لنهر الراين في ربيع 310م في منطقة كولوني (Cologne) وكان ماكسيميانوس قد نصح قسطنطين باصطحاب عدد قليل من الجند نظرا لسهولة كسر شوكة تلك القبائل الثائرة وكان ماكسيميانوس يهدف وراء ذلك تحقيق هدفين:

الأول: هو مقتل قسطنطين على يد تلك القبائل الثائرة.

الثاني: استخدام الجيش الباقي لاستعادة منصبه الإمبراطوري.

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.68- 69، الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.430، Gregoire, H., Porgels, - j., Mereau,T. , Amarico,1964, *Les persécutions dans l'empire romain*, T.4 , Bruxelles, p.83.

غير أن فطنة قسطنطين مكنته من فهم خطة صهره، فما أن عبر نهر الراين(Rhin) أعلن ماكسيميانوسعن ارتدائه العباءة الإمبراطورية، واستولى على الخزانة العامة وأغدق على الحامية التي تركها قسطنطين وراء الكثير من المال حتى يضمنها إلى جانبه وما إن قارب قسطنطين كولونيحتى أشاع نبأ وفاته، غير أن ماكسيميانوس أخطأ تقدير قوة خصمه فما أن وصلت الأنباء إلى كولوني حتى عاد قسطنطين مسرعا عبر نهري الرون والسين ولم يكن ماكسيميانوس قد هيأ نفسه لمثل هذه الضربة، فقد حط قسطنطين بقواته عند مدينة أرلس (Arles) ولم يكن ماكسيميانوس قد جهز نفسه لمثل هذه الضربة فهرب مسرعًا إلى مارسيليا وهناك لحق به قسطنطين وسلمه أهل المدينة للفاتح غير أن قسطنطين عفا عنه لتحقيق هدفين:

أ- ضمان ولاءه وطاعته لسيده قسطنطين ويستخدمه ورقة رابحة في صراعه مع أعدائه.

ب- عدم اثارة غضب ولده ماكسنتيوس بسبب إعدام والده[1].

غير أن الإمبراطور ماكسيميانوس سرعان ما تنكر لجميل صهره، وراح يتحين الفرصة للقضاء على حياة قسطنطين وكانت الوسيلة إلى ذلك المبتغى هو ابنته فاوستا التي راح الأب يحرضها على زوجها وتتلخص المؤامرة في طلب ماكسيميانوس لابنته فاوستا ترك باب الغرفة مفتوحًا حتى يتمكن من قتل قسطنطين، غير أن فاوستا كانت وفية لميثاق الزواج الذي يربطها بالإمبراطور قسطنطين فأخبرت زوجها بما يدور في خيال أبيها وأمر قسطنطين حراس قصره بترك ماكسيميانوس للمثول بين يديه في غرفته الخاصة وبذلك اعتقد ماكسيميانوس أن الخطة المدبرة قد نجحت واحتج ماكسيميانوس لدى مسائلته من قبل حراس القصر بأنّه يريد أن يخبر الإمبراطور بأمر هام وتجاوز الحراس ووصل إلى حجرة الإمبراطور وهناك باغته خاصة حراس الإمبراطور وعلى إثر ذلك شرب ماكسيميانوس السم وانتهت حياته على ذلك النحو، وبذلك خرج من الصراع واحد من أهم أقطابه[2].

4- الصراع بين ماكسنتيوس وقسطنطين الأول: ما إن تخلص قسطنطين من منافسه وصهره ماكسيميانوسفي عام 310م، حتى راح يتحين الفرصة للتخلص من منافسه على لقب الإمبراطورية

[1] - عبد الحميد،ر، 1975،ص.69 - 71، الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.430.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.71-72.

الغربية الإمبراطور ماكسنتيوس الذي كان يسيطر على الجزء الأكبر من أراضي الجزء الغربي من الإمبراطورية الغربية فبالإضافة إلى مركز حكمه في ايطاليا ضم إلى دائرة نفوذه كل من إسبانيا وإفريقيا بينما سيطر قسطنطين على الجزء المتبقي من الإمبراطورية وهو غالة وجنوب بريطانيا التي كانت من ممتلكات والده قسطنطيوس كلوروس قيصر الغرب أيام دقلديانوس[1].

عمل قسطنطين على إلغاء عبادة هرقل الذي كان العقيدة السائدة لعرش ماكسيميانوس وعوضه بعبادة رب الشمس الذي لا يقهر (Sol Invictus) والذي كانت عبادته منتشرة في منطقة غالة الرومانية والذي كان يعتبره سكان المنطقة صورة للإله أبولو، وقد صاحب ذلك إعلان قسطنطين أنه ينحدر من سلالة الإمبراطور كلاوديوس القوطي(Clodius Goticus) موحد الإمبراطورية والذي كان قد أدخل هذا الرب من قبل وبذلك وجد قسطنطين سندا يقيم عليه شرعية أحقيته في عرش الإمبراطورية ويعتبر ماكسنتيوس مغتصبا للسلطة وجبت محاربته، ومقابل ذلك أعلن ماكسنتيوس أحقيته في عرش الإمبراطورية الغربية، ورد على قسطنطين باتهامه أنه هو الذي قتل أباه وأنه سينتقم لهذه الجريمة[2].

بدأ الصراع بين الإمبراطورين قسطنطين وماكسنتيوس عندما تحركت قوات قسطنطين شطر إسبانيا وضمتها إليها سنة 310م، وقدأدى ذلك إلى حدوث مجاعة كبرى في إيطاليا نظرا لكون شبه جزيرة أيبيريا الممون الوحيد لإيطاليا بالقمح وقد دفع ذلك بالإمبراطور ماكسنتيوس إلى مهاجمة إفريقيا ولإعادتها إلى حظيرة ممتلكاته، وقد تم ذلك في نفس العام وقد حسن ضم ماكسنتيوس لهذه المنطقة الوضع المعيشي في ايطاليا، وأعطى الإمبراطور إيطاليا وضعا عسكريا أحسن، ومن ثمّ بدأت ملامح الصراع المرتقب بين ماكسنتيوس وقسطنطين تلوح في الأفق[3].

مع مطلع عام 312م بدأت بوادر الصراع المنتظر بين قسطنطين وماكسنتيوس تلقي بظلالها على منطقة غرب الإمبراطورية، وقد بدأ قسطنطين حملته الكبرى في ربيع من عام 312م وانطلق من قاعدته في غالة من مدينة تريفيز، كان لقسطنطين من القوات 90 ألف من المشاة و8 ألف على الخيل غير أنه ترك جزءًا من هذه القوات لحماية جبهة الراين وكان لماكسيميانوس من

[1]– الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.431، عمران، م.س.،2006أ، ص. 41–42.

[2]– الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.431.

[3]– الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.431.

القوات 170 ألف من المشاة و18ألف فارس، غير أن ماكسنتيوس لم يضع على جبهات القتال سوى نصف هذا العدد نظرا لترك جزء من هذه القوات لحماية باقي أجزاء الإمبراطورية الرومانية، كجزر كورسيكا وصقلية وسردينيا ومقاطعة إفريقيا.

بدأ قسطنطين حملته فشن هجوما ضخما على شمال إيطاليا حيث عبر جبال الألب عن طريق مونت سني(Mont Cenis) وهبط إلى سوزا(Susa) حيث ركز ماكسنتيوس ببعض التحصينات الصغيرة غير أن رجال قسطنطين استطاعوا الاستيلاء عليها، ومن ثم توجهت قوات قسطنطين صوب تورينو (Augusta Taurinorum) حيث قوبل بخيالة عدوه فاستطاع القضاء عليهم استسلمت على إثرها تورينو للفاتح ثم اتبعها بمدينة ميلانو مكث فيها قسطنطين قليلا، ثم توجه نحو بريشيا(Briscia)حيث التقى بمجموعة أخرى من فرسان عدوه فكانت الغلبة لجنوده، وكانت القوة الرئيسية لماكسنتيوس قد تركزت عند فيرونا (Verona) وكان الهدف من تركيز ماكسنتيوس لتلك القوات في تلك المنطقة هو الحيلولة دون انضمام قوات قسطنطين لقوات صهره ليكينيوس وقطع الصلة بينهما وقد أوكل ماكسنتيوس أمر قيادة تلك القوات لقائده روريكيوس البومبي(Ruricius Pompeianus)، وكان موقفه قويا لحد كبير حيث جهزت المدينة لتصمد أمام أي حصار مرتقب وقد فرض قسطنطين الحصار عليها غير أن روريوكيوس استطاع أن يفر من المدينة ويجلب من سيده ماكسنتيوس قوات جديدة مكنته من مواجهة قوات عدوه ووقعت معارك ضارية قتل على إثرها روريكيوس واستسلمت مدينة فيرونا للفاتح وما يتبعها من مدن، فأصبح الطريق مفتوحا أمام قسطنطين فشق طريقه صوب روما ووجد نفسه أمام نهر التيبر في يوم 26 أكتوبر 312م[1].

أفزع نبأ الهزائم المتتالية لقوات الإمبراطور ماكسنتيوس مسامعه فقرر تحصين مركز سلطته في مدينة روما للصمود أمام أي عدوان أو حصار قد يشنه قسطنطين على هذه المدينة غير أن هناك أمر إحداث أخرج ماكسنتيوس من قاعدته وهو حديث الناس أن قوات الإمبراطور قسطنطين لا تقهر فأمر حملة الكتب السيبيلية باستطلاع الغيب وأخبروه أن هناك نبوءة تقول بهلاك أعداء الرومان في يوم 28 أكتوبر 312م، واعتقد ماكسنتيوس ذو العقيدة الوثنية أن هذا اليوم هو تاريخ

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.78- 79.

تتويجه بلقب الإمبراطورية الغربية، فقرر الخرج من مدينة روما وعبر نهر التيبر لملاقاة عدوه ويعتبر المؤرخون هذه الخطوة الغير مدروسة من جانب ماكسنتيوس هي من الأسباب التي أدت إلى هزيمته في حرب قسطنطين حيث بدل أن يترك قوات قسطنطين تعبر النهر وتصل منهكة فيسهل القضاء عليها تجرأ هو بهذه الخطوة وعبر نهر التيبر ووصل إلى منطقة تعرف باسم الصخور الحمراء(Saxa Rubra) تقع قرب جسر ملفيان أو القنطرة الملفية (Mulvius Pons) وهناك جرت الموقعة الفاصلة ودرت معارك ضارية في يوم 28 أكتوبر 312م انتهت بهزيمة قوات ماكسنتيوس وغرق الإمبراطور وجزء من قواته في نهر التيبر وهكذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان في ذلك اليوم، ويشبه يوسابيوس القيصري ما حدث في هذا اليوم بالنسبة لماكسنتيوس أمام قسطنطين بما حدث لفرعون أمام موسى حيث عصى كل من ماكسنتيوس وفرعون أمر الرب فكانت عاقبة أمرهم خسرا[1].

5- قسطنطين في روما:(أنظر مخطط رقم 1)

في يوم 29 أكتوبر من عام 312م دخل قسطنطين رفقة قواته روما وكان لهذا لفتح آثاره البالغة على مستقبل الإمبراطورية الرومانية وعلى الحياة السياسية للإمبراطور قسطنطين الأكبر ومن أعمال الإمبراطور قسطنطين أثناء مكوثه في العاصمة التاريخية للإمبراطورية الرومانية هو زيارته لمجلس الشيوخ الروماني (Le Cenat) ووعده باحترام هذا المجلس وتدعيمه مقابل ذلك شرف المجلس الإمبراطور قسطنطين بتعيينه في المقام الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب أغسطس كما خلع مجلس الشيوخ الروماني على قسطنطين لقب ماكسيموس (Maximus)[2].

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.80-81، Remondon, R.,1964, *La crise de l'empire romain de Marc Aurèle à Anastase*, 1er éd., Paris, pp.134-135.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.81، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.225.

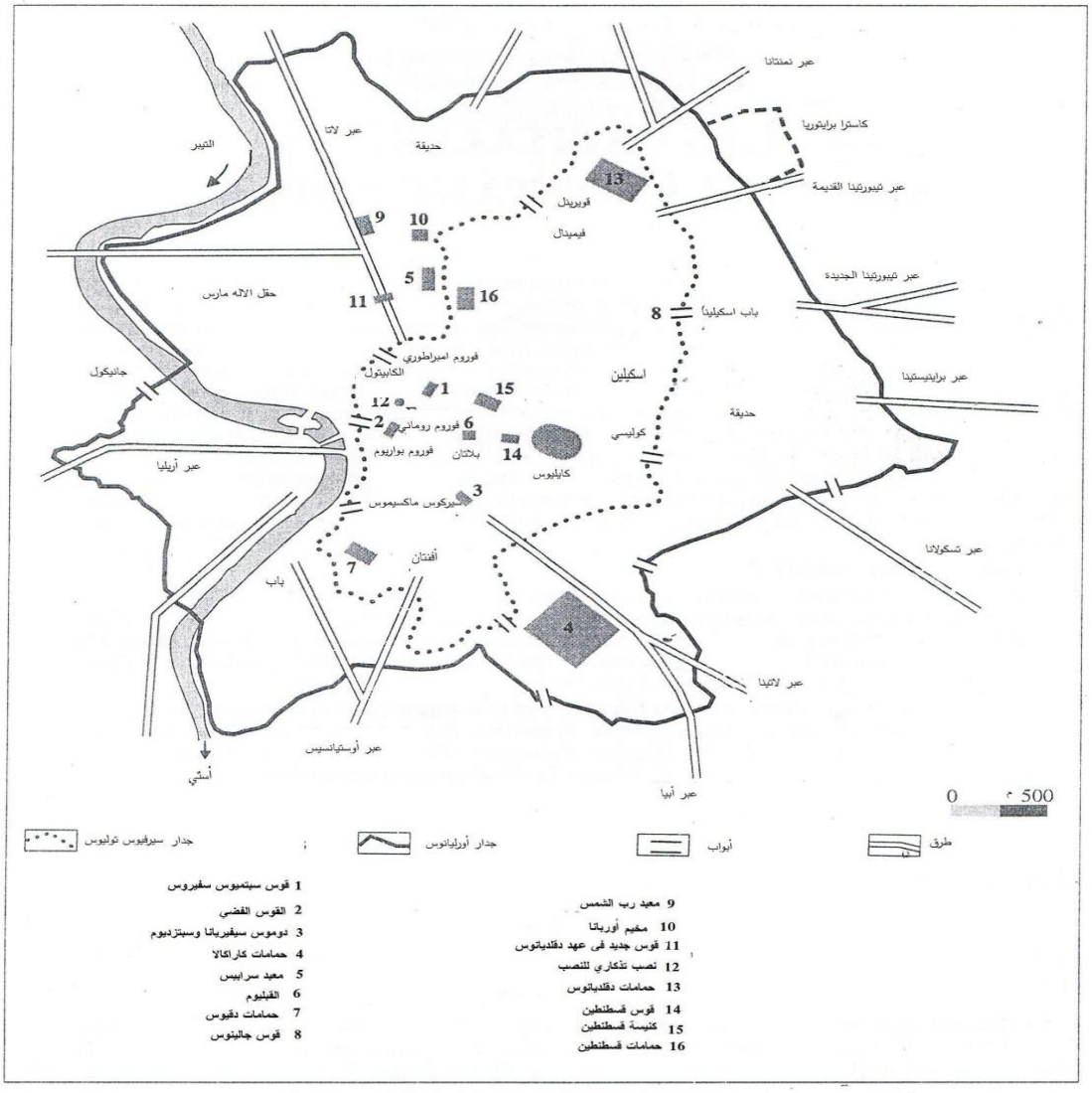

المصدر : مخطط روما في القرن الثالث والرابع الميلاديين،خريطة أصلية.

مخطط رقم 1: روما في عهد الإمبراطور قسطنطين.

Bertrandy, F., Demarolle, J.M., Rémy, B., 1998, *L'empire Romainde 192 à 337 après J.- C.*, Paris, p. 10.، بتصرف الطالب.

من جانب آخر عمل قسطنطين على معاقبة معارضيه وعلى رأسهم ماكسنتيوس وعائلته وأتباعه، فقام باستخراج جثة الإمبراطور ماكسنتيوس من قاع نهر التيبر وقام بفصل رأسه عن جسده وطيف برأسه في مدينة روما، كما أرسل إلى إفريقيا لتقر بتغيير سيدها كما قام بإعدام ابني الإمبراطور المقتول، وتم إعدام كل من ينتمي إلى عائلته ومن جانب آخر عفى عن أبرز أتباعه تحقيقا للعدالة شريطة خضوعهم لسطلته من جانب آخر عمل على إطلاق سراح كل المساجين الذين كان الطاغية ماكسنتيوس قد زج بهم في السجن واستدعى من المنفى كل المواطنين الذين كانوا قد عانوا من طغيان ماكسنتيوس وصدر قانون عفو عام هدأت به الخواطر في كل من ايطاليا وإفريقيا وصقلية[1].

كان انتصار قسطنطين عل خصمه ماكسنتيوس نهاية لعهد سيطرة الحرس البريتوري (الحرس الإمبراطوري) سدة الحكم حيث كان هذا الحرس يعزل الأباطرة وينصب آخرين، من هذا المنطلق أدرك قسطنطين أن تحكمه في دواليب السلطة لا يتأتى إلاّ عن طريق إلغاء هذا الحرس البريتوري واستخدام جنوده في حماية حدود الإمبراطورية الرومانية ومن ثم سعى قسطنطين إلى تطبيق مخططه فراح يهدم ثكنات هذا الحرس وبدأ في قمع قوات الحرس البريتوري ونفي البقية الباقية إلى جبهة الراين والدانوب وكان القضاء على هذا الحرس ضربة قاسية لمكانة مجلس الشيوخ والشعب حيث أصبحت مدينة روما خالية من السلاح كالصبي من دون سلاح تخضع لسلطان قسطنطين وقواته[2].

مكث قسطنطين بضعة أشهر في روما ثمّ توجه شمالا نحو مدينة ميلانو في مارس 313م حيث وفاه ليكينيوس هناك وكان اختيار قسطنطين لميلانو هو رغبته في الابتعاد عن ضجيج مدينة روما وتقاليدها الوثنية، وتجنب إدعاءات رجال السناتو وكذلك لأن ميلانو في ذلك الوقت تعتبر العاصمة الرسمية للجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية، شهدت مدينة ميلانو احتفالات الزواج بمناسبة زواج ليكينيوس إمبراطور الشرق بأخت الإمبراطور قسطنطين المسماة قسطنطينا (قسطنديا في بعض المراجع)، وعلى هامش احتفالات الزواج اجتمع الإمبراطوران لمعالجة مشاكل

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 224- 225، عبد الحميد، ر.، 1975، ص.81.

[2]- جيبون، إ.،بدون تاريخ، ص. 225- 226، عبد الحميد، ر.، 1975، ص.81.

الإمبراطورية الرومانية وعلى رأس تلك القضايا المشكلة الدينية واتفق الطرفان ليكينيوس وقسطنطين على رسم خطة دينية معينة تقضي بمنح حق حرية العقيدة لجميع الرعايا والمواطنين الخاضعين لسلطانهم على شرط ألا يتعارض ذلك مع المصلحة العليا للإمبراطورية الرومانية، وهو الاتفاق الذي شاع بين المؤرخين باسم "مرسوم ميلانو" أو "مؤتمر ميلانو" أو "براءة ميلانو" في عام 313م[1].

6- الصراع بين قسطنطين وليكينيوس على عرش الإمبراطورية الرومانية(313-323م): بعد قضاء قسطنطين على منافسه ماكسنتيوس على عرش الإمبراطورية الغربية تربع على عرش الإمبراطورية الرومانية ثلاثة أباطرة هم:

أ- قسطنطين:

والذي امتدت دائرة نفوذه على الجزء الغربي من الإمبراطورية والذي يشمل جنوب بريطانيا وغالة واسبانيا وجنوب إيطاليا وإفريقيا، وكانت عاصمة حكمه هي مدينة روما.

ب- ليكينيوس:

امتدت دائرة نفوذه على الجزء الأوسط من الإمبراطورية والتي تشمل كل من شمال إيطاليا وبانونيا وإليريا وتراقيا واليونان وداسيا ودلماسيا، وكان مركز حكمه هو مدينة ميلانو.

ج- ماكسيمينوس دايا: امتدت دائرة نفوذه على الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية الشامل لكل من آسيا الصغرى والشام ومصر، وكان مركز حكمه هو مدينة نيقوميديا[2].

غير أن هذا الوضع السياسي سرعان ما تغير بعد دخول كل من ليكينيوس وماكسيمينوس دايا في صراع على سينفرد بعرش الإمبراطورية الشرقية، وكان السبب الأساسي من وراء اندلاع الصراع بين الإمبراطورين هو رغبة كل طرف في الاستئثار بالسلطة، وكان البادئ بالحرب هو الإمبراطور ماكسيمينوس دايا الذي تحرك بقواته وسيطر على المقاطعات الآسيوية التي كانت حكرا

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984،*التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب ودورها في أحداث القرن 4م*،الجزائر، ص. 280، عبد الحميد، ر.، 1975، ص.82.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.81- 82، الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص .432.

على أغسطس الشرق جالريوس، فوضع يده على أخصب مقاطعات الإمبراطورية الرومانية في جزءها الشرقي وهي مقاطعة آسيا الصغرى[1].

.الصراع بين ماكسيمينوس دايا وليكينيوس:

بدأت حملة ماكسيمينوس دايا في صراعه مع ليكينيوس في شتاء 312/ 313م حيث خرج من سوريا في شتاء غاية في القسوة ووصل إلى بيثينيا منهكا ثم توجه غربا وعبر مضيق البسفور ليصل إلى مدينة بيزنطة التي لم تصمد طويلا أمام حصار ماكسيمينوس دايا، ولم تتوقف حملة هذا الأخير عند هذا الحد بل وصل زحفه في مقاطعات البلقان حيث أخضع تراقيا وزحف إلى مدينة هرقليا(Heraclia) وأخضعها لحكمه، ثم زحف غربا بمقدار 18 ميلا حتى سمع بخروج قوات ليكينيوس من قاعدته في ميلانو متوجها شطر مدينة أدرنة أو أدريانوبل(Adrianopolis) حيث مكث هناك لبعض الوقت مجهزا نفسه لملاقاة ماكسيمينوس دايا خرج بعدها لملاقاة الأخير وقد جرت الموقعة الفاصلة قرب هرقليا بتاريخ 30 أفريل 313م، وكانت قوات ماكسيمينوس دايا تبلغ 70 ألف رجل بينما قوات ليكينيوس تبلغ 30 ألفرجل غير أن الأمر الذي أحدث الفارق بين المتصارعين هو أن قوات ماكسيمينوس دايا أنهكتها طول مسافة الحملة بينما تمتع جنود ليكينيوس بالراحة،نتيجة موقعة هرقلياهو تحقيق ليكينيوس لنصر مؤزر وهزيمة ماكسيمينوس دايا‌وتراجعه إلى الوراء، وقد شبه المؤرخون موقعة هرقليا بموقعة الصخور الحمراء بين قسطنطين وماكسنتيوس[2].

. هزيمة ماكسيمينوس دايا ووفاته:

تلقى ماكسيمينوس دايا‌هزيمة موجعة عند موقعة هرقليا تقهقر على إثرها وتراجع إلى الوراء فمكث قليلا في مركز حكمه في نيقوميديا حاول على إثرها جمع شمل قواته باسترضاء سكان مدينة نيقوميديا، غير أن محاولاته لجمع شتات قواته باءت بالفشل فانسحب منها وتوجه جنوبا نحو سوريا وفي معيته بلاطه وأفراد حاشيته لكنه توقف عند كبادوكيا وارتدى عباءته الإمبراطورية، فكان ذلك دليلا على نيته في مواصلة حربه ضد ليكينيوس وفي هذا الوقت كان ليكينيوس قد وصل إلى

[1]– الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 432.

[2]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص.87– 90.

نيقوميديا، وبعث برسالة إلى حاكم بثينيا بتاريخ 13 جويلية 313م فحواها ما إتفق عليه بعد اجتماع ميلانو بين الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس والقاضية بمبدأ حرية العقيدة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وعلى إثر ذلك تقهقر ماكسيمينوس دايا وتوجه نحو طرسوس (Tarsus) والتي تحصن بها، غير أن الوفاة عالجته، وسرعان ما خرج من الصراع واحد من أهم أقطابه[1].

. **عودة الصراع بين ليكينيوس وقسطنطين:** بعد وفاة ماكسيمينوس دايا في صيف 313م، تربع على عرش الإمبراطورية الرومانية إمبراطوران قسطنطين في الغرب وليكينيوس في الشرق، وكان قسطنطين قد أستدعي إلى غالة عقب اجتماع ميلانو في مارس 313م لرد هجمات الفرنجة على جبهة الراين، ففكر قسطنطين في إقامة ممتلكات فاصلة بين ممتلكاته في الغرب وممتلكات غريمه في الشرق فوقع الاختيار على زوج أخته من أبيه المعروفة باسم أناستاسيا أمّا زوجها فهو باسيانوس وقد حكم الأخير مناطق بانونيا، إيطاليا، إفريقيا وقد استشار قسطنطين شريكه في حكم الإمبراطورية ليكينيوس على هذا الرأي غير أن الأخير رفض، فكان ذلك سببا في اندلاع الحرب بين الإمبراطورين[2].

غير أن ليكينيوس وافق في الأخير على اقتراح قسطنطين أملا منه في الدخول مع القيصر باسيانوس في حلف مشترك ضد قسطنطين، وممّا يدعم هذه الفكرة هو وجود شقيق لباسيانوس يعمل في خدمة ليكينيوس هو سنكيو(Senecio) وفعلا دبرت مؤامرة بين أغسطس الشرق ليكينيوس وقيصر الغرب باسيانوس، عمل على تحريكها مستشار الإمبراطور ليكينيوس سنكيو، غير أن فطنة الإمبراطور قسطنطين مكنته من فهم مخطط المؤامرة فقدم للإعدام صهره باسيانوس وطلب من ليكينيوس أن يسلمه سنكيو فرفض أغسطس الشرق طلبه فكان ذلك مدعاة لاندلاع الحرب بين الطرفين[3].

أوقع قسطنطين هزيمة ساحقة بالفرنجة عند الراين، مكث على إثرها في مدينة تريفيز حتى نهاية صيف عام 314م، تحرك بعدها بجيش بلغ تعداده 20000 مقاتل لغزو المناطق التابعة

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.90-91.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.93.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.93.

لأغسطس الشرق ليكينيوس، وكان لدى الأخير جيش بلغ تعداده 35000 جندي ورغم هذا التفوق العددي إلاّ أن الهزيمة كانت من نصيبه، فقد أوقع قسطنطين هزيمة ساحقة بقوات ليكينيوس عند منطقة سبالا(Cibale) الواقعة بين الساف والدراف وقد جرت هذه الموقعة في 08 أكتوبر 314م، ارتد إثرها ليكينيوس إلى سرميوم التي تبعد عن سبالا بمقدار 50 ميلا حيث لحق به قسطنطين واحتل على إثرها مدينة سرميوم، فأجبر ليكينيوس على التراجع وتوجه إلى منطقة داسيا، ومنها إلى تراقيا وقد جرت الموقعة الفاصلة في وادي ماورديا(Mardia) في تراقيا وكانت نتيجة تلك الموقعة الفاصلة هو تكبد قوات ليكينيوس لهزيمة قاسية، أجبرت أغسطس الشرق على الاستسلام وطلب الهدنة وأرسل مندوبيه إلى أغسطس الغرب قسطنطين لهذا الغرض فعقدت معاهدة بين الطرفين في ديسمبر 314م، تقرر على إثرها تنازل ليكينيوس عن كل ممتلكاته في أوروبا ماعدا تراقياوبهذه التسوية ضم قسطنطين إلى دائرة نفوذه مناطق مليئة بالمال والرجال، وبذلك مالت كفة الصراع لصالح أغسطس الغرب، بينما احتفظ أغسطس الشرق بالمناطق المتبقية من أراضي الإمبراطورية الشاملة لتراقيا، آسيا الصغرى، الشام، مصر[1].

توقفت الحرب مؤقتا بين الإمبراطورين عمل قسطنطين على تقوية قوته انتظارا للنزال الأخير ضد أغسطس الشرق ليكينيوس، بعد موقعة وادي ماورديا عاد قسطنطين مرّة واحدة نحو ميلانو،وبعد ذلكعاد على إثرها إلى البلقان ما بين سنوات (314- 321م)عمل خلالها الإمبراطور على شحن قواته والعمل على إشعال نار الفتنة في الأراضي التابعة لليكينيوس، وكان هذا الأخير قد عمل على اضطهاد المسيحيين نظرا لرغبة هؤلاء في التخلص من حكم ليكينيوس ذو العقيدة الوثنية والانضمام إلى سلطة الإمبراطور قسطنطين المؤيد للطائفة المسيحية، وفي عام 321م، بدأت أول بادرة للصراع المرتقب بين قسطنطين وليكينيوس وهي تعيين قسطنطين لابنيه كرسبس وقسطنطينII قنصلين من دون استشارة شريكه في الحكم ليكينيوس، وفي عام322م عبر قسطنطينن هر الدانوبوحقق فوزا على السارماثيين(Sarmatians)، وفي عام 323م شن قسطنطين حملة ضخمة على القوط (Goths)، أجبره هذا الهجوم على المرور في أراضي مقاطعة تراقيا

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.94.

التابعة لليكينيوس فاحتج أغسطس الشرق على انتهاك حرمة أراضيه ولم يبد قسطنطين أي اهتمام فكان ذلك نذيرا لحرب أخيرة على لقب الإمبراطورية الرومانية، بين قسطنطين وليكينيوس[1].

. **الحرب الأخيرة بين قسطنطين وليكينيوس وهزيمة الأخير**:أضحت الحرب بين أغسطس الشرق ونظيره في الغرب أمرا لا مفر منه وكان لدى ليكينيوس من القوات 15000 من المشاة و 15 ألف فارس من خيرة فرسان فريجيا (Phrygia) وكبادوكيا (Cappadocia) بينما لم تزد قوات قسطنطين عن 12 ألف مقاتل من مختلف الأسلحة (بين فرسان ومشاة) غير أن جنود قسطنطين كانوا يتفوقون على قوات ليكينيوس في الخبرة العسكرية[2]بدأت أولى المعارك بين الطرفين يوم 03 جويلية 323معند مدينة أدريانوبل (حاليا أدرنةEdrene) وفيها تلقى ليكينيوس أولى هزائمه، وما لبث أن فرض الأمير كرسبس الحصار على بيزنطة وتلقى أسطول ليكينيوس هزيمة قاسية استسلمت على إثرها مدينة بيزنطة، وكانت المعركة الفاصلة عند خريسوبوليس بتاريخ 18 سبتمبر عام 323م، تلقى على إثرها ليكينيوس آخر هزائمه وفقد كل شيء، وسلّم نفسه لقسطنطين الذي أمر بنفيه، إلى تسالونيكا لكن سرعان ما أمر بإعدامه في العالم التالي 324م[3].

وهكذا استطاع أغسطس الغرب قسطنطين أن يزيح من طريقه آخر منافس له على عرش الإمبراطورية الرومانية، ويخضع لحكمه كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية وبذلك عاشت الإمبراطورية من 323 إلى337م أفضل أيام تاريخها يحكمها حاكم واحد، وتعيش في عالم واحد وتسودها عقيدة واحدة[4].(أنظر خريطة رقم1)

---

[1]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص.97.

[2]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص.98.

[3]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص.98، Petit, P.,1967, *Précis d'histoire ancienne*, Paris, p.301 –

[4]– الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 441، Duruy, V., 1876, *Histoire romaine jusqu'à l'invasiondes barbares*, 13eméd., Paris, p.529, Letoubon, F.,1995, *La ruche greque et l'empire deRome*, Gronoble, p.323. –

خريطة رقم1: الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع.

- عاشور ، س.ع. ف.،2009، ص.56 ، بتصرف الطالب.

III- حياة قسطنطين الدينية: جانب مهم في شخصية قسطنطين الأكبرذلك المتمثل في مسلكه الديني أو حياته الروحية وقد أسال هذا الجانب حبر الكثير من المؤرخين المهتمين بحياة وعهد قسطنطين الأكبروالواقع أن فترة حكم قسطنطين الأول (306- 337م) تمثل عدة تيارات دينية متضاربة فبالإضافة إلى العقائد الوثنية كالعبادة الرسمية المتمثلة في العبادة الإمبراطورية، نجد أن المسيحية انقسمت إلى مذهبين المذهب الأريوسي والمذهب الأثناسيوسي[1].

والباحث في الشخصية الدينية لهذا الإمبراطور الروماني المصلح والذي يمثل عهده مرحلة تحول ديني كبير في العالم الروماني بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة، يجد أنّها شخصية غامضة ولم تستقر على توجه ديني معين وقد كان للحياة السياسية أثر عميق في معتقدات الإمبراطور وميولاته المذهبية، وغالبا ما أثرت المصلحة السياسية للإمبراطور قسطنطين على توجهه الديني[2].

1- وثنية قسطنطين الأول:

نشأ قسطنطين الأول نشأة وثنية وكان يؤمن بالشمس ويقدسها، وكان يحي الطقوس المتعلقة بهذه الديانة، وعندما كان أغسطسا على المقاطعات الغربية للإمبراطورية الرومانية (جنوب بريطانيا وغالة وإسبانيا) في مركز حكمه في مدينة تريفيز الواقعة على نهر الراين، كان بلاطه يعج بالكهنة والفلاسفة الوثنيين من مختلف المذاهب الوثنية وقد اتسم بشخصيته الوثنية منذ ولادته في عام 272م إلى غاية سنة 312م تاريخ تحقيقه أول انتصار على إمبراطور الغرب ماكسنتيوس في خريف من عام 312م، وبالإضافة لإيمانه بالشمس، عمل قسطنطين على تدعيم مختلف العقائد الوثنية كالعبادة الرسمية المتمثلة في عبادة الإمبراطور، كما احتفظ كغيره من الأباطرة الرومان بلقب الكاهن الأعظم(Pontifex Maximus)[3].

---

[1]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 38.

[2]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 38.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 106، ص. 138،ص.140، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 38- 39، الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 432- 433.

2- مسيحية قسطنطين الأول:

بالإضافة إلى وثنية قسطنطين الأول واعترافه بالديانات الوثنية كأحد الشرائع المرخص إتباعها في ربوع الإمبراطورية الرومانية نلاحظ أيضا اعتناق قسطنطين الأول للمسيحية وإضفائه الشرعية القانونية للديانة المسيحية كديانة معترف بها من قبل السلطة الحاكمة في الإمبراطورية الرومانية.

والواقع أن مسيحية قسطنطين الأول قد أثير حولها كلام كثير وأثارت هته النقطة بالذات بال المؤرخين على اختلاف مشاربهم ومدارسهم وأرائهم، وقد اختلفت الآراء حول الدوافع التي دفعت بالإمبراطور إلى إصدار مرسوم ميلانو عام 313م وهو المرسوم أو الوثيقة القانونية التي وضعت المسيحية على قدم وساق مع بقية الديانات الأخرى المنتشرة في أنحاء التراب الروماني.

اعتقد بعض المؤرخين وعلى رأسهم يوسابيوس القيصري(Eusbius De Cesare) أسقف قيصرية (260- 340م)، صديق الإمبراطور ومحل ثقته وكذا لاكتانتيوس بالإضافة إلى مؤرخ القرن الخامس الميلادي سوزومينوس(Sozomenos) أن الدافع الأساسي من وراء إصدار قسطنطين مع شريكه في الحكم ليكينيوس لمرسوم ميلانو سنة 313م هو إيمان قسطنطين بالمسيحية إيمانا نابعا من القلب وهو ما دفعه فيما تبقى له من حياته إلى تدعيم المسيحيين وتدعيم الكنيسة[1].

غير أن هناك مجموعة أخرى من المؤرخين والذين يمثلهم الدارسون العلميون المعاصرون يعللون السبب من وراء إصدار مرسوم ميلانوتعليلا آخر وهو أن إصدار قسطنطين الأول ذلك المرسوم سببه سياسي رغم أن الإجراء كان ديني فقد دعم المؤرخون المعاصرون الرأي القائل بأن تأييد قسطنطين للكنيسة منبعه المصلحة السياسية فقد كانت كل سياسة يقتفيها قسطنطين هدفها الأول والأخير تدعيم مركزه في السلطة وتحقيق المصلحة العليا للإمبراطورية الرومانية وعلى رأس

[1]- شنيتي،م.ب.، 1984،ص.279- 281، الحويري، م.م.، 1995، ص. 65- 66، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 103- 104.

أولئك المؤرخين والدارسين المعاصرين أوستروجرسكي(Ostrogorsky) وويل ديورانت(WillDurant) وجونز (Jones)[1].

يعلل أصحاب رأي أن قسطنطين الأول قد دعم الكنيسة المسيحية بفضل إيمانه بالمسيحية إيمانا نابعا من القلب بالرواية المشهورة التي يرويها قسطنطين الأوللصديقه ورفيق دربه وأحد مؤرخي الكنيسة يوسابيوس القيصري، وفحوى الرواية أنّه أثناء زحف الإمبراطور قسطنطينبجيشه من قاعدته في مدينة تريفيز الواقعة على نهر الراين لمواجهة خصمه ماكسنتيوس إمبراطور إيطاليا وأيبيريا وإفريقيا في رومامركز حكم الأخير رأى بعد اجتيازه جبال الألب (وهي الفاصل الطبيعي بين غالة وإيطاليا) هالة من النور فوق قرص الشمس الجانحة للمغيب في هذه الهالة مرسوم عليها صليبا من النور مكتوبا عليه بفضل هذا ستنتصر وباللغة اللاّتينية (In Hoc Signo Vinces) ولما نام الإمبراطور بالليل رأى رؤيا ظهر له السيد المسيح ومعه الصليب موصيا قسطنطين باتخاذه شعارا له ولجنوده أثناء صراعه مع إمبراطور الغرب ماكسنتيوس، وكان لهذه الحادثة التاريخية ماهز في نفسية الإمبراطور، وتحرك قسطنطين بجيشه لملاقاة خصمه وجرت موقعة جسر مليفيان بتاريخ أكتوبر 312م عند منطقة للصخور الحمراء قرب روما وانتصر الإمبراطور بفضل تأييد إله المسيحيين له، وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية ودخل روما فاتحا بتاريخ 29 أكتوبر312م، ولاقه أهل روما من عامة وحكام ونوابا للسناتو، بترحيب كبير وكان لهذا النصر العسكري الذي حققه قسطنطين أثر على التوجه الديني للإمبراطور حيث أدرك أن انتصاره على خصمه وتوحيده للمقاطعات الغربية تمّ بفضل تأييد إله المسيحيين له، ومن ثم عزم على تأييد الطائفة النصرانية في ربوع الإمبراطورية الرومانية[2].

ويروي لنا لاكتانتيوس كيف أن الإمبراطور جاءته رؤيا في الليل تأمره بأن يكتب على دروع جنوده حرفي الخاء والراء وهما الحرفان الأولان من اسم السيد المسيح بالإغريقية وهو اسم

[1]- شنيتي،م.ب.، 1984،ص.279- 281، الحويري، م.م.، 1995، ص. 65- 66، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 103- 104.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 103- 104، ص .80-81، الحويري، م.م.، 1995، ص. 66، الناصري س.أ.ع.، 1991، ص. 433- 434، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 279- 280.

خريستوس(Christos)، فكان هذا دافعا لتحقيق جنود الإمبراطور قسطنطين الانتصار في موقعة جسر ملفيان[1](Milivian Bridge) في أكتوبر من عام 312م.

بينما تدعم المدرسة التاريخية الثانية والتي يمثلها الدارسون والباحثون العلميون المعاصرون كأستروجوسكي وويل ديورانت وجونز ونورمان كانتور(Norman Cantor) وبوركهارت (Burckhardt) أن السبب الحقيقي من وراء إصدار قسطنطين الأول لمرسوم ميلانو في مارس313م مع شريكه في السلطة ليكينيوس والقاضي بحرية العقيدة في ربوع الإمبراطورية الرومانية هو إيمانه بالمسيحية كدين يحقق لقسطنطين مصلحته السياسية المتمثلة في تحقيق المصلحة العليا للإمبراطورية الرومانية.

إذن يرجع الدارسون لعهد قسطنطين الأكبر عهد التحول الديني في الإمبراطورية الرومانية وفي أوروبا من الوثنية المتداعية نحو المسيحية المتنامية، أن السبب الأساسي لتدعيم قسطنطين لمركز المسيحيين والكنيسة هو إدراكه أن تأييد هته الطائفة من المجتمع الروماني هي التي ستحقق للإمبراطور المصلحة السياسية في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية، وتحقيق الوحدة الدينية التي تعضد الوحدة السياسية[2].

من هذا المنطلق يحلل المؤرخون أن السبب الأساسي لتأييد قسطنطين للدين المسيحي هو تحقيق المصلحة العليا للإمبراطورية الرومانية، فبينما كان الكيّان الروماني يعيش مرحلة الشيخوخة في النواحي السياسية والدينية بسبب عدم مسايرة النظام الذي وضع أسسه أكتافيوس أغسطس (Octavius August) (27 ق.م- 14م) للأوضاع العامة التي أضحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية في مطلع القرن الرابع ميلادي[3].

عرفت الأوضاع الدينية نشاط وحيوية وانفتاحا على كل المؤثرات الدينية الإغريقية الأصل بالإضافة إلى الديانات المستوردة من الشرق كديانة إيزيس من مصر، ومثراس من فارس

[1]- الناصري، س. أ. ع.، 1991، ص. 433.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 103- 104.

[3]- العبادي، م.، 1981، ص. 81- 98، ص .102- 104، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 103- 104، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 10- 12.

وسبيل(كبيل) من آسيا الصغرى، والمسيحية التي نبتت في فلسطين في زمن الإمبراطور أكتافيوس أغسطس (27 ق.م- 14 م)[1].

كان قسطنطين رومانيا خالصا عرف يضع يده على إمبراطوريته وهي في محنتها وقد أدرك منذ مبايعته أغسطسا في مدينة يورك في بريطانيا سنة 306 م، أن مصلحة الإمبراطورية تكمن في تأييد الطائفة المسيحية نظرا لإدراكه أن المسيحية في صراعها مع الوثنية سيكتب لها النصر خصوصا لو اعتنق إمبراطور ما المسيحية وأيد الكنيسة، فأراد أن يكون هو صاحب الفضل وأن تحفظ له الكنيسة جميل أفعاله طوال عمرها[2].

أيقن قسطنطين الأول أن مكانة العقائد الوثنية بدأت في الأفول في قلوب المواطنين الرومان وأنّها أصبحت لا تشبع الحاجة الروحية لإتباعها ومريديها، بينما أثرت المسيحية بشكل مباشر ومست الحياة اليومية للمسيحيين وأصبح المسيحيون يمثلون دولة داخل دولة بفضل التنظيم المحكم للجهاز الكنسي، وقد أراد قسطنطين الأول أن يستفيد من خبرة رجال الدين المسيحيين وفي إخلاص المسيحيين لرؤسائهم، وتفانيهم في خدمة دينهم فأراد أن يستفيد من هته الطائفة خصوصا لو أصبح الإمبراطور الروماني هو رأس تلك الكنيسة وسيدها الأعلى، ويستخدم مسيحي الإمبراطورية الرومانية في تحقيق الأهداف العليا للإمبراطورية[3].

وقد أيدت الأحداث التاريخية التي تولدت طوال عهد قسطنطين ما يؤيد مسيحية قسطنطين بالدوافع السياسية، فقد كان قسطنطين قادرا على تغيير ميولاته العقائدية والمذهبية وفق ما تتطلبه مصلحته السياسية فقد ظل يؤيد المسيحيين على المذهب الكاثوليكي(الأثناسيوسي) طالما كان مركزه في روما وطالما اعتمد على غرب الإمبراطورية في قوته نظرا لأن مذهب الكاثوليكية القائم على الثالوث المقدس(La Trinité Divinée) هو السائد في الغرب وهو ما دفعه إلى تأييد هذا المذهب في مجمع نيقية I عام 325م أو ما يعرف بالمجمع المسكوني الأول وهو أول مجمع ديني مسيحي حضره أزيد من 300 رجل دينمن مختلف مناطق الإمبراطورية والذي انعقد في آسيا

[1]- الحويرى، م.م.، 1995، ص.49، عاشور، س. ع.ف.، 2009، ص. 30.

[2]- عمران، م.س.، 2006 أ، ص. 41، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 135- 140.

[3]- العبادي، م.، 1981، ص. 102- 104، الحويري، م.م.، 1995، ص. 49، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 135- 140، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص .35.

الصغرى والذي ترأسه الإمبراطور بنفسه حيث خرج المجمع بقرارات تقر عقيدة التثليث القائمة آنذاك في كثير من مناطق العالم الروماني والسائدة في أبرز كنائسها ككنيسة الإسكندرية وروما، وتعتبر عقيدة أريوس(Arius) الذي انعقد بسبب عقيدته مجمع نيقية I هرطقة، ومن الضروري حرمان أتباع المذهب الأريوسي(La Doctrine Arianisme) من رحمة الكنيسة، ونفي أريوس وأتباعه إلى إليريا (Illyricum)[1].

قرارات هذا المجمع لم تكن لتقرر على هذا النحو لو كان قسطنطين يعتمد على شرق الإمبراطورية الرومانية في قوته لكنه حينما بدأ يفكر في نقل عاصمته إلى الشرق وتدشينها رسميا بتاريخ 11ماي330م غير من ميولاته المذهبية فمدينة القسطنطينية(Constantinople)التي أصبحت المركز الجديد للإمبراطورية الرومانية كانت مقرًا تنبعث منه أراء الأريوسية على مختلف أنحاء الإمبراطورية فأيقن أنّه يجب أن يقضي على الخلاف المذهبي في ربوع الإمبراطورية، وهو ما دفعه إلى معاقبة أثناسيوس(Athanasius) ونفيه إلى غالة إلى مدينة تريفيز الواقعة على نهر الراين وفي هذا الشأن دعى قسطنطين إلى عقد مجمع صور I سنة 335م، حيث أدانت قرارات هذا المجمع قرارات مجمع نيقية I، وأخذ بعقيدة أريوس القائمة على التوحيد واتخاذها عقيدة المسيحيين في ربوع الإمبراطورية الرومانية[2].

وقد عمد قسطنطين عند فراش الموت وفق طقوس الأريوسية وأصبح مسيحيا كاملا ومن ثم توفي بتاريخ 22 ماي337م[3].

3- وفاة قسطنطين الأول: رغم النجاح الذي واكب حياة قسطنطين في حياته السياسية إلاّ أن حياته الأسرية لم تكن في مستوى النجاح الذي صادف حياته كإمبراطور، إذ ألمت أحداث عظام بأسرة قسطنطين فبعد أن أتم الإمبراطور توحيد الإمبراطورية الرومانية سنة 323م بعد موقعتي

---

[1]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 38- 41، عمران، م.س.،2006ب، ص.69، العبادي، م.، 1981، ص.250، - للمزيد من المعلومات عن أريوس ومذهبه وكذا عن مجمع نيقيةI أنظر كتاب عبد الحميد،ر.،1975، ص.167-204.

[2]- عاشور،س.ع.ف.،2009، ص .41، العبادي ، م.،1981، ص .297- 298 ، عمران ، م . س.،2006ب، ص. 71.

- للمزيد من المعلومات عن أثناسيوس والأثناسيوسية وكذا مجمع صورIعام335م، أنظر كتاب العبادي،م.،1981،ص.251- 254.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص.42، يوسف ،ج.ن.،2005، ص.58-59.

أدريانويل(أدرنة) في جويلية323م وخريسوبوليس(Chryso Polis)، والتي قضى فيها على منافسه على السلطة ليكينيوس والتي حدثت في يوم 18سبتمبر323م تفرغ الإمبراطور لإنشاء عاصمته الجديدة المسمّاة باسم روما الجديدة أو مدينة قسطنطين أو القسطنطينية، حيث فاقت التسمية الأخيرة كل التسميات وأخذت ذلك الاسم إلى غاية الفتح الإسلامي في القرن الخامس عشرفي حدود عام 1453م حينما تمكن محمد الفاتح من فتحها.

وقد دام بناء العاصمة الجديدة 6 سنوات وذلك من تاريخ 08 نوفمبر 324م إلى غاية 11 ماي 330م، حيث تمّ الاحتفال بإنشاء العاصمة الجديدة لمدة تزيد عن 40 يوما[1].

وبعد أن تفرغ الإمبراطور من مشاكله السياسية المتمثلة في توحيد الإمبراطورية وفي تأسيس عاصمة جديدة للإمبراطورية، كما بيّنا آنفا سخر مركزه كإمبراطور وحيد في الإمبراطورية لتدعيم الكنيسة المسيحية والمسيحيين في الدولة الرومانية، بتأييد السلطة الرومانية للدين المسيحي والعمل على انتشاره في أنحاء التراب الروماني وتحقيق الانتقال من الإمبراطورية الوثنية نحو الإمبراطورية المسيحية[2].

هذا عند الحديث عن الحياة السياسية للإمبراطور قسطنطين أمّا عند الحديث عن حياته الأسرية فقد كانت مليئة بالأحداث الأليمة بالمآسي، فقد كان لقسطنطين عدد من الأولاد من الذكور كان كبيرهم الأمير كرسبس الذي كان أحد أبناء الزوجة الأولى منرفينا، حيث ساهم هذا الابن في انتصارات والده في عدة مواقع لعل أهمها موقعتي أدريانوبل وخريسوبوليس ممّا جعله يتبوأ مكان الصدارة في أولاد قسطنطين ويكون ولي عهده هذه الخطية التي تتمتع بها كرسبس في ظل والده سرعان ما جلبت له الأحقاد خصوصا من زوجة أبيه فاوستا التي رأت في مركز كرسبس وحظوته لدى أبيه خطرا يهدد مصلحة أبناؤها الثلاث في الحكم فراحت تتحين الفرصة للإيقاع بالأمير الشاب، وحاولت أن تثير زوجها قسطنطين ضد ابنه وذلك باتهام الأمير الشاب بمحاولة الإيقاع بزوجة أبيه، وكذا بتحريض الإمبراطور قسطنطين ضد ولده عن طريق إيهام الأب بأن الحظوة التي غمرت الأمير الشاب، ومركزه بين الجند قد يعمل على تهديد سلطة الإمبراطور والإنقاص من

[1]– عبيد، ط.خ.، 2010، *تاريخ الدولة البيزنطية*، ط.1، عمّان، ص.28، عبد الحميد، ر.،1975، ص.98.

[2]– توفيق، ع.ك.، تقديم عمران، م.س.، 2009، *تاريخ الدولة البيزنطية*، الإسكندرية، ص. 43– 44، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 140.

عظمته بين رعايا الإمبراطورية الرومانية كل هذه الحيل من زوجة الإمبراطور مكنتها من تحقيق هدفها وقام قسطنطينبإعدام ولده[1].

غير أن حوادث القتل سرعان ما تصبح نسيا منسيا في عهد أهم سماته القتل والتصفيات الجسدية، فما إن تفرغ الإمبراطور من قتل ابنه حتى دارت الدوائر على زوجته فاوستا حيث تحركت مشاعر أم الإمبراطور هيليناعلى حفيدها الذي مات بغير وجه حق، وقررت أن تنتقم لموت حفيدها الذي مات وذلك باتهام زوجة الإمبراطور قسطنطين بتحريضها على الفتنة داخل الأسرة الواحدة وتم اتهام الإمبراطورة فاوستا بأنّها تقيم علاقة آثمة مع أحد العبيد في أحد الاصطبلات الإمبراطورية، فتم إصدار حكم الإعدام بحق الزوجة عن طريق الموت خنقا بعد أن رميت في حمام مليء بالبخار.

هكذا اتسمت الحياة الأسرية لذلك الإمبراطور الكبير الذي يشكل عهده نقطة تحول هامة في السيرورة التاريخية للعالم الروماني بصفة خاصة والعالم الأوروبي بصفة عامة[2].

أما عن الأعوام الأخيرة من حياة قسطنطين الأكبر فبعد أن انتهى الإمبراطور من أشغال مجمع صور عام335م عمل على مواجهة الأخطار الخارجية خصوصا الخطر الفارسي، حيث شكل تعدي الفرس على مملكة أرمينيا تهديدا صريحا لسلامة الإمبراطورية الرومانية حيث كانت المملكة تحمي ظهر الإمبراطورية من الشرق، فجهز قسطنطين جيشا جرارا لمواجهة الفرس غير أن مرضا عصف بصحته سنة 337م، ولقد أحس الإمبراطور بدنو أجله فقرر التوجه إلى قصر أشيريون(Achyrion) في نيقوميديا حتى يلقى الراحة اللاّزمة لمرضه واستدعى الإمبراطور يوسيبيوس أسقف نيقوميديا حتى يقوم بتعميده بالشعائر الخاصة حتى يصبح مسيحيا كاملا وكان يوسبيوس أريوسيا فقام بتعميد الإمبراطور قسطنطين وفق شعائر المذهب الأريوسي، وارتدى الإمبراطور الملابس البيضاء مثلما يفعل المسيحيون الجدد، ومن ثم فاضت روح الإمبراطور بتاريخ 22 ماي337م في اليوم الذي يصادف عيد العنصرة، وعند وفاة الإمبراطور نقل جثمانه إلى مدينة القسطنطينية حيث دفن بكنيسة الرسل واعتبر قسطنطين الرسول أو الحواري الثالث عشر كما تشير

[1]– جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 378–382، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 98– 99.

[2]– جيبون، إ. ،بدون تاريخ، ص. 382.

أحد النقوش الكنسية، وقد دفن الإمبراطور في ضريح مقدس داخل كنيسة الرسل أو كنيسة الحواريين الإثني عشركمّا تسمّى أيضا[1].

مهما تحدثنا عن شخص قسطنطين في جوانبه الشخصية والسياسية والدينية، فإننا لا نوفي هذه الشخصية التاريخية حقها، إذ أن هذا الإمبراطور الروماني بفضل ما أوتي من قوة شخصية وحكمة سياسية، استطاع أن يحدث انقلابا كبيرا في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة، وتضيق صفحات الفصل الأول من هذا البحث الأكاديمي أن توفي هذا العامود من أعمدة التاريخ حقه، ونرجو أن نكون قد وفقنا ولو جزئيا قد وفقنا على تسليط الضوء على شخصية قسطنطين الأكبر بجوانبها الشخصية والسياسية والدينية.

[1]- الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.453- 454، عمران، م.س.،2006 ب، *مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي*،الإسكندرية، ص. 72، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 385.

الفصل الثاني:
الإصلاحات الدينية للإمبراطور
قسطنطين الأول (306م- 337م)

الفصل الثاني: الإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول (306م- 337م).

I- الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية قبيل عهد قسطنطين الأول.

1- الديانات الرومانية الوثنية الأصلية.

2- الديانات الرومانية الآتية من الشرق.

II- الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية أثناء عهد قسطنطين الأول.

1- الأوضاع الدينية في الامبراطورية الرومانية مابين306و312م.

2- الأوضاع الدينية في الامبراطورية الرومانية مابين 312و337م.

لقد شكّل عهد قسطنطين الأكبر (306-337م) نقطة التحول من الوثنية المتداعية نحو المسيحية المتنامية[1]. لما أحدثه هذا الإمبراطور من إصلاحات عميقة على التوجه الديني للإمبراطورية الرومانية، حيث أعطى هذا الإمبراطور الشرعية القانونية للديانة المسيحية كأحد الشرائع المرخص إتباعها في أرجاء الكيّان الروماني بفعل مرسوم ميلانو في مارس 313م، وعمل على تدعيم مركز المسيحية بإعلاء شأنها بين مختلف الشرائع المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية، عن طريق مجموعة من الرسائل الإمبراطورية الموجهة نحو مختلف الكنائس الرومانية القاضية بتحسين الأوضاع المالية لها، وإلغاء كل القوانين الرومانية السابقة التي عملت على تقويض أركان الكنيسة، وتعمل على الحد من انتشار نفوذها[2].

I- الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية قبيل عهد قسطنطين الأول:

لقد عاشت الإمبراطورية الرومانية منذ بزوغ فجر تاريخها منذ زمن الإمبراطور أكتافيوس أغسطس(27 ق.م- 14م) تنوعا في الديانات والمعتقدات السائدة بين ربوعها.فنجد الديانات الرومانية الوثنية الأصلية والديانات الرومانية الآتية من الشرق سواء الوثنية منها على غراردیانة إيزيس من بلاد مصر أوالسماوية منها على غرار المسيحية الآتية من فلسطين.

1- الديانات الرومانية الوثنية الأصلية:عند الحديث عن الديانات الرومانية الوثنية الأصلية نجد كلمن:

أ- ثالوث الكابتول:المتكون منجوبتر، يونو، منرفة والذي تركزت عبادته بدرجة أكبر في غرب الإمبراطورية سواء في إيطاليا بصفة عامة أو في العاصمة روما بصفة خاصة، حيث كانت أهم

---

[1]-إنّ المتتبع لتاريخ الدّين المسيحي منذ نزول الوحي على سيدنا عيسى عليه السلام في مطلع القرن الأول الميلادي يدرك مدى انتشار هذا الدين في أرجاء العالم القديم، التي كانت الإمبراطورية الرومانية تمثل إطاره السياسي، وقد سهلت شبكة المواصلات الرابطة لأنحاء الإمبراطورية سرعة انتشار هذا الدين، التي كانت مدينة الناصرية في فلسطين نواته الأولى، لكن سرعان ما أصبحت كل منطقة من مناطق الكيان الروماني إلاّ وتحوي جالية مسيحية، وقد عرف تاريخ المسيحية في الثلاثة القرون الأولى للميلاد صراعا مع السلطة الرومانية التي رأت في انتشار هذا الدين الجديد خطرًا يهدد وضعها الديني، ويعمل على تقويض ركائز مجتمعها الروماني، إلى غاية القرن 4م الذي عرف عهد تحول روحي في ربوع الإمبراطورية الرومانية من الوثنية المتداعية نحو المسيحية المتنامية، وفي هذا القرن بدأت طبيعة الإمبراطورية الرومانية تتحول من إمبراطورية وثنية إلى إمبراطورية مسيحية (L'Empire Chrétien)، الحويري، م.م.، 1995، ص. 58-59، - Homo,L. , 1941, *Nouvelle Histoire Romaine*, Paris, p.517.

[2]- عبد الحميد، ر.،1975، ص.114-118، عمران ، م.س.،2006 أ، ص.44-45.

مدن هذه المقاطعة تنتشر فيها هذه العبادة على غرار المدن الممتدة من دوقة إلى سبيطلة وتيمقاد وتازولت وقيرطا.

ب- ديانات رومانية أخرى: بالإضافة إلى الثالوث المشار إليه نجد عبادة الإله مارس وهرمس وسيراس وباخوس وإسكولابيوس ورب الشمس، وأبولون وهرقل[1].

ج-ديانة عبادة الامبراطور(العبادة الرسمية): بالإضافةإلى عقائد الوثنية المحلية الرومانية عمل الأباطرة على تدعيم عقيدة عبادة الإمبراطور في أنحاء الإمبراطورية الرومانية أمل منهم في تدعيم مركزهم السياسي كحكام على عرش الإمبراطورية وكذا التأكيد على عظمة الإمبراطورية من خلال تعظيم شخص الإمبراطور المؤله بحيث ستستمد الإمبراطورية الرومانية عظمتها من مركز حكيمها الديني وكانت عبادة الإمبراطور هي عقيدة الرسمية في أراضي الإمبراطورية وقد عمل الأباطرة الرومان منذ زمن الإمبراطور أوغسطس على تأليه أنفسهم غير أن هذه العقيدة سرعان ما لقيت رواجا واسعا في شرق الإمبراطورية بينما لقيت هذه العبادة صعوبة في الإنتشار في غرب الإمبراطورية، وقد نظر أهل روما إلى هذه العقيدة بشيء من الريبة ورفضوا تأليه إمبراطور وهو على قيد الحياة بينما تقبلها سكان شرق الإمبراطورية نظرا لكون عدم وجود حد فاصل بين الإله والإنسان[2].

2- الديانات الرومانية الآتية من الشرق:

أ- الديانات الرومانية الوثنيةالآتية من الشرق:عرفت الإمبراطورية الرومانية انتشار وتوافد العديد من الديانات الوثنية الشرقية وعلى رأس تلك الديانات الوافدة من الشرق والتي لقيت رواجا بين نفوس المواطنين الرومان ديانة الأم الكبرى الفريجية كيبيلي (Cybelle) من آسيا الصغرى وديانة مثراس (Mithras) من فارس وديانة إيزيس(Isis)من مصر[3].

.ديانة كيبيلي:أصبحت ديانة كيبيلي جزءا من الديانات الوثنية الرومانية ذات الأصل الشرقي منذ عام 204 ق.م، وظلت منذ ذلك العهد تحت إشراف لجنة حكومية تعرف باسم لجنة الخمس عشر

[1]- حارش، م.هـ .،1992،ص. 222، الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.431.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 50، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.30.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 49 ، عاشور، س.ع.ف.، ص.30-31.

التي تعمل على مراقبة العبادة العامة أو مراقبة العقائد والديانات المختلفة المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية والتي كان مركزها هو مدينة روما، وقد لقيت ديانة كيبيلي انتشارا واسعا منذ القرن الثاني الميلادي في عدة مناطق من الإمبراطورية الرومانية على غرار مقاطعات إفريقيا، غالة ليديا، فريجيا، إيطاليا وغيرها من الأقاليم ولم يرخص بإقامة طقوسها وشعائرها بصورة قانونية إلى مع مطلع القرن الثالث الميلادي[1].

وقد تميزت تلك الديانة بترتيلات ورقصات غامضة، كما أن طقوسها امتازت بالقصف والعربدة، وكانت شعائرتلك الديانة تقام في فصل الربيع، فإذا جاء الربيع صام أنصارها وصلوا حزنوا لموت أتيس (Attis)عشيق كيبيلي وزوجها، وقام كهنتها بجرح سواعدهم وقاموا بشرب دماءهم، وقام بحمل الإله الشاب إلى قبره في احتفال مهيب، وفي اليوم الثاني من الاحتفالات ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهالي المحتلفين يبعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض، وفي اليوم الأخير من الاحتفالات تحمل صورة الأم الجليلة كيبيلي في موكب للنصر ويقوم حاملوها باختراق صفوف الجماهير تحييها وتناديها باسم أمنا(Nostra Domina)[2].

. **ديانة مثراس:** بالإضافة إلى ديانة كيبيلي عرفت الإمبراطورية الرومانية انتشار الديانة المثرائية الوافدة من فارس، وكما تعرف بالمثرائية تعرف أيضا بديانة مثراس ومثراس هو الإله الذكر الخالد الذي قضى على الموت إلى الأبد، أوجده أهورامزدا إله الخير في صراعه الأبدي مع أهريمن (Ahriman)الشر، وعرف مثراسأيضا كإله للنور والحق والطهر والشرف، ويقال في بعض الأحيان أنّ مثراس هو إله الشمس الذي يقود الحرب ضد أهريمنإله الباطل والظلام ومن هذا المنطلق فإن المثرائيةلا تخرج عن المرحلة المتأخرة من عبادة زرادشتالتي تتلخص تعاليمها في أن العالم منبعه من أصلين هما: النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير وعن الظلمة نشأ كل شر[3].

وقد اقتصرت عضوية المنتمين إلى هذه الديانة على الذكور فقط دون الإناث وانتشرت بصورة واسعة بين صفوف الجند الذين كانوا يفضلونها على غيرها نظرًا لما تحتويه هذه الديانة من

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص.50 ،عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.31.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص.50، ص.51.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص.51، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.31.

تعاليم تبعث في نفوس الجنود الأمل والقوة والشجاعة والصدق والأخوة ومع مطلع القرن الثالث أصبح أغلب أفراد الجيش الروماني من المؤمنين بالديانة المثرائية، وقد صكت عملات رومانية توحي إلى مثراس مرسوم داخلها شكل فارس وقد عانت المثرائية من انتشار الدين المسيحي الذي رحب بالنساء كأتباع له، يجدن راحتهن النفسية في هذا الدين[1].

ومن جانب آخر فإن إنتقال ديانة مثراسلم يتم من فارس إلى روما مباشرة وإنّما انتقلت عبر بوابة آسيا الصغرى حيث تعد مدينة طرابيزون أهم مراكز عبادتها، وقد إزداد أتباع ديانة مثراسازديادا هائلا خلال القرنين الأول والثاني للميلاد في مناطق الغرب الأوروبي كما أن المؤمنين بالمثرائية كانوا جالية ملحوظة في العاصمة روما، كما انتشرت أيضا في الموانئ والمدن التجارية كالإسكندرية وبيرايوس وقرطاجة ولندن[2].

.ديانة إيزيس: ديانة وثنية أخرى مصدرها الشرق وبالضبط مصر وهي ديانة الإلهة المصرية إيزيسوقد لقيت هذه الديانة رواجا كبيرا بين شعوب البحر المتوسط وقد عرفت تلك الأجناس كيف مات أخ إيزيس المعروف باسم أوزوريس وزوجها الذي يسمّى سيرابيس إله الخير وقد عرف الجميع كيف مات زوجها في صراعه مع أخيه ست إله الشر وكيف قامت إيزيس بالتجوال في العالم القديم تقوم بجمع أشلاء زوجها سيرابيس وقد اتسمت طقوس تلك الديانة بتعاليم الرقة والرأفة والرحمة وعرف عن إيزيس خصال الزوجة الوفية والأم الحزينة وما احتوت صلواتها المقامة في المساء من أعمال البر والخير المصحوبة بالرحمة والشفقة وشملت ديانة إيزيس الرجال والنساء بعكس المثرائية التي اقتصرت عضوية الانتماء إليها على الرجال فقط دون النساء[3].

انتقلت ديانة إيزيس إلى روما أثناء القرن الثاني قبل الميلاد، وكان انتقال هذه الديانة من مصر إلى غرب الإمبراطورية قد تم بفضل مساهمة التجار الإغريق الذين نقلوا هذه الديانة سواء من مصر إلى إيطاليا مباشرة،أو من قبل المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص.51- 52.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص.52.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 52، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.31.

الإيجي وصقلية، وكان أتباع هذه الديانة من الفقراء والمحررين من العبودية والأجانب والعبيد، مع ظهور بعض السيدات من الطبقة الأرستقراطية[1].

دخلت هذه الديانة عصرها الذهبي مع ارتقاء أسرة فلافيوس (Flavius)السلطة في روما ولدينا نقش يعود إلى زمن الإمبراطور فسباسيانوس(Vespasianus)(69- 79م) أول أباطرة تلك الأسرة نقشه أحد العبيد تعظيما لإيزيس التي لا تقهر (Isis Invicta)، ومن جانب آخر تحمل نقود فسباسيانوس التي سكت في روما أو في غيرها من المدن صورة لإيزيس في معبدها بساحة مارس، وقد شجع الإمبراطور دوميتيانوس (Domitianus) (81- 96م) آخر أباطرة أسرة فلافيوس ديانة إيزيس ومن أجلها بنى معبدا هائلا لإيزيس وسيرابيس[2].

ومع نهاية القرن الثاني الميلادي عرفت ديانة إيزيس شهرة عالمية واستطاعت أن تتبوأ مركز الصدارة بين مختلف الديانات المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وقدر لها أن تتفوق على المسيحية قبل إعتراف قسطنطين بها وخير دليل على ذلك أنّها وصلت إلى أقصى نقطة في شمال الإمبراطورية عند بريطانيا[3] حيث وجدت معابد تمجد عبادتها والإيمان بها[4].

كانت الديانات السالفة الذكر هي أهم العقائد الشرقية المنتشرة في أنحاء التراب الروماني خصوصا في غرب الإمبراطورية، وقد كان لتلك الديانات صدى واسع بين غالبية أفراد المجتمع الروماني في طبقاته الوسطى والدنيا التي رأت في اعتناق تلك العقائد الشرقية أملا في تحقيق آمالها الاجتماعية المتمثلة في تحسين مستواها الاجتماعي وتحسين ظروفها المعيشية..**المذاهب الدينية الفلسفية:** سلكت الطبقة المثقفة وأفراد الطبقة الأرستقراطية[5] مسلكا مغايرا في التوجه الديني

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص.52 .

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 52- 53.

[3]- بريطانيا: هي منطقة تقع في غرب أوروبا وفي الحقبة الرومانية كانت هذه المنطقة هي أقصى الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية وفيها يقع جدار هادريانوس، الحويري، م.م.، 1995، ص. 53.

[4]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 53.

[5]-الطبقة الأرستقراطية، هي الطبقة الغنية في المجتمع الروماني، الحويري، م.م.، 1995، ص. 53- 54 ،عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.30، ص.35-36.

بحيث اتجهوا إلى الآراء والمذاهب الفلسفية فمنهم من كان علىمذهب الغنوسية (Gnosticism) ومنهم من كان على مذهب المتشككة أوالشكوكيين (Sceptics).

- **مذهب الفلسفة الرواقية(Stoicism):** وهي أكثر المذاهب الفلسفيةإنتشارا وقربا للواقع والمنطق، ولها الغلبة على سائر الفلسفات الأخرى[1].

عند الحديث عن الطقوس الدينية لهذه الفلسفة الرواقية نجد أنّها تتحد مع القيم الرومانية: الإقدام، الرجولة والثبات على المنهج الروحي وتحكم المرء في نفسه،وتحكم المرء في شهواته عن طريق استخدام العقل ورفض الظلم ومواجهة الطغاة والصبر حين الشدائد وتقبل الموت بصدر رحب وتجنب الجانب ما وراء الطبيعي، والواقع أن الرومان كانوا رواقيين قبل أن يصل إليهم المذهب الرواقي بزمن طويل، وينتسب المذهب الرواقي إلى مؤسسه زينون (336- 264 ق.م) الذي ولد في كيتيوم(Citium)الواقعة في جزيرة قبرص عاش في أثينا يعلم الناس، ودعي وأصحابه بالرواقيين لأنه كان يخاطب مستمعيه في بهو عام ذي أعمدة هو السقيفة أو "الرواق" (Stoa) وكان المعجبون بآرائه الفلسفية وسمو أخلاقه كثيرين، وقد استفاد زينون من المذاهب الفلسفية الإغريقية المنتشرة آنذاك غير أن الفضل يرجع إليه في تأسيس مدرسة للأخلاق تختلف اختلافا جوهريا عن غيرها من المدارس، وأهم ما نادى به زينون في فلسفته الرواقية هو مبدأ الأخوة بين البشر تحقيقا لمبدأ العدالة الاجتماعية[2]،ومن جانب آخر فقد أثرت الرواقية في شعور الرومان على مر الزمان[3].

وقد استفاد المفكرون المسيحيون،أو ما يعرف بآباء الكنيسة[4] (Les Péres D' église) وأهمهم كليمنت السكندري(Climent)(150- 217م) وأوريجن السكندري (Origen)حوالي (185- 254م) وجيروم (Giroum)حوالي (340-420م) وأمبروز (Ambrous)حوالي (340- 397م) والقديس أوغسطين (St Augustin)(354- 430م) من الفلسفة الرواقية منذ القرن الثاني الميلادي

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 53- 54 ،عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.30، ص.35-36.

[2]- العدالة الإجتماعية: هي التساوي في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع الواحد، الحويري، م.م.، 1995، ص. 54.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 54.

[4]- آباء الكنيسة: هم العلماء الذين نظّروا للمعتقد المسيحي من بينهم القديس أوغسطين (354- 430م)، الحويري، م.م.، 1995، ص. 54، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.47-48.

بما أتت به هذه الفلسفة الإغريقية من تفصيل القول في الفضائل والرذائل وفي صفات الله وفي العناية الربانية، كما أثرت الرواقية في كتابات الفيلسوف سينيكا (Seneca) والإمبراطور ماركوس أوريليوس(MarcosAurelius)(161 – 180م)[1].

غير أن الرواقية الرومانية تختلف اختلافا بينا عن الرواقية الإغريقية، ذلك أن عقلية الروماني لم يكن من منطلاقاته الفكرية اعتناق أي فلسفة كما وصلت إليه سواء كانت ميتافزيقية (ما وراء الطبيعة) أو أخلاقية أو سياسية ولكنه يخضعها طبقا لميوله ومعتقداته وقناعته وتجدر الإشارة إلى أن الروماني كان بعيدا عن تتبع المسائل الفلسفية التي تدرس الجانب الميتافيزيقي[2] مؤكدًا كل اهتمامه أولا بالعمل بدوافعه وقدراته، وإضفاء طابعه على ما يقوم بنقله واقتباسه ثانيا[3].

ب- الديانات الرومانية السماوية الآتية من الشرق: بالإضافة إلى الديانات والعقائد الوثنية المنتشرة في ربوع الإمبراطورية الرومانية نجد الديانات السماوية على غرار المسيحية واليهودية[4] التي انتشرت وبشكل واسع في أراضي الإمبراطورية الرومانية وتركت صداها على الوضع الديني العام الذي ساد ربوع الإمبراطورية الرومانية.

. الديانة اليهودية:

عند الحديث عن الديانة اليهودية كأحد الشرائع المنتشرة في أنحاء الكيان الروماني نستهل كلامنا بالإشارة إلى أن اليهود كطائفة من الطوائف الدينية كانوا من الذين عارضوا انتشار الدين المسيحي في أنحاء الدولة الرومانية، ورأوا في انتشار هذا الدين خطرا يهدد وجود دينهم، من جانب آخر كان اليهود عبارة عن شعب احتفظ أشد الاحتفاظ بتقاليده وعقيدته الخاصة، ورفضوا المشاركة في طقوس وأعياد الديانات الوثنية وعلى رأسها عقيدة عبادة الإمبراطور[5].

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 54 ، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.47-48.

[2]- الجانب الميتافيزيقي: هو الجانب التصوري الخيالي، الحويري، م.م.، 1995، ص. 54.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 54.

[4]- اليهودية: هي أحد الديانات السماوية القديمة المتركزة في فلسطين، الحويري، م.م.، 1995، ص. 55- 56، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33، ص.36.

[5]-الحويري، م.م.، 1995، ص. 55- 56، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33، ص.36.

ومع أواخر القرن الأول الميلادي بلغ عدد اليهود 20 ألف يهودي في العاصمة روما تركز عملهم في الصناعات اليدوية وبالتجارة في الحوانيت، وكان لهم عدد كبير من المعابد لكل معبد مدرسته وكتابه، وعرف عنهم احتقارهم للديانات الوثنية[1] وامتناعهم عن التوجه إلى المسارح الرومانية أو مشاهدة الألعاب، فضلا عن فقرهم وما انجر عنه من سلبيات، غير أن هذه الأخلاق اليهودية لم تمنع الكثيرين من الرومان المثقفين من المناداة بإعجابهم بالديانة اليهودية التي كانت تدعوا إلى وحدانية الله، وتنفي عن كل مخلوق كل صفة الألهوية ولو كان إمبراطور الإمبراطورية الرومانيةومعارضة في ذلك الديانة الوثنية وعبادة الإمبراطور العبادة الرسمية في الدولة، ولذلك اعتنق الكثير من المثقفين الرومان اليهودية، وأصبحوا من أتباعها[2].

عند الحديث عن موقف السلطات الرومانية من الطائفة اليهودية نؤكد أن اليهود تمتعوا بامتيازات عديدة ساهمت في الحفاظ على دياناتهم كأحد الشرائع المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية وساهمت في الحفاظ على خصوصية الشعب اليهودي بين مختلف شعوب الإمبراطورية وكان السبب الأساسي لهذا الوضع الذي عاشه اليهود في ذلك العهد هو تسامح السلطات الرومانية مع اليهود وتحمل الحكام الرومان مسؤولية حماية الديانة اليهودية وأعطوا ضمانات لليهود ترجع إلى أيام يوليوس قيصر[3](C.iuliusCaesar)، بموجبها مارسوا شعائر وطقوس دينهم في حرية وأمن، كما منحتهم الحق في إتباع طقوسهم وتقاليدهم الدينية، إذ من المعروف أن اليهودي لا يعمل أيام السبت من كل أسبوع، حيث يبرمجه كيوم عبادة وراحة، ولا يجوز محاكمته في ذلك اليوم أيضا، وتم إعفاؤه من الخدمة في الجيش[4].

كما سنت الحكومة الرومانية قوانين سمحت لليهود بإصدار عملة خاصة بهم، دون أن يطبع عليها صورة الإمبراطور، ورغم تلك الامتيازات العديدة التي منحتها روما لليهود، إلا أنهم

---

[1]- الديانات الوثنية: الديانات الوضعية (أي من وضع الإنسان)، الحويري، م.م.، 1995، ص. 56، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 56، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

[3]-يوليوس قيصر: هو أحد نبلاء روما وهو الممهد للمرحلة الإمبراطورية في روما بفضل إنجازاته العسكرية، توفي مقتولا عام 44 ق.م، الحويري، م.م.، 1995، ص. 55- 56، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

[4]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 55- 56، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

قابلوها بروج انفصالية، وتكتل قومي، وتشدد ديني، وانعزال عن المجتمع، الأمر الذي غرس في نفوس أتباع الديانات الأخرى الكراهية الشديدة لهم[1].

تغير موقف السلطة الرومانية من الديانة اليهودية مع ارتقاء كاليجولا(Caligula) عرش الإمبراطورية عام37م، فقد أمر جميع أتباع الديانات القائمة آنذاك أن يقدموا قربانا له، كما أصدر أمرا إلى رجاله في القدس أن يضعوا تمثاله في الهيكل، ولكن اليهود أظهروا غضبهم الشديد لوضع تمثال منحوت لإمبراطور وثني في هيكلهم، مما أدى إلى حدوث مشكلة حلها كاليجولا بوفاته، وفي عام 70م قام اليهود بثورة على الرومان في منطقة جودايا[2](Judaea)، ولكن القائد الروماني تيتوس(Titus) رد على تلك الثورة بالعنف، فاستباح دم كل من كان في أورشليم (القدس) من اليهود، وصادر ممتلكاتهم وأخذ أموالهم، ودمر هيكلهم، حتى كاد تيتوس أن يقضي على كل وجود لهم[3].

غير أن تلك الضربة التي تلقاها اليهود في تلك الفترة من تاريخهم لم تقض عليهم نهائيا غير أنها شتت شملهم وشردتهم في جميع البلاد الخاضعة لسلطة الرومان، وكانت ردة فعل اليهود متوقعة أمام هذا القمع والاضطهاد فثاروا مرة أخرى في سنتي (115- 116م)، وقد واجه الإمبراطورهادريانوس[4](Hadrianus)(117-138م) ثورة اليهود في قوة وحزم، فقضى عليها وأمر بمنع الشعب اليهودي من إحياء طقوسهم الدينية علنا، وفرض عليهم ضريبة شخصية جديدة، وحرم عليهم الدخول إلى أورشليم إلاّ في يوم واحد محدد في العام، ليبكوا فيه أمام خرائب الهيكل[5].

وهكذا عانى اليهود من النفي والتعذيب والقتل، ومنعوا من دخول المدينة المقدسة (القدس) وتمكن الخوف من نفوسهم، فاقدين الثقة في الحكم الروماني، آملين في إيجاد مخرج من المعاناة الذي قاسوه على يد السلطات الرومانية، وكان إيمان اليهود يوحي أن سيادة الحكم الروماني على

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 56.

[2]- جودايا: هي منطقة في فلسطين القديمة قامت فيها ثورة لليهود ضد الرومان، الحويري، م.م.، 1995، ص. 56- 57.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 56- 57.

[4]- هادريانوس: هو إمبراطور روماني عرف عنه محاربته لليهود، وفي عهده نام أصحاب الكهف واستيقضوا بعد ثلاثة قرون وتسعة سنوات، الحويري، م.م.، 1995، ص. 57.

[5]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 57.

الطائفة اليهودية وشعوب العالم القديم[1] جزء من انتصار الشر على الخير القصير الأمد الذي سيقضي عليه إما بتدخل الله نفسه، أو أن يرسل الله إلى الأرض مخلصا أو مسيحا(Messiah) ليخلصهم من نير الاضطهاد، ويرفع عنهم نير الذل[2].

غير أن أمل اليهود في مجيء مسيح ينقذهم ويعيدهم إلى بيت المقدس[3] سرعان ما تبخر عندما جاء السيد المسيح بديانة ليست كالدين اليهودي مقصورا على شعب بعينه ولكنها ديانة موجهة لكل شعوب الإمبراطورية منيرة عيش البشر كلهم بما غرست في نفوسهم من أمل في ملكوت الله المقبلة، وفي السعادة الدائمة بعد الموت، ووعدت أشد الناس ذنوبا بالعفو عن ذنوبهم وكانت المبادئ السامية التي أتى بها المسيح كفيلة بأن تجعل اليهود يقفون ضدها على اختلاف مذاهبهم وينظرون إلى رسالته بعين الحقد والكراهية، وأخذوا يحاربون دعوته وأنصاره[4].

. الديانة المسيحية:

بالإضافة إلى الديانة اليهودية كأحد الديانات السماوية المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية انتشرت الديانة المسيحية في أنحاء التراب الروماني وتنسب المسيحية إلى السيد المسيح عيسى إبن مريم عليه السلام الذي ولد في بيت لحم بفلسطين القائمة على بعد خمسة أميال جنوب القدس خلال عهد الإمبراطور أوغسطس (27 ق.م- 14م) وقد سمي المسيح باسمه العادي المألوف "يسوع"(Yeshua)، ويكتنف الغموض التاريخ المبكر للمسيحية[5].

ومن الواضح أن إدراك تاريخ الكنيسة في عصرها الأول وكذلك معلوماتنا عن انتشارالمسيحية في أركان التراب الروماني ضئيلة وغير كافية وإن كان من الثابت أن للقديس بولس (St paul) دورا فعالا في تنظيم المجتمعات المسحية الأولى، ووضع قواعد اللاّهوت وما يرتبط به

[1]- العالم القديم: هو العالم الشامل لقارة أوروبا إفريقيا وآسيا، الحويري، م.م.، 1995، ص. 57.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 57.

[3]-بيت المقدس: هو القدس الشريف بالنسبة للمسلمين ويمثل مكان مقدس لمختلف الديانات السماوية الإسلام، المسيحية واليهودية، الحويري، م.م.، 1995، ص. 57- 58، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.36.

[4]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 57- 58، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.36.

[5]- الحويري، م.م.، 1995، ص.58، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.30-31.

من فلسفة المسيحية التي تعالج الأخلاق والأخرويات كالموت والبحث والحساب والخلود ، فضلا عن دوره في وضع أساس الكنيسة الكاثوليكية العالمية[1].

من هذا المنطلق بدأت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بحيث مع أواخر القرن الأول الميلادي، إلا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم في تعداد سكانها جالية مسيحية، بل أن المسيحيين كانوا جالية ملحوظة في العاصمة روما منذ وقت مبكر يعود إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي مما عرضهم لإضطهادات الإمبراطور نيرون(Néron) (54-68م) توفي على إثرها القديس بطرس (Petrus) عام 64م بصلبه في روما ، وبولس الرسول بعد اعدامه بالسيف في يوم 29 جوان عام 67م[2].

من جانب آخر فإن أوضاع الإمبراطورية الرومانية التي سادت أنحائها كانت أكبر مساعد على سرعة انتقال المؤثرات الدينية على غرار المؤثرات المسيحية فالأباطرة الرومان عملوا على ربط أنحاء إمبراطوريتهم بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التي ربطت مدنها وأطرافها برباط شديد بالإضافة إلى السلام والأمن الذي سادا ربوعها بفضل سياسة السلام الروماني (la Paix Romaine)، وكذا انتشار اللغة اللاتينية[3] في أجزائها الغربية، واللغة اليونانية في أجزائها الشرقية مما جعل من السهل انتقال الآراء والأفكار والأديان في يسر بين مختلف أنحاء الإمبراطورية وبالتالي انتشار الدين المسيحي ووصوله إلى أقصى أطراف البلاد في سرعة قياسية[4].

ومن جانب آخر كانت الطبقات الدنيا والفقيرة والمتوسطة هي الشريحة الاجتماعية التي اعتنقت المسيحية في المجتمع الروماني نظرا لأملها أن يحقق الدين المسيحي أمالها الاجتماعية في تحسين أوضاعها المعيشية غير أن ذلك لم يمنع اعتناق أفراد من الطبقة الأرستقراطية للمسيحية في قرونها الثلاثة الأولى، وقد زاد اعتناق الطبقات العليا في المجتمع الروماني بصفة

---

[1]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.31،كانتور، ن. ف.، بدون تاريخ، *التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية*،ج.1، ترجمة وتعليق قاسم، ق.ع .، 1997، ط.5 ، القاهرة، ص.55.

[2]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.31، Maraval,P. ,2007,*Le Christianisme de Constantin a la Conquete Arabe*,3éme éd. ,Paris,p.1 .

[3]- اللغة اللاّتينية : لغة أوروبية قديمة ،عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.32.

[4]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.32.

كبيرة بعد قرارات اجتماع ميلانو بين الإمبراطورين قسطنطين وليكينوس في مارس 313م والقاضية بمنح حق حرية العقيدة لكل الطوائف الدينية ومنها الطائفة المسيحية[1].

- **موقف السلطة الرومانية من المسيحية:** عند الحديث عن موقف السلطة الرومانية من انتشار الديانة المسيحية في أنحاء الإمبراطوريةنؤكد أن الأباطرة الرومان تسامحوا جزئيا مع أتباع الديانة المسيحية طالما لا يهدد ذلك المصلحة العليا للإمبراطورية، وطالما أن المسيحية لا تعمل على تقويض تقاليد المجتمع الروماني ونظمه المألوفة غير أن سياسة التسامح[2] التي انتهجها الأباطرة الرومان مع الطائفة المسيحية سرعان ما انقلبت نحو حملات اضطهاد واسعة وكان الدافع الأساسي لتغير السياسة الرومانية نحو الدين المسيحي منبعه سببان أساسيان هما: السبب الاجتماعي والسبب السياسي[3].

عند الحديث عن السبب الاجتماعي الذي دفع السلطة الرومانية إلى تغيير موقفها مع أتباع الديانة المسيحية نشير إلى أن المسيحية اتخذت من أفراد الطبقات المتوسطة والفقيرة كأرضية تعمل من خلالها على التغلغل في أعماق المجتمع الروماني، وقد اعتنقت الطبقات الكادحة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية المسيحية بأعداد هائلة رغبة منها في تحطيم نظم المجتمع الروماني وتقاليده، والرفع من مستواها الاجتماعي ليوازي الطبقات الغنية في العالم الروماني.

من هذا المنطلق رأت السلطات الرومانية إلى المسيحية على أنها ثورة اجتماعية تعمل على تغيير هيكلة المجتمع الروماني، والمساس بالوضع الاجتماعي السائد الذي يعد منبع قوة الإمبراطورية ومصدر استقرارها السياسي، من جانب آخر أحست الدولة الرومانية بالانزعاج من تعاليم الدين المسيحي الذي يرى أن الدنيا زائلة فانية، وبالتالي سيعمل المسيحيون على تقديس آخرتهم وإهمال دنياهم وبالتالي شيخوخة الحضارة الرومانية إذا كثر مريدو الديانة المسيحية، على عكس الوثنيين الذين يعطون الأهمية لدنياهم وحضارتهم مهملين أمور آخرتهم من هذا المنطلق

---

[1]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.31- 32، Maraval,P. ,2007,p.6-7 -

[2]- سياسة التسامح: سياسة اللين والحرية الدينية، الحويري، م.م.، 1995، ص.59 ، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.34.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص.59 ، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.34.

رأى الرومان إلى المسيحيين على أنهم عنصر يملؤهم الشر، وخطرا على مجتمع روما وجب خضوعه للدولة[1].

أما السبب السياسي الذي كان وراء تغير موقف السلطة الرومانية من انتشار المسيحية فهو تعارض تعاليم المسيحية مع مقتضيات السياسة العامة للدولة، ضف إلى ذلك إخلال الدين النصراني (المسيحي) بالنظام العام، أو الأخلاقيات العامة التي يعمل بها في العاصمة روما وما يتبعها من بلاد من هذا المبدأ حاربت روما المسيحية والمسيحيين عندما رفض أولئك تقديس الأباطرة والتعبد نحوهم، وإشعال النار أمام تماثيل الآلهة برهانا على ولائهم للإمبراطورية[2].

بالإضافة إلى رفض المسيحيين فكرة تأليه الأباطرة الرومان كانت فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة تعمل منفصلة عن الدولة جاءت جديدة عن العقلية الرومانية والفكر الروماني أيضا لذلك حارب الأباطرة الرومان مؤسسات الكنيسة، وحاولوا إخضاعها للسلطة السياسية الحاكمة[3].

بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جريمة يعاقب عليها القانون الروماني فحرمت على المسيحيين عقد اجتماعاتهم، وأخذت تنظم حملات الاضطهاد والتعذيب ضدهم، ولم يمارس حملات القمع سوى الحكام المتطرفين المعروفين بطغيانهم مثل نيرون الذي قدّم مسيحي روما طعاما للنار العظيمة التي أشعلها في روما عام 64م، بل شارك فيها أيضا مجموعة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروف عنهم حرصهم على تطبيق القانون مثل تراجانوس(Trajanus) وهادريانوس وأنطونيوس بيوس(Antonius Bius) وماركوس أورليوس ودقلديانوس[4].

ومن أقدم الوثائق الرسمية التي تصور لنا بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد، تلك الرسالة التي قام ببعثها بليني الصغير حاكم بيثنيا[5] إلى الإمبراطور تراجانوس(98- 117م) يعلمه أنّه عفا

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص.58 - 59، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.34.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص.59، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

[3]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

[4]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.34.

[5]- بثينيا: منطقة في آسيا الصغرى، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص. 34 - 35.

عن جميع المشكوك فيهم بعد أن رضخوا لطلبه المتمثل في تقديم القرابين لتمثال الإمبراطور في حين أعدم الذين رفضوا فعل ذلك وقد أجاب الإمبراطور تراجانوس معبرا عن إعجابه لتصرفه[1].

عند الحديث عن اضطهاد الأباطرة الرومان للمسيحيين فبالإضافة إلى اضطهادات الإمبراطور نيرون الذي سبق الإشارة إليه نذكر إضطهادات الإمبراطور دوميتيانوس الذي أوقع الأذى والاضطهاد بالمسيحيين حتى قال عنه الكتاب المسيحيون بأنّه "ثاني الطغاة"[2].

ومع مطلع القرن الثالث الميلادي أخذت العلاقة بين الإمبراطورية الرومانية والكنيسة تأخذ طابعا جديدا لم تعهده من قبل، فقد دخل الخوف نفوس الساسة الرومان لما وصلت إليه المسيحية من نفوذ حتى أنها صارت قوة منظمة وبمعنى آخر دولة داخل دولة (الإمبراطورية) تعارض العنف وترفض الانخراط في الجيش الروماني لا يطيع أتباعها سوى تعاليم الكتاب المقدس، وطاعة الرب وهو ما يهدد صراحة وحدة الإمبراطورية[3].

انطلاقا من هذه الأوضاع الجديدة عمل الأباطرة الرومان على محاربة المسيحية ومؤسسات الكنيسة وكان أول عمل عدائي ضد المسيحيين قد تم في عهد الإمبراطور سبتميوس سيفيروس (Septemius Severus)(193-211م)الذي أصدر عام 202م مرسوم يقضي بمنع الدعوة لليهودية والتبشير للمسيحية كان من آثاره القبض عام 203م على 6 مسيحيين كانت من بينهم امرأة في مقتبل العمر في مدينة طبربة (Thuburbo minus) ألقي بهم للحيوانات أمام مرأى العامة[4].

كما أمر الإمبراطور بتحريم التعميد الحاصل في الكنائس،وفي مصر ملأ السجون بهم وأمر بجلدهم ، وألقى بمجموعة أخرى من المسيحيين إلى الحيوانات المفترسة في ساحة قرطاجنة[5].

بعد وفاة سبتميوس سيفيروس تمتع المسيحيون بفترة هدوء تمكنوا من ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، وعقدت عدة مجامع أولها أثناء خليفته كراكالا(Karakala)(211-

[1]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص. 34 - 35.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص.60.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص.61-62، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.33.

[4]- حارش، م.هـ.، 1995،ص.62.

[5]- الحويري، م.م.، 1995، ص.62.

218م)عام215م وبقيت الأوضاع على حالها طيلة حكم الأسرة السيفيرية، وجزءا من الفوضى العسكرية (235- 249م)[1].

غير أن هذا السلام المؤقت الذي تمتعت به الكنيسة خلال هذه الفترة من عمر الإمبراطورية سرعان ما ولى بعد وصول الإمبراطور دقيوس(Dekius)(249- 251م)، إلى عرش الإمبراطورية وأصدر مرسوما يقضي على كل مواطن أن يقدم القرابين والنذور وآيات الشكر للآلهة الوثنية وتقديم السلطات الرومانية لكل المواطنين الرومان شهادة يقدمونها عند الحاجة، وكان يعاقب بشدة كل مواطن روماني يرفض تقديم فروض الطاعة والولاء للآلهة الوثنية ويصر على مسيحيته[2].

وكانت نتائج هذا المرسوم الإمبراطوري وخيمة على أوضاع النصارى (المسيحيين) كانت من بينها ردة العديد من المسيحيين[3]، مما حرّك مشاعر القديس كبريانوس(Kebirianus) الذي كتب قائلاً: «وكان منهم من لم ينتظر الإيقاف ليصد إلى الكابتول، ولا ينتظر الاستنطاق لينكر تنصره»[4].

وبعد إضطهادات الإمبراطور دقيوس جاءت إضطهادات الإمبراطور فاليريانوس (Valerianus) الذي أمر بمصادرة أملاك الكنيسة ونفي رجالها مع إعدام بعض المسيحيين بالإضافة إلى بعض الأساقفة الشجعان على غرار القديس كبريانوس الذي اغتيل بتاريخ 14 سبتمبر 258م[5].

في عام 260م يسقط فاليريانوس رهينة بيد الفرس وبعدها ارتقى ابنه جالينوس إلى عرش الإمبراطورية الذي غيّر السياسة الرومانية الموجهة نحو الطائفة المسيحية فعمل على رفع الاضطهاد المقام ضد النصارى وأمر بأن تسترجع أملاكهم المصادرة وسمح ببناء الكنائس وامتلاك الأراضي والمباني وشهدت الكنيسة منذ ذلك الوقت فترة هدوء وسلام مع السلطة الزمنية (الرومانية) دامت 40 سنة أي إلى مطلع القرن الرابع الميلادي، وهو ما سمح للكنيسة أن تعمق العقيدة في

---

[1]- حارش، م.هـ.، 1992، ص.226، شنيتي، م.ب.،1984، ص.276.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 62.

[3]- حارش، م.هـ.، 1992، ص. 226.

[4]- نقلا عن حارش، م.هـ.، 1992، ص. 226.

[5]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 62، حارش، م.هـ.، 1992، ص. 227.

نفوس الناس والتوسع في إنشاء الكنائس وهو ما أدى إلى اعتناق أفراد من الطبقة الأرستقراطية للمسيحية في تلك الفترة من تاريخ الإمبراطورية[1].

تغير موقف السلطة الرومانية تجاه الكنيسة مع باكورة القرن الرابع فمنذ عام 284م نجح الإمبراطور دقلديانوس في التحكم في دواليب السلطة بعد فترة اضطراب وحروب وقد اتسمت سياسة هذا الإمبراطور بالليونة تجاه المسيحيين في بداية حكمه غير أن فرضه عبادة الإمبراطور على الجند، ونظرية الفرار من الجندية التي انتهجها الجنود المسيحيون في صفوف الجيش الروماني والتي هددت الإمبراطورية في أكثر القطاعات حساسية جعلت من الإمبراطور يعمل على تغيير سياسته تجاه الكنيسة والطائفة المسيحية من المهادنة والليونة نحو القمع والقتل وأصدر أربعة مراسيم إمبراطورية سنتي 303- 304م، يمنع بموجبها الدعوة للمسيحية، ويأمر بهدم الكنائس ويمنع عقد الاجتماعات[2].

ويطلق على العهد الأخير من حكم دقلديانوس اسم"عصر الشهداء" أو عصر "الاضطهاد الأعظم"لكثرة ما لقيه المسيحيون من عذاب على يد الإمبراطور وجنوده ومما يحسن هنا المقام ذكره أن الكنيسة القطبية مازالت تؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو "عصرالشهداء" ويبدأ التقويم القطبي بيوم 29 أوت عام 284م،وهو اليوم ذاته الذي يوافق أول شهر تحوت بداية السنة المصرية القديمة، وهو اليوم الذي يوازي استشهاد العديد من المسيحيين[3].

II- الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية أثناء عهد قسطنطين الأول (306- 337م):

1- الأوضاع الدينية في الامبراطورية الرومانية مابين306 و312م: منذ تاريخ 25 جويلية سنة306م تاريخ وفاة قسطنطيوس كلوروس، أصبح قسطنطين الأول أحد الأباطرة المشكلين للسلطة الرباعية في الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية الشامل لكل من غالة وإسبانيا وجنوب بريطانيا بدرجة قيصر[4].

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 62- 63، Maraval,P.,2007,p.1-

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 276- 278، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص. 35.

[3]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 64، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.35.

[4]- عبد الحميد، ر.،1975، ص.65 ، عمران، م.س.،2006 أ ، ص.41.

ومنذ ذلك العام حتى عام 312م تركز حكمه في تلك الأجزاء من الإمبراطورية، وقد كان الوضع الديني السائد آنذاك هو سيادة الديانات الوثنية على كل أراضي الإمبراطورية بما في ذلك الأراضي التابعة لقيصر الغرب قسطنطين، وكانت أهم تلك الديانات الوثنية المنتشرة في حدود حكم قسطنطين هي العبادة الرسمية المتمثلة في عبادة الإمبراطور[1]،بالإضافة إلى العقائد ذات الأصل الشرقي كديانات إيزيس ومثراس وكيبيلي[2]، بالإضافة إلى ثالوث الكابتول جوبتر، يونو منرفة[3]. وكانت أهم تلك الديانات الوثنية التي لها صدى واسع في أراضي حكم قسطنطين هي عبادة رب الشمس الذي كان يؤمن به قسطنطين، والذي انتشرت عبادته أكثر في منطقة غالة والذي انتشرت عبادته منذ عهد كلاوديوس القوطي(Claudius Gothicus)(268-270م)،الذي أدخل عبادة رب الشمس، والمعروف هو أن قسطنطين يحكم بحق نسبته إلى كلاوديوس القوطي، وكان قسطنطين قد ألغى عبادة هرقل الذي كان رمزا لعرش ماكسيميانوس[4].

كما احتفظ قسطنطين الأول كغيره من الأباطرة الرومان بلقب الكاهن الأعظم (PontifexMaximus)، وهي أعلى درجة دينية في سلم الوظائف الوثنية أو الكهنوتية[5].

2- الأوضاع الدينية في الامبراطورية الرومانية مابين312و337م: بعد سنوات قليلة من توليه حكم المقاطعات الغربية بدرجة قيصر يدخل قسطنطين في صراع مع إمبراطور إيطاليا وإفريقيا ماكسنتيوس، وهو ما أدى إلى اتساع دائرة حكم قسطنطين لتشمل بالإضافة إلى أراضيه الأصلية في غالة وما جاورها كل من إيطاليا وإفريقياوقد دخل قسطنطين روما غازيا بتاريخ 29 أكتوبر سنة 312م[6].

---

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 277 ، عمران، م.س.،2006 أ ، ص.41-42.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص.49 ، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.30-31.

[3]- حارش، م.هـ.، 1992، ص. 222.

[4]- الناصري،س.أ.ع.،1991،ص.431.

[5]- عاشور،س.ع.ف.،2009، ص.38.

[6]-عبد الحميد، ر.،1975، ص.81 ، جيبون،إ.، بدون تاريخ، ص.225.

أ- **دعم المسيحية:**منذ ذلك العهد تغيرت السياسة الدينية للإمبراطور قسطنطين فراح بكل ما أوتي من قوة وسلطة يدعم من مركز المسيحية والمسيحيين في ربوع الإمبراطورية الرومانية، سواء في العاصمة روما أو الأراضي التابعة لحكمه[1]. ولتحقيق أهدافه انتهج عدة طرق:

. **رسائل الامبراطور إلى حكام المقاطعات ورؤساء الكنائس:** وكان السبيل لتحسين أوضاع المسيحيين هو مجموعة من الرسائل الإمبراطورية موجهة إلى حكام المقاطعات ورؤساء الكنائس، تقضي بإرجاع الحقوق الطبيعية للرعايا المسيحيين وكذلك بالنسبة للكنائس ووقف الاضطهاد الممارس ضد الطائفة المسيحية[2]وتتمثل أهمها فيما يلي:

- **الرسالة الموجهة إلى أنوللينوس بروقنصل إفريقيا:** وكانت تلك أولى الرسائل الإمبراطورية الصادرة من الإمبراطور قسطنطين هي الرسالة الموّجهة إلى أنوللينوس(Anullinus) بروقنصل إفريقيا في شتاء عام 312/ 313م وتمضي الرسالة قائلة:

« تحية لك يا عزيزي أنوللينوس، من المحبة التي تجمعنا نطلب من حضرتكم أن تحفظ حقوق المسيحيين ومختلف حقوق المواطنين الخاضعين لسلطتكم وأن ترجع الحقوق المسلوبة، لذلك نأمر حين استلامك هذه الرسالة أن ترجع للكنيسة المسيحية الجامعة في أي مدينة أو موطن آخر والتي كانت في حوزة المواطنين أو غيرهم أن ترجع ملكيتها إلى الكنائس، لأننا أمرنا فعلا بأن ترد لهذه الكنائس تلك الأمور التي كانت تملكها سابقا، ونظرا لأن حضرتك تعني أن قرارنا هذا واضح كل الوضوح، فأسرع بأن ترد إلى تلك الكنائس بأسرع مما يمكن كل ما كان في ملكيتها سابقا سواء كانت حدائق أو مبان أو أي شيء آخر، حتى نعلم أنك قد نفذت أمرنا هذا بكل حرص السلام لك يا عزيزي أنوللينوس المحبوب جدا».

-**الرسالة الموجهة الى كايكيليانوس أسقف كنيسة قرطاجة:** كانت هذه أولى الرسائل الإمبراطورية الصادرة من قسطنطين لصالح الكنيسة والمسيحيين والتي أمر فيها قسطنطين بروقنصل إفريقيا

[1]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، *تاريخ الكنيسة*، ترجمة القصص داود، م.، 1998، ط.3، القاهرة، ص.416- 417 ؛عمران،م.س.،2006 أ، ص.44.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 108؛ القيصري ،ي.، بدون تاريخ، ص.446.

أنوللينوس برد ملكية العقارات لأصحابها أساقفة الكنائس[1]، ثم أرسل قسطنطين رسالة إمبراطورية أخرى إلى أسقف قرطاجة كايكيليانوس[2] (Caecilianus) وتمضي الرسالة قائلة: « قسطنطين أغسطس إلى كايكيليانوس أسقف قرطاجة، يسرنا أن تمنح حضرتكم بعض المنح في كل أقطار إفريقيا ونوميديا وموريطانيا لبعض خدام الديانة الطاهرة الجامعة لتغطية نفقاتهم، لهذا الأمر كتبت إلى أورسوس(Ursus) مأمور الحسابات في إفريقيا بأن يدفع إلى حضرتكم 3000 فلس (Folles)، ومتى تلقيت المبلغ المشار إليه آمر بأن يوزع على موظفي الكنائس ودور العبادة وفقا للمختصر المرسل إليك من هوسيوس(Hosius)، وإن وجدت أنه ينقصك أي شيء لإتمام غرضنا نحو الجميع فْاطلب بدون أي تردد من هيراكليدس(Heraclides) أمين خزانتنا كل ما تراه ضروريا، لأنني أمرته لما كان عندنا بأن يدفع إليك في الحال كل ما تطلبه منه، ونظرا لأنني علمت أن بعض العقول السليمة يريدون أن يحوّلوا الشعب عن الكنيسة المقدسة الجامعة (الموحدة) بطريقة دنسة مخزية، فاعلم بأنني أمرت أنوللينوس بروقنصل إفريقيا[3] (الوالي) وباتريشس نائب المقاطعة لما كان هنا بأن يبذلا عناية فائقة ليس فقط نحو الشؤون الأخرى بل أيضا نحو هذا الانشقاق الديني قبل كل شيء، وأن لا يسكتا عنه إن حصل، وإن رأيت أشخاصًا كهؤلاء مستمرين في هذا الجنون فاذهب في الحال إلى بروقنصل إفريقيا ونائبه،واشرح لهما الأمر لكي يقوما بتأديبهم كما أمرتهما (كما أمر قسطنطين أنوللينوس وباتريشس لما كان عنده في روما)، ليحفظك لاهوت الله العظيم سنين طويلة الواضح في فحوى الرسالة أن قسطنطين أرسل هذه الرسالة الإمبراطورية بمقتضاها أرسلت أموال إلى الكنائس المنتشرة في حدود المقاطعة الإفريقية[4].

- **الرسالة الموجهةإلى ملتيادس أسقف روما لاقامة مجمع روما:**غير أن أهم الرسائل الإمبراطورية الصادرة من الإمبراطور قسطنطين الأول هي التي يأمر فيها الإمبراطور بعقد مجمع

---

[1]- القيصري، ي.، بدون تاريخ،ص. 446.

[2]- كايكليانوس: هو أسقف الكنيسة الرسمية الواقعة في قرطاجة وهو المعارض للإنشقاق الذي أحدثه دوناتوس، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448- 449.

[3]- بروقنصل إفريقيا: هو اللقب الذي يطلق على حاكم المقاطعة الإفريقية في العهد الروماني، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448- 449.

[4]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448- 449.

للأساقفة في روما من أجل وحدة الكنائس وائتلافها بعد بروز المشكلة الدوناتية في الولاية الإفريقية الرومانية ويظهر ذلك جليا في فحوى الرسالة التي تقول: « من قسطنطين أغسطس إلى ملتيادس أسقف روما وإلى مرقس[1]، نظرا لأن أنوللينوس والي إفريقيا العظيم قد أرسل إلي عدة رسائل يقول فيها إن كايكيليانوس أسقف كنيسة قرطاجة وجهت إليه تهم كثيرة من بعض الأساقفة في إفريقيا وعلى رأسهم دوناتوس(Donatus)، ونظرًا لأنه يظهر لي أنه لأمر بالغ الخطورة أن يسلك الشعب في تلك الأقطار التي عهدت إلى العناية الربانية رعايتها والحفاظ عليها، والتي تمتاز بكثرة عدد سكانها الذين ينتشرون في أنحائها مسلكا خاطئا، وأن يكونوا منقسمين إلى حزبين، حزب الكنيسة الرسمية في قرطاجة وما يتبعها من كنائس في مقاطعة إفريقيا، وحزب الكنيسة الدوناتية المنشقة عن الكنيسة الرسمية، من هذا المنطلق أرى أنه من المناسب أن يبحر كايكيليانوس إلى روما ومعه عشرة من الأساقفة الذين يتهمونه وعشرة آخرون ممن يراهم قادرين للدفاع عنه، لكي تسمع أقواله هناك (أقوال كايكيليانوس في روما) بوجودكما (وجود ملتيادس ومرقس) ووجود رتسيوس (Retsius) الذي كان أسقفا في منطقة غالة وماترنوس(Maternus) الذي كان أسقفا في مدينة كولون ومارينوس (Marinus)الذي كان أسقفا في آرل(مدينة في جنوب فرنسا بقرب مصب نهر الرون) زملائكم من أوروبا الذين طلبت منهم الإسراع إلى روما لهذا الغرض وبذلك سنتخذ القرارات المناسبة وفق الشرائع المقدسة، ولكي تكون لديكما معرفة كاملة عن هذه الأمور أرفقت برسالتي صور كل المستندات التي أرسلها إلي أنوللينوس، كما أرسلتها أيضا إلى زملائكم المشار إليهم، وإذا ما إطلعتما عليها تمكنتما من بحث القضية بدقة وحكمة وحكمتما فيها بعدل وإنصاف لأنه لا يغيب على فطنتكما أنني أحترم الكنيسة الجامعة[2] (الرسمية) القانونية احتراما تاما، حتى أنني لا أريدكما أن تتركا أي أمل للإنشاق والانقسام في أي موطن، ليحفظكما لاهوت الله العظيم سنينا عديدة يا سيدي الموقرين»[3].

[1]- مرقس كان قسا في روما، ولعله هو الذي أقيم عليها أسقفا مدّة 8 أشهر عام336؛ القيصري ،ي.، د.ت.، ص.446.

[2]- الكنيسة الجامعة: هي الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، مقرها في روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 446- 447.

[3]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 446- 447.

-**الرسالة الموجهة الى كرستوس أسقف سيراكوزا لإقامة مجمع آرل:** ثم أرسل قسطنطين رسالة أخرى يأمر فيها بعقد مجمع آخر لإزالة كل المنازعات بين الأساقفة وهو المجمع المعروف في التاريخ بمجمع آرل[1] (أرلس باللّغة اللاّتينية) عام 314م وفحوى الرسالة كالآتي:

« قسطنطين أغسطس إلى كرستوس (Chrestus) أسقف سيراكوزا، لما بدأ البعض يختلفون فيما بينهما بخبث فيما يتعلق بالعبادة الطاهرة، والقوة السماوية، والعقيدة الجامعة، رأيت أن أضع حدا لهذه المنازعات التي بينهم، فأصدرت الأوامر بأن يعمل بعض الأساقفة[2]من غالة[3] بتحضير مؤتمر كنسي يحضره من إفريقيا الطرفان المتخاصمان، اللذان هم في صراع دائم (يقصد الصراع القائم بين أتباع المذهب الدوناتي، وأتباع مذهب الكنيسة الرسمية الكاثولكية)، لكي يفحص بكل دقة موضوع النزاع بحضورهم وحضور أسقف روما، ولكن لأن بعض الأساقفة تناسوا خلاصهم والتوقير اللائق بديانتنا المقدسة، لم يضعوا حدا للعداوة، ولم يخضعوا لقرارات مجمع روما عام 313م مدعين بأن الذين أعطوا رأيهم وقرارهم كانوا قليلي العدد، أو أن أنهم تسرعوا في إعطاء حكمهم قبل فحص كل الأمور التي كان يتطلب الموقف فحصها بدقة، من أجل كل هذا حدث أن الذين يجب أن تسود علاقات الأخوة والمودة بينهم سادت علاقات الشقاق والفراق، الأمر الذي يدعوا إلى الخزي والعار، وأعطوا فرصة لأتباع الديانات الأخرى للاستهزاء من الديانة المسيحية لذلك رأيت من الضروري أن أضع حدا إن أمكن وبوجود الكثيرين لهذه المنازعات التي كان من الواجب أن تختفي بعد الحكم الصادر بموافقتهم، ومن أجل هذا المقصد أمرنا بأن يجتمع عدد وافر من الأساقفة من أماكن مختلفة في مدينة أرلس قبل أول شهر أغسطس فقدر رأينا أنه من المناسب أن نكتب لك أيضا لكي تحصل من لاكترونيانوس(Lactrunianus) العظيم والي صقلية عربة عامة، وتأخذ معك اثنين آخرين من الرتبة الكهنوتية الثانية تختارهما أنت، وثلاثة خدم لخدمتك في

---

[1]- آرل: هي منطقة في جنوب فرنسا إنعقد فيها مجمع آرل عام 314م عقده الإمبراطور قسطنطين لمعالجة القضية الدوناتية، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448، شنيتي، م.ب.،1984، ص.289-290.

[2]- الأساقفة: جمع أسقف، وهي درجة في السلم الكنسي، تحت درجة البابا، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448، شنيتي، م.ب.،1984، ص.289-290.

[3]- غالة: هو الإسم القديم لفرنسا وكان يطلق عليها في المرحلة الرومانية (54 ق.م- 486م)، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448، شنيتي، م.ب.،1984، ص.289-290.

الطريق، وتعمل على الوصول إلى مدينة أرلس قبل الموعد المحدد، لكي بحكمتك واتفاق ووحدة الباقين الموجودين يحسم هذا الانقسام الذي تواصل حتى الآن بصورة مخجلة بسبب بعض المنازعات المخزية، بعد أن يسمع كل ما يدلي به الطرفان المتخاصمان وبعد أن يسمع كل من أمرنا بحضورهم، فتتحد القرارات وفق الإيمان السليم، وتعود الوحدة الأخوية ولو مع الوقت ليحفظك الله القدير في صحة كاملة سنين عديدة »[1].

- **الرسالةالموجهة الى بروقنصل افريقيا لإعفاء رؤساء الكنائس من المهام السياسية:**كما أرسل قسطنطين رسالة أخرى تقضي بإعفاء رؤساء الكنائس (الإكليروس) من الواجبات السياسية وجاء في الرسالة ما يلي:

« السلام لك يا عزيزنا أنوللينوس نظرا لما اتضح من ظروف كثيرة بأنه عندما تحتقر تلك الديانة التي توفر الإكرام العظيم للقوة السماوية المقدسة تتعرض المصالح العامة لأخطار شديدة ولكن عندما تتبع وتمارس حسنا فإنها تعود بالخير العميم والتقدم العظيم على الفرد الروماني والسعادة لكل مصالح البشر برحمة الله، فقد رأيت أنه من الأنسب أيها العزيز أنوللينوس[2] بأن الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة القانون، متبعين هذه الديانة الربانية، يجب أن يتقاضوا أجرا على أتعابهم[3].

فيسرني أن القاطنين في المقاطعة التي أوكل إليك أمرها، أعضاء الكنيسة الجامعة (الرسمية) التي يرأسها كايكيليانوس الذين يتفانون في خدمة هذه الديانة الطاهرة، والذين يسمون إكليروس يجب أن يعفوا بصفة كلية من الواجبات السياسية، لكي لا ينحرفوا بسبب أي خطأ إلى تدنيس الأشياء المقدسة أو إهمالهم واجباتهم الدينية والخدمة الواجبة للذات الإلهية بل يجب أن يكرسوا أنفسهم لشرائعهم دون أي عائق، فالأمر واضح أنهم عندما يقدمون الإكرام العظيم لله يشمل الدولة الخير العظيم، أبق في سلام دائم يا عزيزي أنوللينوس المحبوب»[4].

---

[1]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 448، شنيتي، م.ب.،1984، ص.289-290.

[2]- أنوللينوس: هو بروقنصل إفريقيا في عهد قسطنطين، القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 449.

[3]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 449.

[4]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 449

.إجتماع ميلانو: غير أن أهم تدعيم ملموس ومحسوس وكان له أبلغ الأثر على مستقبل المسيحية قام به قسطنطين لصالح الكنيسة هو قرارات اجتماع ميلانوفي مارس 313م، الذي جمع بين قسطنطين أغسطس الغرب مع ليكينيوس أغسطس الشرق، حيث تباحثا الطرفان على رسم خطة دينية معينة تجاه مواطني الإمبراطورية للقضاء على الإشكال الديني المهدد لسلامة ووحدة الإمبراطورية الرومانية[1].

وقد اختلف المؤرخون على التعريف وإعطاءإسم لتلك الاجتماعات المنعقدة بين الإمبراطورين في ميلانو فمنهم من أسماها "براءة ميلانو"[2]، ومنهم من أطلق عليها "رسالة ميلانو"[3]، ومنهم من قال عنها "رسالة نيقوميديا"[4] وهناك من تحدث عن "مرسوم ميلانو"[5]ومن المؤرخين من سمّاها "صور القوانين الإمبراطورية"[6]، وكل تسمية من التسميات صحيحة ويجوز أن يسمى الباحث اللّقاء الذي حصل بين الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس بتلك التسميات المختلفة.غير أن قرارات اجتماع ميلانو عام 313م لم تكن هي الأولى لصالح المسيحيين في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بل سبقها قرارات مرسوم جالريوس الذي صدر بتاريخ 30 أفريل 311م وهو المرسوم المسمّى بمرسوم التسامح الديني (L'édit de tolérance religieux) وهو الذي صدر باسم الأباطرة الثلاث جالريوس وليكينيوس وقسطنطين وتألقت في ديباجته المشرقة الألقاب الإمبراطورية، وأطلق هذا المرسوم من مركز حكم جالريوس في نيقوميديا وفحوى هذا المرسوم نفصله كالآتي :« كان من بين القضايا التي رأينا إعادة النظر فيها تحقيقا للمصلحة العامة ما سبق أن أظهرنا من الرغبة في رد الأوضاع إلى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام، والحرص على عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم إلى حالة حسنة، لأنه

---

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.114، الناصري، س.أ.ع.،1991، ص.434-435.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص.280.

[3]- Lançon, B., Moreau, T., 2012, *Constantin un auguste chritien*, Paris, P.48.

[4]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 114.

[5]- عمران، م.س.، *1981، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي)*،بيروت، ص.25 ، العريني ، س.ب.،1968، ص.50-51.

[6]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 444؛ عمران، م.س.،2006أ، ص. 45- 49.

قد استحوذ عليهم التكبر إلى حد كبير، وغلبت عليهم الغباوة حتى أبو إتباع الشرائع القديمة التي سبق أن وضع أجدادهم أساسها، ووضعوا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم واجتمعوا جماعات متفرقة في أماكن مختلفة، ولما أصدرنا أوامرنا بوجوب رجوعهم إلى نظام القدماء خضع الكثيرون أمام التحدي ولكن فئة ليست بالقليلة رفضت الانصياع وتحملت أنواع الموت، ورغم أن كثيرا من الناس قد واصلوا في حماقتهم لا يقدمون لآلهة السماء ما يليق بها من عبادة، فإن محبتنا وما ألفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا إلى أن يشمل عفونا هذه الأمور أيضا، حتى يعودوا إلى مسيحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التي اعتادوا الاجتماع فيها، على شرط أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام، وفي رسالة أخرى سوف نبين للولاة مما يجب عليهم إتباعه وبناء على ذلك نرجو ونأمل أن يكون تسامحنا دافعا إلى الصلاة والتضرع إلى الإله الذي يعبدوه من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الإمبراطورية ورخائها»[1].

غير أن بنود هذا المرسوم لم تحترم من قبل جميع الأباطرة، حسب لاكتانتيوس فإن الإمبراطور ماكسيمينوس دايا راح يتعجل في الوقوف ضد المسيحيين عبر الكثير من الإجراءات جعلتهم يقومون بتضحيات للرب، ومن جانب آخر عمل الإمبراطور على هدم كنائس المسيحيين ومنع اجتماعاتهم كما تواصلت الإضطهادات ضد النصارى حيث نزعت عيون رجال الدين المسيحيين كما قطعت أرجلهم وأيديهم واقتلعت أنوفهم وآذانهم[2].

وقد أذيع ونشر هذا المرسوم في نيقوميديا، وعلى إثره فتحت أبواب السجون، وخرج من كان داخلها، غير أن هذا المرسوم لم يأت بنتائج طيبة للمسيحيين، ذلك أن جالريوس ما لبث أن توفي بعد إصداره للمرسوم بأيام قليلة في ماي 311م[3].

- **بنود مرسوم ميلانو:** غير أن بنود مرسوم جالريوس لم تحترم ووضعية المسيحيين لم تتحسن بشكل كبير خصوصا في الأراضي التابعة لأغسطس الشرق ماكسيمينوس دايا الذي انتهج سياسة عدائية ضد مسيحي الشرق مما دفع بالأباطرة الرومان كقسطنطين وليكينيوس إلى معالجة الإشكال الديني المطروح بقوة على الساحة الدينية والسياسية للإمبراطورية الرومانية، وهو ما دفع

[1]-الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 431- 432، Lançon, B., Moreau, T., 2012, PP. 47- 48-

[2] - Lançon, B., Moreau, T., 2012, P.48.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 74.

بالإمبراطورين إلى الاجتماع في مدينة ميلانو في مارس من عام 313م وهو الاجتماع الذي عرفه المؤرخون باسم "مرسوم ميلانو" (L'édit de milan)[1].

وهذا المرسوم عبارة عن أوامر إمبراطورية أصدرها قسطنطين وليكينيوس مترجمة من اللّغة الرومانية[2]، وفحوى هذا المرسوم الإمبراطوري أو الرسالة الإمبراطورية نفصله فيما يلي:

«1- لقد أدركنا قسطنطين أغسطس وليكينيوس أغسطس وجالريوس أغسطس أن الحرية الدينية يجب أن لا يحرم منها أحد، وذلك منذ عهد طويل، بل يجب أن يترك لرغبة كل إنسان القيام بواجباته الدينية وفق ما يختار، في هذا الصدد أصدرنا الأوامر بأن كل إنسان من المسيحيين وغير المسيحيين، يجب أن يحتفظ بديانته وعقيدته»[3].

«2- ولكن نظرا لأن في تلك الأوامر (بنود مرسوم جالريوس 311م)، التي منحت بمقتضاها الحرية للمسيحيين، لم تحترم من قبل جميع الأباطرة، فبعضهم ربما يكونون قد امتنعوا عن مراعاتها بعد قليل (في الإشارة إلى سياسة ماكسيمينوس دايا من المسيحيين) »[4].

«3- وعندما حضرنا إلى ميلانو في ظروف طيبة، أنا قسطنطين أغسطس وأنا ليكينيوس أغسطس، وتأملنا في كل ما يؤول إلى الخير العام ورفاهية الشعب، اعتزمنا فيما اعتزمناهأو على الأصح اعتزمنا أولا أو قبل كل شيء، أن نصدر الأوامر التي تعود بالخير على كل إنسان من وجوه كثيرة، أي تلك التي تحفظ الإكرام لله وتقواه، أي أننا أردنا منح المسيحيين، وكذا كل الناس الحرية لإتباع الديانة التي يختارونها، أي أية ديانة سماوية توافقنا كل من يحي تحت حكمنا»[5].

«4- لذلك قررنا، بقصد سليم ومستقيم، أن لا يحرم أي فرد من الحرية لاختيار وإتباع ديانة المسيحيين، وأن تعطى الحرية لكل إنسان لاعتناق الديانة التي يراها مناسبة لنفسه لكي يظهر لنا الله في شيء لطفه المعهود وعنايته المعتادة»[6].

---

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 114، عمران، م.س.،2006 أ ، ص.45.

[2]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 444.

[3]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 444؛العريني ، س.ب.،1968، ص.50-51.

[4]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 444؛ Lançon ,b.,Moreau,T.,2012 ,P.48-

[5]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 444؛ خياط ، ي.،2010، ص.124-125، Medina, G.,1901, "*Le Christianisme dans le nord de L'Afrique avant l'islam*", *Revue Tunisienne*, T.8, Tunis, p.407.-

[6]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص.444 ؛ عمران، م.س.،1981، ص.25.

«5- وقد رأيناه مناسبا أن نكتب بأنه قد تركت نهائيا تلك الحالات، التي تضمنتها رسالتنا السابقة عن المسيحيين التي تم إرسالها إلى حضرتكم، (يقصد النائب الإمبراطوري في نيقوميديا نائب ليكينيوس)، فيسرنا إلغاء كل ما يبدو قاسيا جدا وغير متفق مع رحمتنا، وكل من يريد إتباع ديانة المسيحيين، فليسمح بهذا دون إزعاج»[1].

«6- واعتزمنا أن نوكل هذا كلية إلى رعايتكم (النائب الإمبراطوري في نيقوميديا)، لكي تعرف أننا منحنا لهؤلاء المسيحيين كامل الحرية لممارسة فرائض ديانتهم»[2].

«7- وطالما أن هذا الحق قد منحناهم باختيارنا، فمن ذلك تدرك فطنتكم أن الحرية ممنوحة أيضا لأتباع الديانات الأخرى الذين يريدون ممارسة فرائض ديانتهم، ومما يتفق مع الهدوء في أيامنا هذه أن يكون لكل إنسان حرية اختيار وعبادة أي إله يريد، وقد فعلنا هذا لكي لا يظن بأي شكل من الأشكال أننا متحاملون على أية طبقة اجتماعية أو ديانة وضعية كانت أو سماوية»[3].

«8- بالإضافة إلى ذلك نأمر من جهة أخرى أن يسترد المسيحيون أماكنهم التي اعتادوا الاجتماع فيها سابقا، والتي سبق أن أمرنا بأمر مخالف في هذه القضية في رسالتنا السابقة إرسالها إلى حضرتكم، إذا ظهر أن أحدا اشتراها إما من حضرتنا أو من أي شخص آخر، وجب ردها لهؤلاء المسيحيين من غير تأخير أو تردد، دون مطالبتهم بثمن كعوض، وإذا كان أحد قد قبل تلك الأماكن كهبة، وجب عليه ردها لهؤلاء المسيحيين بأسرع ما يمكن»[4].

«9- وليكن معلوما بأنّه إن كان الذين اشتروا هذه الأماكن، أو الذين قبلوها كهدية يطلبون شيئا من هباتنا، فليذهبوا إلى قاضي الناحية لكي يعطوا شيئا من فيض كرمنا ولتمنح كل هذه برعايتكم لجماعة المسيحيين في الحال وبدون إبطاء»[5].

---

[1]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 444 ؛عمران، م.س.،2006 أ، ص.16.

[2]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445.

[3]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445 ؛ عمران، م.س.،1981، ص.25.

[4]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445 ؛ عمران، م.س.،1981، ص.26، Petit, P., 1974, *Histoire générale de l'empire romain. Le bas-empire « 284-395 »*, Paris, p.62.

[5]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445 ؛ عمران، م.س.،1981، ص.26.

«10- ونظرًا لأنه من المعروف أن هؤلاء المسيحيين لم يتملكوا فقط هذه الأماكن التي اعتادوا الاجتماع فيها، بل كان في حوزتهم أيضا أماكن أخرى، لم تكن ملكا للأفراد بل للجماعة كمجموعة، أي لجماعة المسيحيين فأصدروا الأوامر بإرجاع هذه الأماكن أيضا من دون إبطاء وفقا للأمر السابق ذكره، إلى هؤلاء المسيحيين، أي إلى جماعتهم وهيئتهم مع مراعاة الاحتياط السابق الإشارة إليه بطبيعة الحال، أي أن الذين يريدونها بدون دفع الثمن، كما قدمنا، يصح أن يطالبوا بتعويض من هباتنا وعطايانا.[1]وفي كل هذه الأمور، ومراعاة لمصلحة جماعة المسيحيين السابق ذكرهم، ابذلوا أقصى جهدكم لإتمام أوامرنا بسرعة، ولكي ننعم بالهدوء والسلام في هذا أيضا»[2].

«11- لأنه بهذه الطريقة، كما أشرنا إليه من قبل، تستمر رحمة الله معنا دوما، الأمر الذي اختبرناه في كثير من الأمور من قبل»[3].

«12- ولكي يتمكن الجميع من معرفة تفاصيل أوامرنا الرحيمة هذه، أرجوا أن تنشروا مكتوبنا هذا في كل مكان، وتعلنوه للجميع، حتى لا تبقى أوامرنا الرحيمة هذه مجهولة عند أي فرد»[4].

كانت تلك هي أهم بنود قرارات اجتماع ميلانو والتي حفظتها لنا رسالة نيقوميديا والتي بعث بها سيد الشرق الجديد ليكينيوس لدى وصوله إلى نيقوميديا بتاريخ 13 جوان 313م إلى حاكم بيثينيا، وهي الرسالة التي ذاعت في التاريخ باسم مرسوم ميلانو[5].

. **أوضاع المسيحيين بعد قرارات ميلانو:** شهدت أوضاع المسيحيين تحسنا بعد قرارات اجتماعات ميلانو في مارس 313م، حيث اعتبر المؤرخون أن الرسالة التي بعثها أغسطس الشرق الجديد ليكينيوس إلى نائبه في نيقوميديا بعد هزيمته للإمبراطور ماكسيمينوس دايا هي الوثيقة أو البيان الإمبراطوري على قانونية وشرعية الديانة المسيحية كأحد الشرائع المرخص إتباعها في ربوع

[1]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445 ؛ خياط ،ي.،2010، ص.125.

[2]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445.

[3]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص. 445 ؛ عمران، م.س.،2006 أ، ص.46.

[4]- القيصري، ي.، بدون تاريخ، ص.445 ؛ عمران، م.س.،2006 أ، ص.45-47.

[5]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 91.

الإمبراطورية الرومانية[1]، حيث إختلفت رسالة ميلانو عن مرسوم جالريوس للتسامح الديني في إطلاق مفهوم حرية العقيدة، وبهذا القرار الإمبراطوري الأخير نالت المسيحية وسائر الديانات المنتشرة في التراب الروماني الشرعية القانونية لإتباعها من قبل المواطنين الرومان، وحسن سير طقوسها الدينية، والسماح بممارستها، وعدم هدم أماكن عبادتها[2].

لقد تضمنت قرارات اجتماعات ميلانو والتي ترجمتها لنا رسالة نيقوميديا إرجاع الحقوق الطبيعية للمسيحيين، حيث ألغت هذه الرسالة كل المراسيم والقوانين الإمبراطورية السابقة التي جاءت لتعمل على منع إتباع الديانة المسيحية، واضطهاد أتباعها بالقتل والتعذيب والنفي[3].

من جانب آخر تعد القرارات المتخذة في ميلانو هي الأوامر الإمبراطورية التي أرجعت للكنيسة المسيحية حقوقها المفقودة في استرجاع أراضيها وثرواتها ودور عبادتها، ومن جانب آخر كانت قرارات مرسوم ميلانو من الأسباب الرئيسية في تغير الأوضاع الدينية والسياسية في أنحاء الإمبراطورية، ومن هذه التغيرات نذكر أن المسيحية وكنيستها أصبحت حليفة للدولة ولحمة سياسية في الولايات، كما استفادت الكنيسة من امتيازات عديدة منها اعتراف الدولة بيوم الأحد كراحة أسبوعية للمسيحيين، واعتراف الدولة بقانونية العتق الذي يحصل في الكنائس على يد رجال الدين كما منحت السلطة رؤساء الكنائس (الإكليروس) حق ممارسة السلطة القضائية على أعضاء كنائسهم من دون تدخل قاضي البلدة (القاضي المدني)[4].

من جانب آخر تم إعفاء رجال الدين من أعمال السخرة (Munera)التي كانت مفروضة على الجميع والسماح لرجال الدين بالاشتراك في عضوية المجالس البلدية عضوية إمتيازية تسقط عنها الواجبات القسرية التي كان جميع أعضاء المجلس الإداري (الكوريال) مجبرين على القيام بها وكان لهذا الامتيازالأخير أثره الواضح في نفوس أعضاء الكوريال السابقين، مما كانوا على الوثنيةحيث كان هذا الامتياز دافعا إلى التسابق إلى اعتناق المسيحية بعد أن كانوا غير راغبين

[1]- Lançon, B., Moreau, T., 2012, PP. 48- 49.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 117.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 36- 38.

[4]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 282.

فيها من قبل، وحاولوا الوصول إلى المناصب الكنسية بغية الاستفادة من الامتيازات المخولة لأصحابها[1].

لقد كان تنصر الإمبراطور قسطنطين الذي جاء مرسوم ميلانو ليترجمه إلى واقع عملي عاملا قويا ومشجعا على سرعة انتشار المسيحية، حيث إن الأغنياء من الطبقة الأرستقراطية وأصحاب المصالح في السلطة، وهم الذين كانوا يشكلون طبقة النخبة في المجتمع، أخذوا يقتدون بسيد العالم ويعتنقون المسيحية بعد أن كانوا يضطهدون النصارى من قبل، وربما صحت هنا العبارة "الناس على دين ملوكهم"، وتقوى بهذا جانب الكنيسة اجتماعيا بعد أن تقوى سياسيا، ومن ناحية أخرى أخذ الأثرياء يغدقون على الكنيسة الأموال تقربا لرجالها أو طلبا للغفران، فأخذت ثورة الكنيسة تزداد، وبرز في مقدمة ذلك رجال الدين مكونين طبقة اجتماعية غنية[2].

غير أن السياسة المنتهجة من قبل قطبي ميلانو[3] تجاه المسيحية والمسيحيين سرعان ما اختلفت، إذ راح قسطنطين يقوي من جانب المسيحية والمسيحيين في الجزء الخاضع لحكمه، بينما راح ليكينيوس يتباطأ ويعمل على مخالفة ما اتفق عليه في اجتماع ميلانو خصوصا مع المسيحيين، إذ تمتع أتباع الديانات الأخرى بمبدأ حرية العقيدة غير أن هذا المبدأ لم يحترم مع أتباع الدين المسيحي نظرا لتخوف ليكينيوس من أن تسامحه الكلي مع المسيحيين سيقوي من صف هؤلاء وسينقص من سلطته ويهدد حكمه في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية ويعمل على تدعيم حظوظ شريكه قسطنطين في ضم الجزء الشرقي وتوحيده للإمبراطورية الرومانية[4].

خلال السنوات 313 إلى 323م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى جزئين الجزء الشرقي والذي كانت مدينة نيقوميديا هي مركزه كان حاكمة ليكينيوس، أما الجزء الغربي الذي كان مركزه هو مدينة ميلانو في شمال إيطاليا فحاكمه هو قسطنطين الأول، خلال هذه الفترة من عمر الإمبراطورية راح أغسطس الغرب قسطنطين يقوي من جانبه ويسعى إلى توحيد الإمبراطورية

---

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 282.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 282.

[3]- قطبي ميلانو: الإمبراطورين اللّذان اجتمعا في ميلانو عاصمة الإمبراطورية الرومانية في جزئها الغربي وهما قسطنطين الأول وليكينيوس لمعالجة المشاكل الدينية للإمبراطورية الرومانية، Maraval, P., 2007, p.6-

[4]- Maraval, P., 2007, p.6.

الرومانية بضم جزئها الشرقي الذي كان ضمن سلطة صهره وشريكه في حكم الإمبراطورية، وكانت الوسيلة والطريقة الأمثل لتحقيق هذا الهدف هو الرفع من شأن المسيحية في الجزء الخاضع لسلطته بمجموعة من الامتيازات الممنوحة لنصارى غرب الإمبراطورية، ومحاولة قسطنطين استمالة مسيحي شرق الإمبراطورية للوقوف إلى جانبه ضد حاكمه أغسطس الشرق ليكينيوس[1].

وقد ظهر قسطنطين كحام للمسيحية والمسيحيين منذ انتصاره في موقعة القنطرة الملفية في أكتوبر عام 312م، وظهر أن كل مواقفه السياسية لصالح المسيحية تمت بوحي من الرب[2]. من هذا المنطلق ظهر قسطنطين كبطل للمسيحية وجب على نصارى الإمبراطورية تقديم المساعدة له لتحقيق أهدافه السياسية، ومن الأهداف الرئيسية لقسطنطين في تلك الفترة من تاريخ الإمبراطورية هو ضمه للمقاطعات الشرقية للإمبراطورية كيف يتفرد بعرشها[3].

كان انتصار قسطنطين الأول عام 323م على خصمه ليكينيوس بمثابة انتصار الامبراطور المسيحي على نظيره الوثني، أو بتعبير آخر انتصار المسيحية على الوثنية، حيث كان قسطنطين بطل المسيحية وحاميها بينما ليكينيوس هو الإمبراطور الوارث لإرث الوثنية وحاميها في الجانب القانوني، حيث كان ليكينيوس وثنيا على دين أجداده، وبالتالي فإن قضاء قسطنطين على غريمه وصهره أغسطس الشرق يعتبره المؤرخون بمثابة الحدث المفصلي والرئيسي الذي غير طبيعة الإمبراطورية الرومانية من إمبراطورية وثنية إلى إمبراطورية مسيحية، وحقق ذلك الانتقال التاريخي للإمبراطورية الرومانية في المجال الديني[4].

ب - المسيحية منذ عام323م: منذ أن وحّد قسطنطين الأول الإمبراطورية الرومانية بجزئيها الشرقي والغربي تحت سلطته بداية من عام 323م، ظهرت المسيحية في أفق الحياة الروحية كالديانة التي أصبحت لها الغلبة على سائر الديانات المنتشرة في أنحاء العالم الروماني ومع مرور الوقت أصبحت المسيحية هي المرجعية الدينية المتحكمة والمهيمنة للسلطة السياسية والعلمانية، ومنذ ذلك العهد من عمر الإمبراطورية الرومانية أصبح اهتمام الأباطرة الرومان منصبا على ما

---

[1]- Maraval, P., 2007, PP.6-7.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص.80- 81، ص. 107- 108.

[3]-Maraval, P., 2007, PP. 6-7.

[4]- Homo, L.,1941, PP. 477, 517.

يجري في دهاليز الكنيسة من اختلافات في الرأي في الجانب العقائدي والمذهبي،محاولين توجيه مسار الكنيسة الديني إلى ما يخدم مصلحة الإمبراطورية العليا[1].

كانت إنعكاسات قرارات اجتماع ميلانو عام 313م عميقة على الأوضاع الدينية التي أصبحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية صحيح إن الرسالة التي حررها الإمبراطور ليكينيوس وبعث بها إلى نائبه في نيقوميديا والتي ترجمت ما تم الاتفاق عليه في ميلانو لم تأت لتفضل دينا على آخر أو معتقدا على آخر غير أنها فسحت المجال أمام المسيحية لتنتشر ويقوى عودها أمام نظيراتها من الديانات الأخرى الموزعة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية[2].

. مراسيم قسطنطين ضد الفرق المسيحية: كما أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية، التي تتهمها الكنيسة بالهرطقة[3] خشية الوقوع في الإنقسام الديني الذي يهدد وحدة الإمبراطورية، وقد جاء في فحوى المرسوم الأول ما يلي: على رنين هذا إنتبهوا الآن معاشر النوفاتيين(Novatians) والفالنتينيين (Valentinians) والمارسيونيين (Marcionites) والبيالصة (Paulians) أنتم أيها البلهاء (Cataphrygians) وجميعكم يا من تؤيدون الهراطقة ولهم تخططون في اجتماعاتكم السرية، انتبهوا إلى أنكم بنسيج زيف وغرور، وعلى طريق الضلالة ومهلكاتها تخرجون على نطاق عقيدتكم، من أجل ذلك، وبكم تمرض كل روح طيبة، ويمسي الحي فريسة هلاك مقيم، يا مبغضي الحق، يا أعداء الحياة، يا أحلاف الخراب، إن آرائكم كلها ضد الحقيقة تنضح بالخسة، تغص بالسخافات والأوهام. بها تصوغون النفاق، وتجيرون على البريء وتحجبون الضياء عن ذوي الإيمان. بآثامكم دوما تحت قناع التقوى تملئون بالدنس كل شيء وتنفذون بعميق الجراح في نفي الضمائر، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار، ولكن مالي أطيل؟ إن الحديث عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه، فكم هي مفعمة قائمة خطاياكم وكم هي شنيعة مقيتة يقصر عن سردها يوم، وكم يحسن بالمرء أن يصدم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض في هذه الآثام نضارة مؤمن حسن الطوية. وأني لأساءل نفسي... على الصبر

---

[1]- Homo, L.,1941, PP. 517-519.

[2]- عبد الحميد،ر.، 1975، ص. 131 - 132، الناصري، س.أ.ع.،1991، ص.441.

[3]- الهرطقة: هو إتهام من قبل الكنيسة يقضي بقرار الحرمان ضد فرقة مسيحية أو توجه شخص مسيحي، عبد الحميد،ر.،1975، ص. 131 - 132.

إذن على شر مستطير، خاصة أن هذا الحلم تسبب في أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل، لم إذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث؟ وما ذلك إلا بأن نعلن على الملأ الاستياء»[1].

واستراح قسطنطين لبعض الوقت ثم أصدر مرسوما إمبراطوريا آخر يؤكد فيه ما سبق أن حذر منه فيما مضى وفحوى المرسوم فيما يلي: «أما وقد ضاق الصدر عن تحمل وبيل ظلالكم فإنا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد أي اجتماع وبهذا أصدرنا أوامرنا... نخرجكم من ديار جمعتكم وامتدت إرادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم في السر والعلن بالخز عبلات طفحت والخرافة، فلتدعوا إذن ذلك النفر منكم، الراغبين في اعتناق دين الحق ليسلكوا سبيل الصواب بالانضواء في الكنيسة الكاثوليكية[2] والإتحاد معها في زمالة مقدسة حيث يستأهلون الوصول إلى الحقيقة. ومهما يكن من أمر فإن هوس فهمكم الأضل لابد وأن يحجم عن أن يشوب أو يعطب غبطة زماننا، نعني ميلا مزدوجا لدى الهراطقة والمنشقين تعسا ملحدًا. فإنه من واجب الوفاء بالنعمة، التي يفضل الرب منحنا، أن ندأب لنخرج أولئك الذين عاشوا في الماضي يحملون بنعمة المستقبل، من الشذوذ والآثام إلى الصراط المستقيم، من الظلمات إلى النور، من الضلال إلى الحق، من الهلاك إلى النجاة، وحتى يصبح هذا الحل ذا شأن أصدرنا أوامرناكما قيل من قبل بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة، أقصد دور الصلاة، إن جاز استخدام هذا اللفظ، التي يملكها الهراطقة ويرصدها على الفور للكنيسة الجامعة، ومصادرة أي مواضع لصالح الدولة، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء، فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية أن تعقد في السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما»[3].

.تراجع قسطنطين على مرسوم ميلانو: وأول ما نلاحظه على هذين المرسومين اللّذين أصدرهما قسطنطين ضد فرق النوفاتيين والفالنتينيين والمارسيونيين والبيالصة والبلهاء، والثاني منهما بخاصة أنهما يعتبران خروجا على السياسة التي تم عليها الاتفاق في ميلانو عام 313م، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم ساسة ميلانو سائر المواطنين الحرية في اختيار ما ترضاه من الديانة

[1]- عبد الحميد،ر.،1975، ص. 131 - 132.

[2]- الكنيسة الكاثوليكية: هي الكنيسة المسيحية العالمية مقرها في روما، وهي أقدم كنيسة، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 133- 134.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 133- 134.

أنفسهم، وأن لا يحرم أي إنسان من حرية الاختيار في إتباع عقيدة المسيحيين أو في اعتناق الديانة التي يراها متناغمة وهواه. من هذا المنطلق نرى أن قسطنطين بقراراته هذه قد تخلى عما وعد به إزاء سائر الديانات والعقائد، بل لقد ذهب إلى درجة اضطهاد إتباع فرق المسيحيين على اختلاف مذاهبها وأصولها ولم يتوقف الاضطهاد[1] بإيقاع العذاب البني بهم، ولكنه أخذ هنا شكلا آخر في تحريم اجتماعاتهم ما ظهر منها وما بطن، ومصادرة دور عباداتهم. وهي إجراءات طالما قاس منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك ولا شك أننا نلتمس هنا تغييرا في سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة، فقد أشرنا أن الإمبراطورية الرومانية كانت تنظر إلى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية، ولم يكن يهمها،أن تنقسم الكنيسة إلى عدد من الفرق قليل أو كثير[2].

أما بعد اجتماع ميلانو[3] وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية في الدولة، وأضحى لمريدها صوت مسموع إلى جوار أتباع الديانات الأخرى، فإن أي انقسام في الرأي بين أولئك الأتباع لابد وأن يمس بوحدة الإمبراطورية، ومن ثم عزم قسطنطين على القضاء على أي مظهر من هذا النوع وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية.

هذان إذن مرسومان أصدرهما قسطنطين ضد فرق مسيحية عارضت تعاليمها سياسة الكنيسة الكاثولكية، تصدر عن هذه الأخيرة رائحة عنف وتهديد، وصيحات حرمان وتجريد ومصادرة، على حين لم يصدر تجاه الوثنية وأتباعها شيئا من هذا القبيل، ولم يخاطبهم قسطنطين بهذه اللهجة من العنف والصرامة، وما قام قسطنطين بذلك إلاّ خوفا من تعميق هذه الفرقة في الكنيسة النصرانية وسياسة لمنع الانقسام داخلها، وقد يمتد أثره فيصيب بالهزات الدولة، وبالانقسام إمبراطورية أفنى زهرة شبابه ورجولته من أجل وحدتها والجلوس على عرشها وحيدا[4].

---

[1]- الإضطهاد: هي سياسة قائمة على التعذيب والقسوة، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 134.

[2]-عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 134.

[3]- اجتماع ميلانو: هو الاجتماع الذي جمع بين قسطنطين وليكينيوس وعرّفه المؤرخون فيما بعد بمروسم ميلانو، عبد الحميد، ر.، 1975، ص.134- 135.

[4]-عبد الحميد، ر.، 1975، ص.134- 135.

لقد كان أخطر ما يخاف قسطنطين حدوثه انقساما في إمبراطورية أتم على التو توحيدها فأدخل في روع نفسه وجموع رعيته المسيحية أن خلافا بينهم لابد وأن يصيب دولته بالدوار، ومن ثم ما كان ليقبل مطلقا أي شقاق يحدث في جسم الكنيسة، وهذا واضح من فحوى المرسومين السابقين، ومن موقفه تجاه المشكلتين الدوناتية والميليتية، والانشقاق الأريوسي[1].

- **الرسالة الموجهة إلى مجمع الأساقفة عام 335م:** ومن جانب آخر عمل قسطنطين على أن يضع أمام أعين رجالات الكنيسة صورة لمدى عون الرب له بمنحه هذه "الحكومة العالمية" والتي هو بصدد الحديث عنها والتي لم تكن لتشمل الرومان وحدهم، بل تسيطر على البرابرة أيضا، ففي رسالة بعث بها إلى مجمع الأساقفة الذي يجري في مدينة صور عام 335م يقول فيها قسطنطين«بفضل جهدي، ولأني لله نعم الخادم آمن من البرابرة بعبادة الرب وما ذلك إلاّ لأنهم أيقنوا أنه حافظني وحاميني في كل خطو ودرب ولأنهم من خشيتنا أدخلوا إلى المعرفة الحقة للإله الذي هم الآن بعبادته قائمون»[2].

-**الرسالة الموجهة إلى سابور الثاني ملك فارس:**كما راح قسطنطين يتغانى بفضائله على الكنيسة والمسيحيين ويبعث برسالة إلى ملك فارس يردد في صدرها من جديد جميل أنعمه على المسيحيين وما نالهم في عهده من الفوائد والامتيازات، ويفتتح قسطنطين رسالته قائلا: «إني كما تبرهن أعمالي أعترف بأقدس عقيدة، فهذه العبادة ذاتها تقودني إلى معرفة الرب القدوس، الذي بعونه أنهضت من الرقاد من أقاصي المحيط كل أمة في هذا العالم لتلمح الأمل في الأمان وعليه فإن كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة قد بعثوا من جديد بفضل حكمي وإرسائي قواعد أسس أسعد دولة»[3].

ولا يختلف هذا المعنى عن سابقه، فلا توجد رسالة كتبها أو أمر بها إلا وفيها ذكر لأعماله الحسنة على المسيحيين، ويفهم من فحوى الرسالة أن قسطنطين قد ساق البرابرة بالقوة إلى حظيرة الكنيسة، فتوصل إلى إعجاب الكنيسة واعترافها بأنعم الإمبراطور، كما أرسل إلى ملك فارس يحثه

---

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 135، حارش، م.هـ.،1992، ص.228، العبادي، م.،1981، ص.247- 248.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 120-121، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.41، عمران، م.س.،2006 ب، ص.71، العبادي، م.،1981، ص.297-298.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 121.

على رفع الظلم عن كواهل رعاياه المسيحيين فدعا في متن رسالته إلى معاملة نصارى فارس معاملة حسنة وأن يشمل إمبراطور فارس هذه الطائفة من شعبه بعطفه ورعايته، حتى ينال ذلك رضى ربهم وجميل نعمائه، فيقول الإمبراطور: «إني لأضرع أن يحل عليك الرخاء وإياهم وأن تشملكما على قدر واحد البركات، فبهذا السبيل سوف تعاين حب الله وعطفه، الرب أب الجميع والسيد، والآن وأنت صاحب السلطان أوصيك بهم خيرا، فلتسعهم رحمتك ولتكلأهم رعايتك، فتقواك للعيان بادية، ولتبسط عليهم جميل فضلك وعطفك، فإنك بهذا السبيل تضمن لك ولنا عظيم النعم»[1].

غير أن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معاني أخرى وهي هذا الرب، وأنا على ركبتي جاث، إياه أستعيد من هول دماء تلك الأضحيات، وإليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتة ويطهر من الأراضي كل نار شيطانية، وما ذلك إلا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشعائرها المستهجنة، قد أوردت جل لا بل كل أمم العالم الوثني ورد الهلاك، فرب الكل السيد، وقد كرم بني آدم ورفع قدرهم، وأحب البشرية، وهبها البركات،ومن ثم لا يرضى جلاله ولا يسمح لقلة تعبث بها وتنحرف إرضاء لخاص الشهوات.وليس للرب على الإنسان إلاّ نقاوة عقل، واستقامة روح، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها، فمسرة الله لكياسة من البشر واعتدال، يحب الحليم ويبغض اللئيم... يبتهج للإيمان ومن الكفر يقتص. يهوى بجبروته كل عات، ومن صلف كل متكبر ينتقم. وفي الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس، ولكنه يجزي المتضع، وبما استحق من جزءا يثيب، وبمثل هذا يمد الرب عونه لمملكة بالعدل قائمة، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام... وبعد يا أخي... فأنا على يقين بأني غير مخطئ في اعترافي لهذا الإله الواحد[2]، المبدع الأب لكل الأشياء، الذي جافاه كثير من أسلافي، مقودين بجنون الخطيئة، مما جر عليهم رادع العقاب حتى لقد راح ما تلاهم من أجيال يتندر بما حل بهم تحذيرا لمن تداعيه الرغبة في سلوك الدرب، ومن عداد هؤلاء واحد حدت به صاعقة العذاب الهون، فراح من هنا طريدا، وكانت

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 121- 122.

[2]- الإله الواحد: هو الرب المسيحي القائم على الثالوث المقدس (الأب، الإبن، الروح القدس)، عبد الحميد ، ر.،1975، ص.123.

أراضيكم له المنفى والمصير. وكان العار الذي لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم[1]، وأنها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذي حل بكل أولئكعلى النحو الذي أضحت بينا للجميع في عصرنا، ذلك أني قد عاينت نهاية أولئك الذين بكافر مراسيمهم، ناكدوا عباد الرب. وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله. فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام وعليه فإني لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الآمن، فإذا ما اتقى الناس وآمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا، يقدسون ذاته، تعطف الرب فآواهم إلى رحابه»[2].

بهذا الإلحاح في رسالته يؤكد قسطنطين على شيء واحد يريد قوله، وهو حث سابور الثاني(SaporII)على أن يرفع على رؤوس المسيحيين في مملكته نير التعذيب والاضطهاد، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة في رسالة متقضبة تحمل معنى أحكام السياسة وعرف الساسةولكنه بعث بهذه الرسالة من جهة أنه نصب من نفسه داعية للإيمان يعظ أمام المذبح جماعات[3].

وكانت أهداف الإمبراطور قسطنطين من خطه لهذه الرسالة، وإرسالها لملك فارس هو محاولة إضافة مآثره على الكنيسة فضلا جديدا بأن يكون قسطنطين داعيا للإيمان، وأن يبرز بصورة حامي ذمار هذا الدين في حدود دولته وعبر أسوارها، وعند ألد أعداء الرومان الفرس[4] وكأنه يريد بذلك أن يدخل في روع الكنيسة حرصه على ضم منطقة جديدة لدائرة نفوذها، فيبسط نفوذها إلى جهة كانت توقن أنها عن أيديها بعيدة المنال[5].

لقد كانت آثار الرسالة التي بعث بها قسطنطين إلى ملك فارس كبيرة فقد أحدثت رد فعل عنيف في الأوساط الفارسية، وساورت الشكوك الملك الفارسي فيما يجول في خاطر نظيره

---

[1]- يشير قسطنطين هنا إلى الهزيمة التي تلقاها الإمبراطور الروماني فاليريانوس(253- 260م) وأسره على يد الفرس، عبد الحميد ، ر.،1975، ص.123.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 123.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 123.

[4]- الفرس: هو الإسم القديم للشعب الإيراني، وكانت إيران مهدًا للإمبراطورية الفارسية أحد أعظم الإمبراطوريات القديمة وعاصرت زمن الإمبراطورية الرومانية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 124.

[5]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 124.

الروماني وولاء الطائفة المسيحية من رعاياه لدولته معتبرا إيّاهم من صنائع عدوه، وربما يرجع ذلك لم وصل إلى علم الإمبراطور من خاصة بلاطه بأن كل المسيحيين في دولته يشكلون خطرا على مملكته ويمثّلون حزبا مؤيدا للإمبراطورية الرومانية، ومن جانب آخر وصل إلى مسامع الإمبراطور سابور الثاني أن سمعان أسقف سلوقية(Seleucia) يرسل إلى القسطنطينية معلومات عن كل ما يجري في فارس[1].

ومما يرجح هذا القول ما ذكر في رسالة قسطنطين سالفة الذكر إلى سابور الثاني حيث يقول قسطنطين فيها «إنه لفي روعي والسرور يملأني، بعد أن أتتني أنباء سارة تتناغم ورغبتنا أن أكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم أتحدث إليكم الآن... أعني المسيحيين». ويرجع هذا الشك في نفس سابور II[2] إلى وقت طويل حيث منذ استلامه زمام السلطة في المملكة فأفزعه انتشار المسيحية بين أتباعه وخاصة في بابل وسلوقية وجنديسابور وآشور وغيرها فأنزل بهم حملات قمع واسعة النطاق ثلاث مرات في سنوات (317- 329، 330م)، وتواصل الاضطهاد الأخير أربعين عاما، وعقد عام 325م مجمعا زرادشتيا[3] يضم كهنة الدين الفارسي وضع خلاله نصا رسميا نهائيا لكتاب الأفستا[4].

- **تدعيم قسطنطين لملك أرمينيا المسيحي تيجرانس:** ومما ضاعف في شك الملك الفارسي أن تيريداتس الثالث (Tiridates III)(261- 317م) ملك أرمينيا الذي أعاده دقلديانوس إلى عرشه، قد اعتنق في مطلع القرن الرابع المسيحية، وعمل على فرض عقيدته الجديدة بين أفراد رعيته، مما أدى بالتالي إلى حدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين[5].

من هذا المنطلق لم يدخر قسطنطين وسعا في تدعيم هذا الشريك المسيحي والعمل على إحياء التحالف القديم ثانية، ولاشك أن هدف الإمبراطور الروماني من وراء هذا الحلف يشكل

---

[1]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 124.

[2]- سابور الثاني: هو إمبراطور الدولة الفارسية عاصر الإمبراطور قسطنطين الأول، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 124- 125.

[3]- مجمعا زرادشتيًا: هو مجمع ديني للديانة الزرادشتية أحد الديانات الفارسية القديمة، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 124- 125.

[4]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 124- 125.

[5]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 125.

خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسي ودولته، وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثاني وقسطنطين مما دفع الملك الفارسي إلى القبض على تيجرانس (Tigranes) ملك أرمينيا المسيحي واحتلال بلاده، فاستنجد الحزب الموالي للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة، فقبل على الفور قسطنطين هذا العرض وتوج هانيباليانوس (Hannibalianus) ملكا، وكان هذا الفعل من جانب قسطنطين يعني الحرب مع فارس، ولم يؤخر انفجارها إلى وفاة قسطنطين[1].

من مجريات هذه الأحداث لا نستبعد أن يكون قسطنطين في رسالته إلى ملك فارس يتحرش به ويستفزه، ليدخل معه في جولة من جولات الصراع يجرب فيها للمرة الثالثة قوة ذلك الإله الذي عرفه وأدرك قوته قبل ذلك على ضفاف نهر التيبر وتحت أسوار خريسوبوليس[2]، ولكن عمره لم يسعفه، وترك لخلفائه مهمة اتمام تلك الحرب ضد الكيّان الفارسي[3].

.بناء قسطنطين للعديد من الكنائس: لم يقف دعم قسطنطين للمسيحية عند حد الدعم المادي بطرقه المختلفة، والتأييد المعنوي الظاهر في رسائله العديدة، بل تجاوزه إلى دائرة الواقع العملي المتمثل في إقامة دور العبادة، فينبئنا يوسابيوس[4] أن الإمبراطور قسطنطين بعد الانتهاء من أشغال مجمع نيقية عام 325م نذر نفسه لمهمة جديدة في خدمة الكنيسة والدين المسيحي في منطقة فلسطين بالذات وكان هذا العمل هو إنشاء كنيسة القيامة في القدس (أورشليم)، التي تعرف أيضا باسم القبر المقدس، والتي غدت فيما بعد كعبة الحجاج المسيحيين من مختلف بقاع الأرض منذ عهد قسطنطين الأول إلى وقتنا هذا[5]، وما دمنا نتحدث عن قسطنطين وأعماله في فلسطين فلابد من الإشارة إلى أمه هيلينا التي أرسلها إلى بيت المقدس حيث عثرت على مكان الجمجمة واستخرجت الصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح، والحربة التي طعن بها في أطراف

---

[1] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 125.

[2] – أسوار خريسوبوليس: هي أسوار تقع في آسيا الصغرى جرت فيها أحد المعارك الكبرى بين قسطنطين وليكينيوس، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 126.

[3] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 126.

[4] – يوسابيوس: هو رجل دين مسيحي كان أسقفا على كنيسة قيصرية في فلسطين وهو صديق قسطنطين ومحل ثقته، يوسف،ج.ن.، 2005، ص. 46.

[5] – يوسف،ج.ن.، 2005، ص. 46.

جسمه، والإسنجة، وكذلك تاج الشوك الذي وضعه اليهود فوق رأسه، وكل آثار الصلبوت الأخرى وقد كان لهذه الأعمال أثرا كبيرا، إذ تمتع قسطنطين وهيلينا بعظمة خالدة واقترن اسم الابن وأمه بالاحترام والإجلال والتعظيم في تاريخ الكنيسة، وفي تاريخ الإمبراطورية الرومانية المسيحية التي ولدت منذ عهد قسطنطين[1].

كما قام قسطنطين ببناء كنيستين جديدتين في بيت لحم وفوق جبل الزيتون، كما حظيت مناطق أخرى عديدة بما نالته فلسطين، وخاصة عاصمة الإمبراطورية نيقوميديا[2] وأنطاكية ويذكر يوسابيوس أيضا أن الإمبراطور قام في أواخر عهد حكمه بإنشاء كنيسة الرسل في القسطنطينية ويقدم لنا وصفا دقيقا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها[3].

وفي نطاق آخر قرر قسطنطين هدم عدد من المعابد الوثنية، مثل معبد أسكليبيوس (Asclepius) في أيجي (Aegae) بكيليكيا (Cilicia) ومعبدي أفيكا (Apheca) وهيليوبوليس (Hiliopolis) في فينيقيا[4] (Phoenicia) وانتزع أبوابها وأسقط سقفها، وأخذ منها ما كان من نفائس وآيات فنية رائعة[5]،ويؤكد الباحث جونز (Jones) على ذلك بقوله أن قسطنطين استغل ما أخذه من الذهب والفضة من تلك المعابد في إصلاحه النقدي. كما يؤكد الباحثون أن قسطنطين قد صادر ضياع تلك المعابد، ويؤكد يوسابيوس أن هذه الإصلاحات التي أقدم عليها الإمبراطور قد أفقدت الآلهة القديمة مكانتها الدينية، وجعلها قسطنطين مدعاة للاستهزاء والاستهتار، وقد تبين ضعفها وعجزها عن دفع الأذى عن نفسها، وكان ذلك مدعاة لترك الكثير من المواطنين الرومان لديانتهم الوثنية واعتناقهم للمسيحية[6].

---

[1] – يوسف،ج.ن.، 2005، ص. 46-47.

[2] – نيقوميديا: هي عاصمة الإمبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس وهي مدينة أزميت في تركيا الحالية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص.127.

[3] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص.127.

[4] – فينيقيا: منطقة في الشرق الأدنى وكانت مهدًا لحضارة إنسانية قديمة تعرف بالحضارة الفينيقية امتدت على طول الساحل السوري واللبناني الحالي، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 127.

[5] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 127.

[6]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 127.

من هذه المعطيات أصبح قسطنطين في نظر الكنيسة ومؤرخيها رسولا، اختارته السماء ليمجد الرب في الأعالي وليقيم على الأرض السلام، وليرجع للكنيسة عهدا من الأمان والاستقرار حرمت منه منذ وقت طويل. ولتحيى برحمة الرب تعاليم السيد المسيح وهدايته وتسلك طريقها إلى قلوب الملايين من شعوب الإمبراطورية الرومانية، وقد عبّر قسطنطين عن ذلك في الرسالة التي أرسلها إلى فلسطين حيث يقول: «لقد كنت عدة الرب التي اختارها، وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته وعليه فإنّه إبتداءً من المحيط البريطاني البعيد والأقاليم التي وفقا لقانون الطبيعة، أقصيت تماما وأزالت كل صنوف للشر سادت،آملا، وهدايتي للرب تنير خطوي، أن يرعى البشر ناموس الإله المقدس، ويزدهر بهدي يديه المقتدرة معتقدنا الطوباي»[1].

وبعد أن يعترف قسطنطين بفضائل الإله عليه، وإيمانه أن كل خدمة يؤديها للمسيحيين هي هبة من عند الرب، يضيف قائلا: « ها أنذا إلى أقاليم الشرق أسعى، حيث أمست تحت نير الكوارث الجسام تتحرق لطباب شاف على يدي»[2].

تعد الإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول من أهم أعمال هذا الإمبراطور الروماني المصلح، حيث أحدثت سياسة هذا الإمبراطور الدينية تغيرات جذرية على الأوضاع الدينية للعالم الروماني، وأحدثت نقلة نوعية للتوجه الديني[3] الذي ساد الإمبراطورية الرومانية المتمثل في التوجه الديني ذو الطابع الوثني باختلاف دياناته ومذاهبه وفرقه، نحو التوجه المسيحي باختلاف مذاهبه وعقائده[4].

من جانب آخر نستنتج أن الكنيسة المسيحية في مستهل القرن 4م، أشبه بغريق ألقاه قدره في بحر لجي، تلتقطه الأمواج من كل ناحية، ويأتيه الموت من كل صوب، وهو يرفض هذا ويصارع ذلك، يتلفت يمينا ويسارا لعله يجد في النجاة بعض الأمل، وكان قسطنطين قارب النجاة للكنيسة المسيحية والدين المسيحي ... فلم تتردد أن وضعت مصيرها بين أيديه بل وألقت بنفسها

---

[1] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 128، الناصري، س.أ.ع.،1991، ص.453-454، عمران، م.س.،2006 ب، ص.72 ، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.358.

[2] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 128.

[3] – التوجه الديني: هو الدين السائد في إمبراطورية ما أو دولة ما، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 36.

[4] – عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 36.

فيه دفعة واحدة، بلا تردد، وبلا وعي، واختارت أن تغوص في القاع بدلا من أن يبتلعها اليم. وتفطن قسطنطين بثاقب بصره إلى ذلك. بل ولابد إن كان يدرك كل ذلك قبلا، ومن ثم مد في اللّحظة الحاسمة يده لانتشال الكنيسة[1] وقد أشرفت على الهلاك، وساعده على ذلك مجريات الأحداث، فحفظت له الكنيسة جميل أعماله، فألزمها هو بقاهر إرادته[2].

لقد حاولت الحكومة الوثنية[3] أن تقضي على الكنيسة النصرانية، ففشلت في تحقيق هدفها، وكان النجاح حليف قسطنطين حين حقق الصلح بين الدولة الرومانية والكنيسة المسيحية بعد تطبيقه لسياسة حرية العقيدة اثر اصداره مرسوم ميلانو في مارس من عام 313 م[4].

[1] – لإنتشال الكنيسة: لإنقاذ الكنيسة ومنحها الشرعية القانونية ومنحها حقوقها الطبيعية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 140.

[2] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 140.

[3] – الحكومة الوثنية: السلطة الإمبراطورية الرومانية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 140.

[4] – عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 140.

الفصل الثالث:

الإصلاحات السياسية للإمبراطور قسطنطين الأول (306م- 337م)

الفصل الثالث:الإصلاحات السياسية للإمبراطور قسطنطين الأول (306م- 337م).

I- الأوضاع السياسية للإمبراطورية الرومانية أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين.

II- دوافع نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى آسيا الصغرى.

1- الدافع الديني.

2- الدافع السياسي.

3- الدافع العسكري.

4- الدافع الاقتصادي.

5- الدافع الاستراتيجي.

6- الدافع الشخصي.

III- تأسيس القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية.

1-أهمية موقع مدينة بيزنطة.

2- تخطيط مدينة القسطنطينية.

3- العناصر المشكلة لمدينة القسطنطينية.

4- النظام الحكومي في العاصمة الجديدة.

يعد عهد قسطنطين الأول مرحلة انتقالية في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بشكل خاصوفي تاريخ أوروبا بشكل عام، نظرا لما أحدثه هذا الإمبراطور من إصلاحات على الصعيد السياسي كان لها بالغ الأثر في تغيير الوجه السياسي للإمبراطورية الرومانية وأوروبا.

وعند الحديث عن الإصلاحات السياسية التي قام بها قسطنطين الأول نشير إلى حدث هام تولد أثناء فترة حكم قسطنطين وهو تأسيس مدينة القسطنطينية عام330م[1]والتي أصبحت العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية، وأصبحت النواة الأولى للإمبراطورية البيزنطية التي ستتولد فيما بعد ابتداءا من قرار تقسيم الإمبراطورية الرومانية عام 395م حيث قسّم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (TheodosiusI) (379-395م)الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، القسم الغربي المعروف بالإمبراطورية الرومانية الغربية والذي كان تحت حكم ابنه هونوريوس (Honorius) وكانت عاصمة دولته هي مدينة رافنا والقسم الشرقي المعروف بالإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية، والذي كان تحت حكم ابنه أركاديوس(Arcadius) وكانت عاصمة دولته هي مدينة القسطنطينية[2]. (أنظر خريطة رقم2)

وسنحاول في هذا الفصل من هذا البحث أن نتحدث بشيء من التفصيل عن الأسباب التي دفعت قسطنطين، إلى هجر العاصمة التاريخية للإمبراطورية الرومانية روما على ضفاف نهر التيبر في إيطاليا نحو مدينة بيزنطة الإغريقية الواقعة على ضفاف مضيق البسفور في آسيا الصغرى، خريطة تقسيم الامبراطورية الرومانية عام 395م وسنشير إلى مراحل تشييد العاصمة الجديدة وعن تخطيط مدينة القسطنطينية.

[1] – Bloch, G., 1922, *L'Empire romain évolution et décadence*, Paris, p .199.

[2] – Bloch, G., 1922, p. 202.

خريطة رقم2:تقسيم الإمبراطورية الرومانية عام 395م.

وكيبيديا، الموسوعة الحرة.

I- الأوضاع السياسية للإمبراطورية الرومانية أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين:

شهدت هذه الفترة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية تربع دقلديانوس على عرش الإمبراطورية الرومانية الذي جاء عهده مليئا بالإصلاحات التي أحدثها على جسم الإمبراطورية من ذلك تقسيم السلطة بين أربعة أباطرة أو ما يعرف بالسلطة الرباعية (La Tétrarchie)، كما تم تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية كبرى تعرف باسم(Préféctoire) وهذه الأقسام الإدارية مع ذكر أسماء أباطرة السلطة الرباعية هي:

1-آسيا الصغرى(L'asie Mineure): ويشمل هذا الجزء كل من آسيا الصغرى والشام ومصر وكانت عاصمة هذا القسم من الإمبراطورية الرومانية هي مدينة نيقوميديا وكان يحكم هذا الجزء من الإمبراطورية دقلديانوس وقد حمل لقب الأغسطس.

2-إليريا:ويشمل هذا القسم كل من إليريا وداسيا[1]. والمقاطعات الدانوبية وكانت عاصمة هته المقاطعة هيمدينة سرميوم(Sermium) وكان يحكم هذا الجزء من الإمبراطورية الرومانية، الإمبراطور جالريوس بدرجة قيصر (Césars).

3- إيطاليا(L'italy):ويشمل هذا الجزء كل من إيطاليا مركز المقاطعة بالإضافة إلى كل صقيلة وإفريقيا وكانت عاصمة هته المقاطعة هي مدينة ميلانو في شمال إيطاليا وكان يحكم هذا الجزء من الإمبراطورية الإمبراطور ماكسيميانوس بدرجة أغسطس أو لقب أغسطس بتعبير آخر.

4- غالة (LaGaule): ويشمل هذا الجزء كل من غالة الرومانية بالإضافة إلى جنوب بريطانيا وإسبانيا وكانت عاصمة هذا القسم هي مدينة تريفيز الواقعة على نهر الراين ، وكان يحكم هذا الجزء من الإمبراطورية الإمبراطور قسطنطنيوس كلوروس بدرجة قيصر[2].

وكان الهدف من هذه السياسية هو توزيع السلطة قصد الوصول إلى التحكم في أراضي الإمبراطورية الرومانية الممتدة من آسيا الصغرى شرقا إلى غالة غربا ومن إفريقيا جنوبا إلى جنوب

---

[1]- داسيا: هو الإسم القديم لرومانيا، عمران، م.س.، 2006ب، *مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي*، الإسكندرية، ص .48- 49.

[2]- عمران، م.س.، 2006ب، ص .48- 49.

بريطانيا شمالاً، بالإضافة إلى تجنيب البلاد ويلات الحرب الأهلية بسبب الصراع على السلطة بالإضافة إلى مراقبة مصدر الخطر الآتي من ثلاث جبهات أساسية من الفرات شرقا، من الدانوب شمالا ومن الراين غربا.

فقد كان نشاط الجيوش الفارسية وجحافل القبائل الجرمانية يقلق أمن الإمبراطورية الرومانية ممّا أدى بالإمبراطور دقلديانوس إلى تقسيم السلطة بين أربعة أباطرة يحمل الاثنان منهم لقب الأغسطس وإثنان منهم لقب قيصر وقد بينا ذلك آنفا وكان نظام السلطة الرباعية يقضي بارتقاء القيصرين إلى درجة الأغسطس واعتزال الأغسطسان الأصليان بعد مرور 20 سنة من بداية حكمها وتعيين الأغسطسان الجديدان قيصرين جديدين لمساعدتهما في إدارة الإمبراطورية.وكان الهدف من هذه السياسة هو مراقبة مركز الخطر الآتي من هذه الجبهات[1].

ومن جانب آخر عمل الإمبراطور دقلديانوس على معالجة المشاكل الدينية للإمبراطورية بكل حماس وإصرار فمنذ وصوله إلى سدة الحكم عمل هذا المصلح على وضع حد لانتشار الديانة المسيحية بين شعوب الإمبراطورية الرومانية وقد اتسمت سياسة هذا الإمبراطور بالليّونة في بداية حكمه تجاه المسيحيين وتجاه الكنيسة رغبة منه في إخضاع هته الطائفة للسلطة العليا للإمبراطورية وتوجيهها لما يخدم المصلحة العليا للإمبراطورية الرومانية غير أن الطائفة المسيحية تمردت على سلطة الإمبراطور وسلكت مسارا مغايرا لسياسة دقلديانوس والتي بنى عليها إصلاحاته منذ وصوله إلى الحكم سنة 284م، ممّا دفعه إلى تغيير سياسته تجاه أتباع هذا الدين نحو القمع والاضطهاد ولذلك أصدر العديد من المراسيم الإمبراطورية سنة 303م تعمل على محاربة المسيحية لعلّ أهمها مرسوم 23 فيفري 303م القاضي بمنع اجتماعات المسيحيين وإحراق كتبهم وإجبارهم على تقديم القرابين للآلهة الوثنية وإصدار كل ممتلكات الكنيسة ممّا جعل المسيحيين يطلقون على العهد الأخير من حكمه اسم عصر الشهداء أو عصر الاضطهاد الأعظم[2].

وقد هددت الكنيسة المسيحية سياسة الإمبراطور دقلديانوس في عدّة ميادين هي:

[1]- عمران، م.س.، 2006ب، ص .49، الحويري، م.م.، 1995، ص .35.

[2]- يوسف، ج.ن.، 2005، *تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية*، ص. 43- 44، الحويري، م.م.، 1995، ص.64.

1- نظرية الفرار من الجندية، حيث هددت الدعوة المسيحية الإمبراطورية الرومانية في أكثر القطاعات حساسية وهو الجيش حيث دعى رجال الدين المسيحيين الجنود المسيحيين إلى الفرار من الجيش داعين أتباعهم إلى عدم حمل السلاح، والفرار نحو حياة الاستقرار والسلم بما أنّهم يدينون بدين يدعوا إلى التسامح والرأفة بالآخرين[1].

2- تهديد الديانات المسيحية للعقائد الوثنية المنتشرة في ربوع الإمبراطورية الرومانية حيث شكل انتشار هذا الدين خطرا على الوضع الديني القائم آنذاك في الإمبراطورية الرومانية حيث عارضت تعاليم المسيحية المستمدة من وحي سماوي مختلف العقائد والديانات الوثنية ذات المصدر الوضعي أي من وضع الإنسان وعلى رأس تلك العقائد العبادة الرسمية المتمثلة في عبادة الإمبراطور العبادة الأكثر انتشارًا في أنحاء التراب الروماني حيث أله الأباطرة الرومان ولقبوا بلقب الأغسطس أي الإمبراطور المؤله حيث أدرك الأباطرة الرومان أن عظمة الإمبراطورية الرومانية ستستمد من عظمة هذا الإمبراطور المؤله، وكان انتشار الدين المسيحي يعارض هذه الديانة بما أنّه يفرد العبادة في الرب وينفي عن كل مخلوق صفة الربوبية ولو كان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية[2].

3- قيام الكنيسة المسيحية كدولة داخل دولة أو كهيئة مستقلة أمر يتعارض مع الأساس الذي بنى عليه الإمبراطور نظامه وأقام عليه إصلاحاته والقاضي بخضوع جميع رعايا الإمبراطورية لسلطة الإمبراطور العليا[3].

4- أدرك الإمبراطور دقلديانوس أن توحيد الإمبراطورية الرومانية سياسيا لا يتأتى إلاّ عن طريق تحقيق الوحدة الدينية وذلك بالرجوع إلى ديانة الرومان القدماء والتي حققت أمجد أيام الرومان وكانت السبب في توسع الإمبراطورية الرومانية شرقا وغربا شمالا وجنوبا وقد أيقن دقلديانوس أن مصدر الخطر الذي يهدد الديانات الوثنية منبع قوة الإمبراطورية آت من الدعوة المسيحية التي تدعوا إلى تخلي الرومان عن دين الأجداد وإتباع الدين الجديد[4].

---

[1]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 62، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 278- 279.

[2]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 63، يوسف، ج.ن.، 2005، ص. 43.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009 ، ص. 35، الحويري، م.م.، 1995، ص. 64.

[4]- الحويري، م.م.، 1995، ص. 33، ص. 62- 64، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 33، يوسف، ج.ن.، 2005، ص. 43- 44.

هذه هي الأوضاع العامة التي سادت الإمبراطورية الرومانية أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين والتي بدأ فيها عهد قسطنطين الأول الذي مثّل عهده نقطة تحول في المجتمع الروماني بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة، وذلك بفعل الإصلاحات السياسية التي باشرها الإمبراطور قسطنطين الأول على الإمبراطورية الرومانية[1].

II- دوافع نقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى آسيا الصغرى: تعددت الدوافع التي جعلت قسطنطين يفكر في تغيير العاصمة الرومانية من روما في ايطاليا الى القسطنطينية في آسيا الصغرى منها الدافع الديني والسياسي والعسكري والاقتصادي والاستراتيجي وغيرها من الأسباب الأخرى التي دفعت سيد العالم الى القيام بتلك الخطوة التاريخية.

1- الدافع الديني:

منذ اعتراف قسطنطين وليكينيوس بمبدأ حرية العقيدة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية بعد قرارات اجتماع ميلانو في مارس 313م، وتمتع المسيحية وأتباعها بذلك الحق القانوني حيث أصبحت ديانة معترف بها في أرجاء الإمبراطورية الرومانية[2]، بدأ عقل قسطنطين في التفكير في عاصمة جديدة للإمبراطورية تلائم سياسته الدينية والتي بنى عليها إصلاحاته منذ وصوله إلى الحكم عام 306م، حيث أدرك قسطنطين أن سياسته الدينية المتمثلة في تدعيمه للكنيسة المسيحية والمسيحيين لا يمكن أن تستقيم في العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية الكائنة في مدينة روماحيث تمثل هذه المدينة مركز الحياة الروحية والدينية للديانات والعقائد الوثنية[3].

من هذا المنطلق أدرك قسطنطين أنّه من الضروري التفكير في عاصمة جديدة للإمبراطورية في جزءها الشرقي، حيث يكثر عدد المسيحيين حيث تقدر الإحصائيات بأن عدد المسيحيين قدر بعشر سكان الإمبراطورية تركز معظمهم في الأجزاء الشرقية للإمبراطورية، وهو ما

[1]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص.18- 20، ص. 35، الحويري، م.م.، 1995، ص. 33- 35، ص. 63- 64.

[2] - Lançon, B., Moreau, T., 2012, pp. 48- 50.

[3]- خياط، ي. ،2010،ص.127.

دفع إلى البحث عن مركز آخر للإمبراطورية يتركز في شرق الإمبراطورية، حيث يكثر مريدو الديانة المسيحية[1].

كانت آخر أعمال قسطنطين لصالح الكنيسة هي تأسيس روما جديدة في القسطنطينية فعل الرغم من كل جهوده على مدار 12 سنة أولى من حكمه، فقد ظلت الأرستقراطية الرومانية على ولائها وإيمانها بالآلهة الوثنية القديمة، وهو ما يهدد السياسة الدينية للإمبراطور قسطنطين القائمة على تدعيم المسيحية، ولم يكن قسطنطين من القوة والسلطة والنفوذ ما يمكنه من إجبار الأرستقراطية الرومانية الوثنية على الدخول في حظيرة الكنيسة. فأراد قسطنطين بناء عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية حتى يقلل من شأن الأرستقراطية الرومانية الوثنية التي تتركز في روما، ويعمل على بناء عاصمة جديدة يعطي لها الطابع المسيحي[2] منذ نشأتها، ويفرض توجهه وسياسته الدينية على سكان العاصمة الجديدة على اختلاف أصولهم وإنتمائاتهم الاجتماعية[3].

2- الدافع السياسي:

لقد أحدث دقلديانوس إصلاحات سياسية وإدارية غيّرت من الأوضاع السياسية التي سادت العالم الروماني، وأخرجت الإمبراطورية الرومانية من أزمة القرن الثالث، ثم جاء قسطنطين ليواصل عملية الإصلاحات السياسية التي انتهجها سلفه، غير أن طبيعة الإصلاحات السياسية التي أحدثها قسطنطينفي جسم الإمبراطورية تختلف اختلافا جوهريا عن إصلاحات دقلديانوسفقد رأى قسطنطينأن نظام السلطة الرباعية، ووجود أربعة عواصم مختلفة تدار من خلالها شؤون الإمبراطورية ليست بالسياسة الأمثل والأنجع لمعالجة مشاكل الإمبراطورية الرومانية، بل إن الحل في معالجة المشاكل السياسية يكمن في البحث عن مركز جديد للإمبراطورية تدار من خلاله شؤون الإمبراطورية الرومانية[4].

من جانب آخر لقد قيّدت سلطة الشيوخ الروماني من سلطات أباطرة العهد الإمبراطوري الأول الممتد من عهد أكتافيوس أغسطس إلى عهد دقلديانوس أي من عام (27 ق.م) إلى

[1]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.37.

[2]- الطابع المسيحي: يسود عليها العمران المسيحي، كانتور، ن. ف.، بدون تاريخ، ص.71.

[3]- كانتور، ن. ف.، بدون تاريخ، ص.71.

[4] - Bloch, G., 1922, pp.199- 200.

عام(284م)، حيث كانت العاصمة الرومانية تقع في مدينة روما المدينة المتشبعة بتقاليد المرحلة الجمهورية (509 ق.م- 27 ق.م)، من هذا المنطلق أراد قسطنطين تغيير العاصمة الرومانية من روما القديمة نحو روما جديدة ليعمل على تدعيم سلطة الإمبراطور الروماني، والعمل على إنقاص سلطة مجلس الشيوخ الروماني[1] والحد من نفوذه فيما يتعلق بسياسة الدولة لتحقيق هذا الهدف كان لابد على قسطنطين أن يفكر في تغيير العاصمة من روما في إيطاليا نحو مكان آخر، ستلعب عبقرية قسطنطين دورا في البحث عنه وإيجاده[2].

3- الدافع العسكري:

لطالما أيقن الأباطرة الرومان منذ عهد أغسطس[3] (27 ق.م- 14م) بضرورة نقل العاصمة إلى الشرق، حيث مصدر قوة الإمبراطورية، ومصدر الخطر الذي يهدد أمن الإمبراطورية آت من هذه الجهة، غير أن الفكرة بقيت حبرا على ورق ولم توضع في حيز التنفيذ إلاّ في عهد دقلديانوس (284- 305م) الذي أقام في نيقوميديا حيث زينها بعدة مبان جميلة[4].

ثم جاء الإمبراطور قسطنطين ليقوم بذلك الإنجاز التاريخي ويعمل على نقل العاصمة إلى شرق الإمبراطورية، وكان الدافع العسكري من الدوافع الأساسية التي دفعت قسطنطين إلى التفكير في نقل العاصمة نحو شرق الإمبراطورية، فقد كانت الأخطار العسكرية الخارجية التي تهدد أمن وسلامة الإمبراطورية آتية من ثلاث جبهات رئيسية كلها تقع في القطاع الشرقي من الإمبراطورية وهذه الجبهات هي الجبهة الأرمينية والجبهة الشامية والجبهة الدانوبية، ففي الجبهات الآسيوية فقد أعادت الأسرة الساسانية الفارسية إلى الإمبراطورية الفارسية النشاط والحيوية وقوتها المعتادة، وأخذ الفرس يحاولون التوسع على حساب الإمبراطورية الرومانية في حدودها الشرقية بينما على الجبهات

---

[1]- مجلس الشيوخ الروماني: هو الجهاز الذي يمثل السلطة التشريعية في العهد الروماني، سواء في المرحلة الجمهورية أو الإمبراطورية، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 44.

[2]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 44.

[3]- أغسطس: هو الإمبراطور أوكتافيوس، وهو أول إمبراطور روماني حكم الإمبراطورية وهو من وضع التشريعات السياسية والدينية الكبرى التي سارت عليها الإمبراطورية الرومانية في المرحلة الإمبراطورية الأولى الممتدة زمنيا من (27 ق.م – 284م)، توفيق، ع.ك.، 2009، ص.45.

[4]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص.45.

الأوروبية فقد شكل تحرك جيوش القبائل الجرمانية على حدود نهر الدانوب[1](Danube) خطرا على أمن الإمبراطورية وسلامتها[2].

4- الدافع الإقتصادي:

لقد انتقلت الأهمية الاقتصادية والثقل الصناعي والتجاري من غرب الإمبراطورية نحو شرقها. ولقد لعبت عدة عوامل دورا أساسيا في هذا الانتقال أولها أن العاصمة روما الواقعة في إيطاليا فقدت أهميتها التجارية وأصبحت تلعب دورا ثانويا في التجارة العالمية في ذلك العهد، ومما زاد الطين بلة هو آثار الأزمة الاقتصادية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية في غضون القرن الثالث الميلادي، والذي أضر باقتصاد الإمبراطورية خصوصا في جزءها الغربي وبدرجة أقل جزءها الشرقي، من جانب آخر غدت القسطنطينية[3]مع نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلادين ملتقى الطرق التجارية، التي تربط البحر الأسود بالبحر الإيجي، وأحد طرق انتقال القمح ما بين آسيا وأوروبا، وانتقال الحرير، التوابل، الأحجار والمعادن الثمينة، وأيضا قربها من الثورة الغابية المساعدة على صناعة السفن، كما أن شواطئ البسفور أصبحت مع مرور الوقت أحد مراكز التجارة العالمية، وأصبح الثقل الاقتصادي الصناعي والزراعي والتجاري للإمبراطورية الرومانية متركزا في شرق الإمبراطورية، لاسيما في أهم مقاطاعاته مصر، سوريا، آسيا الصغرى وأن الحركة الاقتصادية ومجلة التطور الاقتصادي فيه سارية نحو الأمام[4].

5- الدافع الاستراتيجي:

إن موقع روما القديمة إذا ما قرناه مع روما الجديدة وجدنا أن الثانية تتمتع بحصانة كبيرة مقارنة مع العاصمة القديمة، حيث أن القسطنطينية بنيت في موقع إستراتيجي حيث بنيت على

---

[1]- نهر الدانوب: هو نهر يقع في وسط أوروبا، وفي المرحلة الرومانية كان يمثل الحاجز الطبيعي الذي يفصل منطقة النفوذ الرومانية عن منطقة النفوذ الجرمانية، توفيق، ع.ك.،2009، ص.44- 45.

[2]- توفيق، ع.ك.،2009، ص.44- 45.

[3]- القسطنطينية: هي العاصمة الجديدة الإمبراطورية الرومانية والتي أسسها قسطنطين عام 330م، وفيما بعد تحولت إلى العاصمة السياسية للإمبراطورية البيزنطية منذ قرار التقسيم السياسي عام 395م، واستمرت كذلك إلى غاية الفتح العثماني عام 1453م، وحاليا هي مدينة اسطمبول العاصمة الاقتصادية لتركيا العلمانية، خياط، ي.، 2010، ص.128- 129.

[4]- خياط، ي.، 2010، ص.128- 129.

رأس داخل في البحر تحيطه المياه من ثلاث جوانب مياه خليج البسفور من الشرق، القرن الذهبي من الشمال، مياه بحر مرمرة[1] من الجنوب، أيضا إحاطتها بسور منيع من جهة البر والبحرهذا الموقع الممتازجعلها تتمتع بحصانة عسكرية كبيرة ومن الصعب على أي جيش يري أو أسطول بحري احتلالها خصوصا بالعتاد الحربي السائد في ذلك العهد، كذلك تواجدها ما بين الدانوب والشرق وهو ما يسرع سرعة انتقال الجيوش الرومانية لصد الغزوات الفارسية والجرمانية والتوغل في أراضي الأعداء[2].

6- الدافع الشخصي:

كان الدافع الذي دفع بقسطنطين إلى التفكير في إقامة عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية شخصيا على غرار ما فعل روميلوس مؤسس روما عام 753 ق.م، والإسكندر المقدوني مؤسس الإسكندرية[3].

7- من الدوافع الأخرى التي حركت إرادة سيد العالم قسطنطين إلى البحث عن عاصمة جديدة للإمبراطورية هو شعوره بعدم شعبيته في العاصمة القديمة[4]، ذلك أنّه في يوم احتفالي مهبب حيث من المفروض أن يصعد الجيش إلى الكابتول أصدر الإمبراطور أمرا يقضي بإلغاء هذا الاحتفال بطريقة استهزائية، وكان لهذا القرار الإمبراطوري[5] إهانة صريحة للديانة الوثنية، وجلب ضغينة وحقد مجلس الشيوخ والشعب، وبما أن قسطنطين لم يطق تحمل الشكاوي المقامة ضده من كل جهة، قام بالبحث عن مدينة مساوية مع روما القديمة في عظمتها حيث سيجعل مركز إمبراطوريته[6].

---

[1]- بحر مرمرة: هو بحر داخلي يقع في منطقة الحدود بين أوروبا وآسيا، وذلك في تركيا الحالية يقع بين مضيقي البسفور والدردنيل خياط، ي.، 2010، ص.128.

[2]- خياط، ي.، 2010، ص.128.

[3]- خياط، ي.، 2010، ص.131.

[4]- العاصمة القديمة: هي مدينة روما العاصمة التاريخية للإمبراطورية الرومانية والعاصمة الحالية لإيطاليا، خياط، ي.، 2010، ص.131.

[5]- القرار الإمبراطوري: القرار المتخذ من قبل إمبراطور قسطنطين عند دخوله روما في أكتوبر 312م، خياط، ي.، 2010، ص.131.

[6]- خياط، ي.، 2010، ص.131.

لقد دفعت عدة أسباب إلى رغبة قسطنطين في تغيير المركز السياسي والإداري للإمبراطورية من الغرب اللاتيني إلى الشرق الهلنستي، وهي مبررات متنوعة وأحيانا متناقضة حول هذا العمل الثوري تقريبا وذو الاعتبار الهام[1].

III- تأسيس القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية:

ما إن تفرغ قسطنطينمن مشاكله الداخلية المتمثلة في قضائه على منافسيه على حكم الإمبراطورية الرومانية وكان آخر منافس خطير هو أغسطس الشرق ليكينيوس الذي أزاحه قسطنطين من طريقه عقب موقعتي أدريانوبل وخريسوبوليس في عام 323م، الأمر الذي فتح له باب حكم الإمبراطورية منفردا[2]، حتى راح يعد العدة للقيام بإصلاحات سياسية من شأنها تحسين الأوضاع السياسية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية، وكانت الخطوة التالية لقسطنطين هي إيجاد عاصمة جديدة تسير وتدار من خلالها شؤون الإمبراطورية الرومانية[3].

فكر قسطنطين في عدّة مدن يمكن أن يقع عليها الاختيار لتكون عاصمة الإمبراطورية الجديدة، ووقع عقل قسطنطين على مدينة نيسوس(Naissus) الواقعة في مقاطعة مورافيا (Moravia) الواقعة وسط شبه جزيرة البلقان، وهي المدينة التي ولد فيها قسطنطين عام 272م[4].

ثم مال إلى اتخاذ مدينة سرديكا (Serdica)(صوفيا حاليا) ثمّ فكر في مدينة طروادة ثم راح يفكر في اتخاذ مدينة نيقوميديا عاصمة الإمبراطور دقلديانوس، ثم موضع مدينة الإسكندرية في مصر، وأثينا في اليونان وأنطاكية في الشام[5].

غير أن هذه المدن كلّها لم يقع إختيار قسطنطين عليها ولم تلق القرار النهائي، لأن قسطنطين أراد بناء العاصمة الجديدة في منطقة الحدود بين آسيا وأوروبا ليكون في موقع قوة لمراقبة وحماية حدود الإمبراطورية من غارات الأعداء شمالا عبر نهر الدانوب من قبل جحافل

---

[1]-خياط، ي.، 2010، ص.131، -Bréhier, L.,1915, "*Constantin et la fondation de Constantinople*, *Revue Historique*", 4eme année, N.119, Mai 1915, Paris, p.241.

[2]- عبد الحميد، ي.،1975، ص.98.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.345-346.

[4]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص.27.

[5]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص.27.

القبائل الجرمانية، وشرقا عبر الجبهات الأرمينية[1] والشامية والفراتية عبر جيوش الإمبراطورية الفارسية[2].

من جانب آخر يؤكد سوزومينوس مؤرخ القرن الخامس الميلادي، أن قسطنطين قد شاهد رؤيا جاءه الله وأوحى إليه بأن يبحث عن موضع آخر لعاصمة إمبراطوريته الموحدة[3].

من هذا المنطلق راح قسطنطين يبحث عن مدينة تتمتع بالمزايا الجغرافية التي تجلت في مخيلته وتلقى التأييد الرباني عن الاختيار والتشييد، لذلك كان اختيار قسطنطين على مدينة بيزنطةبعد أن تجلت له مزاياها الفائقة، بما في ذلك جمال موقعها وإستراتيجيتها[4].

كانت بيزنطة مستعمرة يونانية قديمة أسسها جماعة من الملاحين من ميجارا(Megara)عام 657 ق. م، وقبل تأسيسها وجدت مجموعة أخرى من المستعمرين الميجاريين قد تركز وجودها في مدينة خلقدونية على شاطئ البسفور[5](Bosphore) الآسيوي المقابل، وقد لجأ أولئك الذين قدر لهم تأسيس بيزنطة إلى معبد دلفي ليشير عليهم بما يراه، فأشار عليهم أن يبنوا مدينتهم في الجهة المقابلة لخلقدونية، وفي حيرة بالغة بدأ أولئك الرواد رحلتهم بحثا عن الحظ حتى وصلوا إلى الموقع المجاور للقرن الذهبي، حيث يتقابل بحر مرمرة مع البسفور، فجذبتهم روعته ومزاياه الجغرافية، واختاروه مكانا لإقامة مدينتهم، وتأكدوا أن أهل خلقدونية كانوا عميانا حقا حين أهملوا الموقع الأفضل في الجانب الأوروبي الآخر، حيث فاتهم أن يدركوا ميزة تأسيس مدينة على الشاطئ الأوروبي الغربي بدلا من الشاطئ الآسيوي الشرقي، ولذلك تمكن

---

[1]- الجبهات الأرمينية: هو مصدر الخطر الذي يهدد الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية وأرمينيا هو بلد يقع شمال شرق تركيا الحالية، توفيق، ع.ك.، 2009، ص.45.

[2]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص.27.

[3] - توفيق، ع.ك.، 2009، ص.45.

[4]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 45، Bayet, C., sans date , *L'art byzantin*, Paris, p.18-

[5] - البوسفور: هو مضيق يفصل البحر الأسود عن بحر مرمرة يقع في تركيا الحالية، الحويري،م.م.، 1995، ص.43.

الميجاريون[1] من فهم عبارة الإله، وقرروا أن يبنوا مدينتهم على النتوء البارز في المكان المعروف حاليا بأسطمبول وأطلقوا عليه اسم بيزنطة(Byzantium) تكريما وتشريفا لقائدهم بيزاس (Bysas)[2].

1- أهمية موقع مدينة بيزنطة:

تقع مدينة بيزنطة عند إلتقاء القارتين أوروبا مع آسيا، وكان يفصل أوروبا عن الجزء الجنوبي من القارة الآسيوية حوضان عظيمان من الماء، هما البحر الأسود وبحر إيجة (بحر الأرخبيل). وبين هذين البحرين تتجلى أهمية موقع بيزنطة التي لا يفصلها عن آسيا الصغرى سوى مضيقين هما مضيق البسفور والدردنيل، اللذان كانا يعرفان قديما باسم الهللسبونت ويمتد بين المضيقين مياه بحر مرمرة المغلق، ومن بين هاتين القناتين اللتين يمكن عبورهما بسهولة، يتميز مضيق البسفور بأهميته الفائقة من حيث سهولة الوصول إليه من ناحية القارتين الآسيوية والأوروبية، فهو يتمركز عند تقاطع اثنين من أعظم الطرق التجارية في التاريخ، وكان من الضروري على المسافرين أو البضائع المرسلة من إحدى القارتين إلى الأخرى أن تعبر بمدينة توجد على البسفور، كذلك كان لزاما على السفن المنعطفة بين البحر الأسود وبين البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجة أن تبحر على مقربة من مرافئه.

وإلى جانب ذلك، فقد كان للمستعمرة اليونانية بيزنطة أهمية كبيرة بفضل مصايدها الممتدة على طول شواطئها، وهكذا تمتعت بمركز تجاري مكنها من إقامة تجارة محلية مزدهرة مع قبائل منطقة تراقيا[3] المجاورة لها، كما كانت تحصل على أرباح وفوائد لا ينافسها فيه غيرها[4].

وكان للقرن الذهبي أهمية خاصة لبيزنطة، فقبل مرور مياه مضيق البسفور في بحر مرمرة يمتد هناك من الداخل إلى الشمال الغربي خليج عظيم مقوس يبلغ طوله 7 أميال يعرف في التاريخ

---

[1] – الميجاريون: هم مجموعة التجار الإغريق الذين أسّسوا مدينة بيزنطيوم الإغريقية (بيزنطة)، الحويري،م.م.، 1995، ص.43.

[2] – الحويري،م.م.، 1995، ص.43.

[3] – تراقيا: هو الإسم القديم لبلغاريا وكانت أحد أهم المقاطعات الرومانية في منطقة البلقان، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 48- 49.

[4] – يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 48- 49.

بالقرن الذهبي[1]، ويوجد بين القرن الذهبي وبحر مرمرة نتوء جبلي يشبه مثلثا متساوي الساقين له رأس مستوية مواجهة لآسيا. وفي هذا الموقع تأسست مدينة بيزنطة فكان من الطبيعي أن تتمتع بميناء ممتاز يستطيع أي أسطول مهما بلغت ضخامته أن يرسو فيه بأمان وسلامة وأصبح البحر يحميها من جميع الجوانب إلاّ من جانب واحد، وهو الجانب الغربي المواجه لقارة أوروبا[2].

كان عيب بيزنطة الوحيد هو مناخها الغير جذاب، الذي عاقها عن أن تصبح مدينة عظيمة من الدرجة الأولى كبلدة يقرب عمرها عن ألف سنة (657 ق.م- 324م). فالجو شديد الحرارة صيفا، بينما تهب خلال فصلي الشتاء والربيع رياح شمالية باردة عبر البحر الأسود قادمة من سهول الإستبس الجليدية الواقعة في روسيا[3] وشمال أوكرانيا. وكانت هذه الرياح الشمالية وتيار البسفور الشديد المتجه جنوبا يمنع السفن في أغلب الأوقات من الالتفات والدوران والوصول إلى القرن الذهبي[4].

لقد تجلت أهمية بيزنطة منذ البداية كقلعة حصينة، فقد كانت تسيطر على المدخل المؤدي إلى البحر الأسود، كما تعتبر بوابة آسيا، وقد أدرك ذلك من قبل فيليب المقدوني وابنه الإسكندرالمقدوني، وكانت تتمتع بمركز إستراتيجي ممتاز، حتى تم اعتبارها من قبل الأباطرة الرومان خطرا يهدد كيانهم، فقام بعضهم بهدر حقوقها وهدموا حصونها وقلاعها، خصوصا أيام فسباسيانوس وسبتمبيوس سيفيروس[5] وجالينوس (Gallinus) ولم تكتسب بيزنطة أهميتها الحربية الفائقة إلى في الحرب ضد أغسطس الشرق ليكينيوس عام 323م، عندما جعلها ليكينيوس[6] مركزا لحربه الأخيرة ضد زوج أخته قسطنطين الأول أغسطس الغرب. وبعد مجريات هذه الحرب تلقى

---

[1]- القرن الذهبي: هو شاطئ مدينة القسطنطينية، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 49.

[2]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 49.

[3]- روسيا: بلد يقع في شرق أوروبا وهو مستعمرة سويدية قديمة، وهو بلد أسس بفعل الغزوات النورمانية في العصور الوسطى في القرن التاسع والعشر ميلادي، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 49- 50.

[4]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 49- 50.

[5]- سيبتميوس سيفيروس: هو إمبراطور روماني من أصول إفريقية، ولد بلبدة حكم الإمبراطورية الرومانية ما بين 193 إلى غاية 211م وهو مؤسس حكم الأسرة السيفيرية التي امتد عهدها حتى عام 235م، يوسف، ج.ن.،2005، ص.50.

[6]- ليكينيوس: هو الإمبراطور الذي حكم شرق الإمبراطورية الرومانية في زمن قسطنطين (312- 323م)، يوسف، ج.ن.،2005، ص.50.

ليكينيوس هزيمة شديدة، بعدها بعث قسطنطين الإمبراطور الوحيد في الإمبراطورية الرومانية، المهندسين والمساجين في مكان المدينة وضواحيها توطئة للبدء في عملية التخطيط والبناء لتلك المدينة التي قدر لها أن تحمل اسمه وأن تعيش قرونا من الزمن[1].

ومنذ العشرينات من القرن الرابع الميلادي بدأت روما، وهي العاصمة الغربية للإمبراطورية تفقد أهميتها التي كانت تتمتع بها، وشعر الأباطرة الرومان بالحاجة إلى مركز جديد. وقد عثروا على مرادهم في مدينة بيزنطة التي تقع بعيدا عن أعين القبائل الجرمانية التي راحت تهدد أمن وسلامة الإمبراطورية الرومانية عبر الحدود من بوابة الدانوب والراين. لقد كان دقلديانوس[2] هو أول إمبراطور روماني اتجه ببصره نحو شرق الإمبراطورية عندما جعل مدينة نيقوميديا عاصمته ومركز حكمه.

أما قسطنطين فقد جعل من مسقط رأسه في بداية الأمر، وهي مدينة نيسوس مقرا لعاصمته الجديدة، ثم راح بعد ذلك إلى إعادة تعمير مدينة طروادة[3] (Troie). ولكنه عندما تبينت محاسن بيزنطة في الجوانب الحربية والتجارية، فضلا عن موقعها الجغرافي الإستراتيجي، بادر مباشرة بإقامة أساس المدينة الجديدة التي شيدها لتكون مدينة مسيحية الصبغة، حيث بإمكانه بناء كنيسة جديدة هي التي عرفت بإسم كنيسة الحكمة الإلهية التي تعد آية من آيات الفن البيزنطي خلال العصور الوسطى هذا، بينما بقيت روما مركزا وحصنا للديانة الوثنية القديمة إلى زمن غير قصير[4].

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض 43° وخط 29° وتسيطر المدينة على تلالها السبعة. ورغم بعض السلبيات التي وجدت في مناخها بفعل عوامل خارجية أشرنا إليها، فهي تتمتع بمناخ صحي معتدل وتربة خصبة ومدخلها إلى آسيا قصير المدى، والدفاع عنه سهل. كما أن مضيقي البسفور والدردنيل يعدان بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليهما أن يغلقهما في

---

[1]- يوسف، ج.ن.،2005، ص.50.

[2]- دقلديانوس: هو الإمبراطور الروماني المصلح وهو مؤسس الحكم الرباعي في روما، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 50- 51.

[3]- طروادة: منطقة في آسيا الصغرى، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 50- 51.

[4]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 50- 51.

وجه أي أسطول معاد ويفتحهما في وجه السفن التجارية، وما يتبع ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الجنوب والشمال عبر البحر المتوسط والبحر الأسود[1].

هكذا كانت الحاجة ماسة في ذلك العهد بالذات إلى إقامة عاصمة جديدة للإمبراطورية يكون مقرا هادئا للبلاط الإمبراطوري، وإلى موضع يكون أكثر صلاحية في النواحي الإدارية والعسكرية والدينية، ومن السهل الوصول إليه برا وبحرا، ويمتد إلى الأراضي المحاذية لنهر الدانوب الواقعة على الحدود، ولا يبعد كثيرا من الشرق، ويكون في نفس الوقت معقلا حصينا يمكن من خلاله ردع والتصدي لهجمات القبائل الجرمانية[2] من الشمال كل هذه الشروط التي ذكرناها توفرت في المدينة الميجارية القديمة بيزنطة، التي أدرك قسطنطين أهميتها العسكرية أثناء صراعه مع خصمه ليكينيوس كما أشرنا إلى ذلك آنفا، كما يدل ذلك أيضا على حصافة قسطنطين ونبوغه وبعد نظره[3].

2- تخطيط مدينة القسطنطينية: (أنظر مخطط رقم 2)

كثر الحديث في العصور المتأخرة أسطورة ظريفة تصور كيفية تخطيط قسطنطين لحاضرة إمبراطوريته، ومضمونها أن الإمبراطور سار ماشيا تتبعه الحاشية كلها وخط بحريته الخط الذي يجب بناء التحصينات المستخدمة وفقه، وسار قسطنطين غربا إلى ساحل القرن الذهبي وابتعد مسافة ميلين (أكثر من 2 كلم^2) من النقطة التي انطلق منها، وهي بوابة بيزنطة القديمة ازداد تعجب حاشيته، وأخبروه أنه ابتعد كثيرا، إلا أن قسطنطين أجابهم قائلا:« سأسير في طريقي حتى يرى الدليل الخفي الذي يسير أمامي أنه من المناسب وقوفي»، وواصل الإمبراطور في المشي حتى أصبح على بعد ثلاثة أميال (أربعة كيلومترات) من الزاوية الشرقية لبيزنطة، ولم يعد أدراجه

[1]- عمران، م.س.، 2006 أ، ص.50.

[2]- القبائل الجرمانية: هي القبائل التي كانت تستوطن منطقة قلب أوروبا وكانت تهدد أمن وسلامة الإمبراطورية الرومانية عبر الحدود في منطقة الدانوب والراين، على غرار قبيلة القوط بشقيها الغربي والشرقي، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 51.

[3]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 51.

حتى أدخل في تخطيطه التلال السبعة التي تضمها الجزيرة الممتدة بين بحر مرمرة والقرن الذهبي[1].

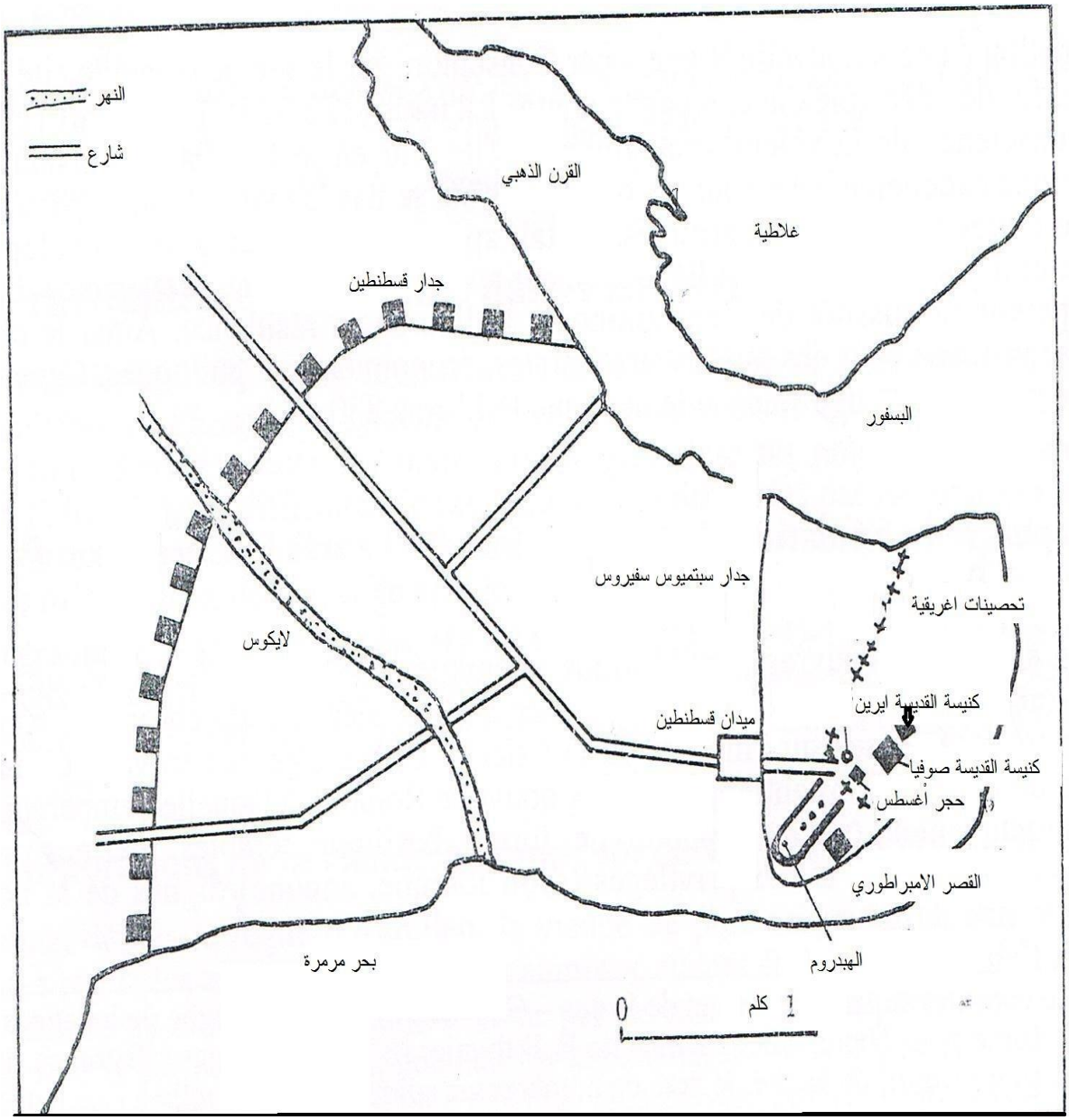

مخطط رقم 2 :مدينة القسطنطينية عام 330م.

Bertrandy, f., Demarole, J.M., Rémy, B.,1998, p.20.،بتصرف الطالب.

[1]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 29.

وقدم أومان[1](Oman)، تخطيطا دقيقا وواقعيا عن تخطيط المدينة، إذ أشار إلى أن قسطنطين اختار الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة بيزنطة القديمة ليبني عليه قصره الإمبراطوري. وأحاطه بالملاجئ والحدائق المبهجة، ووقع الاختيار على الأرض المرتفعة الواقعة خارج أسوار المدينة القديمة، لتكون سوقا للعاصمة، وإلى الشمال الغربي من القصر كانت تمتد الساحة المستطيلة الشهيرة، ويبلغ طولها ما يساوي ألف قدم وعرضها ثلاثمائة قدم[2].

وغطيت أرضيتها بالرخام الأبيض الذي نقل من محاجر الجزر البحرية كقبرص وكريت[3] وأحيطت تلك المساحة من جميع جوانبها بالمنشآت الثقافية الكبيرة وأسست لتكون مركزا لعموم أفراد الشعب، وغدت بعد ذلك قلب القسطنطينية، وسميت تلك الساحة بساحة أغسطس تخليدا لذكرى هيلانة والدة الإمبراطور بصفتها أوغسطة(Augusta) العظيمة، وأبقى قسطنطين على الحمامات الكبرى الواقعة بين ساحة أغسطس والقصر الإمبراطوري التي كانت موجودة أصلا ومبنية على الطراز الروماني القديم، وإلى جانب الحمامات إلى الشمال وبالتحديد شرقي ساحة أغسطس حدد مكان مبنى مجلس الشيوخ وتم تزيينه بالتحف الثمينة وتماثيل الآلهة[4].

وإلى الغرب من ساحة أغسطس أمر قسطنطين ببناء الملعب الكبير الهبدروم(Hippodrome) الذي يبلغ طوله 640 ذراع وعرضه 60 ذراع، وأصبح هذا الملعب مركزا عاما للنشاط الرياضي والاجتماعي والسياسي في العاصمة. وكان يحتوي على مقصورة الإمبراطور أو ما يعرف باسم الكاثيسمه(Kathisma)، وبه عرش للإمبراطور ويطل منه الإمبراطور على شعبه في الاحتفالات العامة، ومن الطريف أن نؤكد أن الهبدروم قد زين بمسلة فرعونية، أحضرت من مصر، وبتحف فنية أخرى أحضرت من مناطق كثيرة، مثل الثعبان النحاسي ذي الرؤوس الثلاثة الذي صنع لهيكل دلفي بمناسبة انتصار الإغريق على الفرس في موقعة بلاتيه الشهيرة عام 479 ق.م[5].

---

[1]- أومان: مختص في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 29.

[2]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 29.

[3]- كريت: جزيرة تقع في شبه جزيرة اليونان، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 29.

[4]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 29.

[5] - توفيق، ع.ك.، 2009،ص.47.

وشيد قسطنطين الأكبر كنيسة كبيرة شيدها وسط المدينة سميت كنيسة الحكمة الإلهية وهي شمالي الملعب مباشرة[1] ، وقد زالت معالم الكنيسة وبنيت على أنقاضها كنيسة سانت صوفيا[2] (SaintSophia) ومن بابها الغربي كان يمتد رواق خشبي يمر عبر الساحة ويصل عند باب القصر الإمبراطوري. ومن هذا الطريق كان الإمبراطور يمر ليصل إلى الكنيسة لتأدية الفروض الدينية[3].

وإلى الشمال من مجلس الشيوخ، بني قصر البطريق وهو اللقب الذي أعطي لأسقف بيزنطة فيما بعد عندما رفع إلى مرتبة إخوانه في أنطاكية والإسكندرية وكان مسكن البطريق رائعا وجميلا، إلاّ أن القصر الإمبراطوري تجاوزه حسنا وروعة. وفي ذلك تعبير واضح على سمو سلطة الإمبراطور على سلطة البطريق منذ إعلان قسطنطين أن الإمبراطور هو الرئيس الديني الأعلى للكنيسة، ولعل قسطنطين قد رأى في بناء هذا المسكن حيث يكون البطريق قريبا منه، بحيث يمنعه على الحصول على نفوذ مستقل، وتفويت الفرصة له لتأسيس سلطة روحية مستقلة تواجه الحكومة المدنية كما كان الحال لأسقف روما[4].

وعلى طول السور الشرقي الخارجي للملعب عند الحافة الغربية لساحة أغسطس كان يوجد صف من المعابد الصغيرة والتماثيل. وقد ارتفع عدد هذه التماثيل فيها بعد حين أصبحت تمتد على طول الساحة[5].

وقد وقعت الأحداث الهامة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية بين القصر والهبدروم وكنيسة سانت صوفيا[6].

إضافة إلى ذلك، كانت المدينة تمتد إلى الشمال والغرب عدة أميال، ووجدت منشآت هامة في كل مكان، وإن لم تصل في جمالها وروعتها إلى تلك المجموعة من المباني المقامة حول

---

[1]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 30.

[2]- سانت صوفيا: كنيسة تقع في مدينة القسطنطنية، يوسف، ج. ن.، 2005، ص.53.

[3]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص.53.

[4]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص.53.

[5]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص.52-53.

[6]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 53.

ساحة أغسطس، ومن المباني الموجودة التي ينبغي في هذا المقام ذكرها والإشارة إليها، يجب أن نذكر مخازن الحبوب والغلال والبوابة الذهبية وقصر الحاكم العسكري[1].

وقد امتازت العاصمة الرومانية الجديدة بشوارعها الجانبية الضيقة التي لم يكن عرضها يزيد عن الثلاثة أمتار. كما اشتهرت منازلها بشرفاتها البارزة وسلالمها الخارجية فزادت من ضيق الشوارع. وكذلك السور الدائر بالمدينة الذي عمل على توسيعه الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني(TheodosiusII)(408-450م)، في القرن الخامس الميلادي وأعاد هرقل (Heraclius) (610- 641م) توسيعه في القرن السابع الميلادي[2]، وكان الأباطرة البيزنطيون يضيفون إلى منشآت المدينة مباني جديدة خلال القرون المتعاقبة على غرار كنيسة أيا صوفيا(Hagia Sophia) التي بنيت على أنقاض سانت صوفيا وذلك في عهد الإمبراطور جستنيان الأول (Justinian I) (527- 565م)[3].

استمر العمل في بناء روما الجديدة على أنقاض مدينة بيزنطة الإغريقية ستة سنوات (8 نوفمبر 324م إلى 11 ماي 330م)، ففي عام 324م وضع قسطنطين حجر الأساس لبناء العاصمة الرومانية الجديدة، وأحضر متطلبات التشييد والبناء من العمال والمواد، وأحضر آثارا من روما وأثينا والإسكندرية وأفسوس وأنطاكية، ووضع تحت الخدمة جنده من القوط الغربيين(Visigoths)الذين يطلق عليهم اسم المحالفين(Foederati) في بناء العاصمة وتجميلها وزخرفتها، وبلغ عدد هؤلاء الجنود 40 ألفا، كما سخر قسطنطين طاقة جميع الخبراء[4].

انتهت أشغال بناء العاصمة الرومانية الجديدة بتاريخ 11 ماي 330م، وأحتفل بافتتاح المدينة بصورة رسمية، وقد شارك الحرس الإمبراطوري وهو يرتدي أثمن الثياب ويحمل الشموع المضاءة، ومن أمامهم عربة من عربات القصر تحمل تمثال الإمبراطور الذي صنع بأمره من

[1]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 53.
[2]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 53.
[3]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص.30.
[4]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

الخشب المموه بالذهب، واستمرت الاحتفالات والأفراح أربعين يوما، وبذلك عدت سنة 330م[1] نقطة بداية التاريخ البيزنطي عند فئة من المختصين المهتمين بالتاريخ البيزنطي، وتم تحصين المدينة بالأسوار، وبني القصر ومجلس الشيوخ والمدارس العامة والجامعة والكنائس والمكتبات والدور، وتم تقسيم العاصمة إلى أربعة عشر حيا اثنان منها خارج السور[2].

وسميت المدينة الجديدة بأسماء عدة ففي العهد الروماني والبيزنطي سميت روما الجديدة، القسطنطينية، مدينة قسطنطين والأستانة[3] أو أستن بولن أو دار الملك أو إسطنبول أو المدينة العظيمة كما يسميها المسعودي، وبعد الفتح الإسلامي العثماني عام 1453م، سميت إسلام بول، دار السعادة، الدار العالية[4].

ظلت القسطنطينية لمدة عشر قرون عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في النواحي السياسية والاقتصادية والحربية والحضارية، وكانت مركز حياتها العقلية والكنسية، فضلا عن أنها كانت عاملا عظيم القدر والأهمية في العلاقات الدولية ورسم ملامح السياسة العالمية والتطور السياسي والاقتصادي والعلمي والعسكري والحياة الدينية[5].

لا توجد إحصائيات دقيقة لعدد سكان العاصمة أيام مؤسسها قسطنطين، إلا أن التقديرات تشير إلى حوالي 200.000 نسمة أغلبهم من المتحدثين باللغة اليونانية[6] وأنّها بلغت في مطلع القرن السادس الميلادي حوالي نصف مليون نسمة[7].

عمل الإمبراطور قسطنطين على إقامة سياسة حكومية من شأنها جعل عاصمة حاضرته مدينة آهلة بالسكان والحركة، فقام بدعوة عددا من رجال مجلس الشيوخ الروماني وعددا من

---

[1]- 330م: هي السنة التي انتهت فيها أشغال تشييد القسطنطينية ويعتبرها بعض المختصين في التاريخ البيزنطي بداية عمر هذه الحضارة، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

[2]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

[3]- الاستانة: الإسم الذي تعرف به القسطنطينية في العهد العثماني، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28، Jones, A.H., - 1964, *The later romain empire 284-602*, Vol.I , Oxford, p.83.

[4]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

[5]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

[6]- اللغة اليونانية: اللغة السائدة في مدينة القسطنطينية، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

[7]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 28.

الأثرياء من أهل الولايات من بلاد اليونان وآسيا الصغرى ليسكنوا فيها، وأوكل إليهم مناصب في مجلس شيوخه الجديد،وأعطاهم المساكن، ثم أن الضباط والجنود وموظفي البلاط وأتباعهم كانوا هم أيضا يكونون عنصرا مهما من سكان المدينة الجديدة. كذلك وفد إلى القسطنطينية الآلاف من التجار والصناع وأهل الفن وغيرهم من المهاجرين الذين أغرتهم الامتيازات العديدة التي منحت من قبل الإمبراطور قسطنطين لسكان مدينته الجديدة[1].

عمل قسطنطين على إعطاء الطابع المسيحي لعاصمته الجديدة القسطنطينية والعمل على إلغاء كل ما يرتبط بالتاريخ والإرث الوثنيومع مرور الوقت لعبت العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية دورا أساسيا في الانتقال التاريخي للإمبراطورية الرومانية من إمبراطورية وثنية نحو إمبراطورية مسيحية، وزاد عدد أتباع الديانة المسيحية في حاضرة قسطنطين وعاصمة حكمه وتجلى التوجه المسيحي للمدينة من خلال مجموعة من الكنائس الكبيرة على غرار كنيسة السلام المقدس (Pax Sacra) وكنيسة سانت صوفيا وكنيسة الرسل الإثناعشر، وهكذا بدت القسطنطينية المكان الأمثل لروما المسيحية المنافسة لروما الوثنية[2].

لم يغب عن بصيرة حصيف مثل قسطنطين أنه من الضروري أن تكون لروما الجديدة من الأهمية ما يجلب إليها من السكان من مختلف أنحاء الإمبراطورية، وأنه يجب أن يعيش بها شعب روماني (Populus Romanus) راق وميسور الحال وأوضاعه الاجتماعية جيدة، يتمتع بامتيازات خاصة تميزه عن غيره من الشعوب، حتى يشعر السكان أنهم يعيشون في مجتمع عظيم لبلد عظيم، ولهذا أصدر قسطنطين أوامره بإعفاء الناس من الضرائب، أي سن سياسة ضريبية جديدة مشجعة على العيش في القلب الجديد للإمبراطورية الرومانية في مدينة القسطنطينية، بل إنه قرر تقليد روما القديمة بضمان الخبز والتسلية لعامة الشعب أو ما يعرف بالغوغاء (Plebs)، ومن ثمّ أصبح من حق كل فرد من الغوغاء أن يتسلم من مخبز المدينة التابع للدولة خبزا طازجا، كما كان

[1]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 54.

[2]- الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 451.

يعطى له مخصصات غذائية مجانية مثل اللّحوم والزيت والنبيذ موفرا كل أسباب مجتمع الترف الخرافي[1].

وبفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها قسطنطين الأول في تعمير عاصمة ملكه الجديدة هاجر إلى روما الجديدة عدد من أثرياء الإمبراطورية وأرباب الثراء، بل وهاجر إليها شطر كبير من سكان روما القديمة إلى المدينة الموعودة تاركين الماضي بتراثه وإرثه الحضاري يترودهم الأمل في البحث عن مستقبل جديد، وأخذت الثروات تتدفق على القسطنطينية من مختلف المدن الإمبراطورية مع حشود وجموع المهاجرين الذين أغرتهم المشاريع الخيالية التي قام قسطنطين بتنفيذها أو وعد بها، وعلى مرور الزمن اتسع نطاق المدينة بسبب التدفق المضطرد عليها من المهاجرين الجدد ويقال أن عدد القصور التي تم بناؤها فيما بعد بلغ الأربعمائة، كما بلغ عدد الحمامات العامة ما يقرب من مائة وخمسين حماما، وبقيت العاصمة الجديدة للكيّان الروماني مدينة القسطنطينية مركزا للحضارة الرومانية الإغريقية المسيحية ومؤسسة لفن وفكر جديد عرف بالحضارة البيزنطية (La Civilisation Byzantin) إلى أن وضع السلطان العثماني محمد الفاتح حدا لنهايتها بعد فتحه لمدينة القسطنطينية عام 1453م[2].

والأمر الملاحظ أن العاصمتين روما على ضفاف نهر التيبر في إيطاليا والقسطنطينية الواقعة على ضفاف مياه البسفور في آسيا الصغرى ظلتا جزءا من إمبراطورية الرومان الموحدة التي تمكن قسطنطين من إتمام توحيدها عام 323م، وكان لكلتا المدينتين قنصل يجري اختياره كل عام[3].

وتلتقي في كثير من أوجه التشابه روما القديمة مع روما الجديدة نظرا لحرص قسطنطين على إعطاء الصبغة الرومانية القديمة لحاضرة إمبراطوريته الموحدة، لأن قسطنطين لم يهدف إلى اتخاذ هذه المدينة عاصمة جديدة لإمبراطورية جديدة إذ ليست القسطنطينية إلا عاصمة جديدة للإمبراطورية القديمة، ومع أن المؤرخين رأوا من باب التسيير أن يطلقوا على الجزء الشرقي للإمبراطورية، الذي لم يسقط بيد القبائل الجرمانية، والذي عاش حتى عام 1453م، اسم الدولة

[1]- الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 452.

[2]- الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص. 452- 453.

[3]- العريني، س.ب.،1968، *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، بيروت، ص. 78.

البيزنطية، إذ أن شعب القسطنطينية الذين يتحدثون اليونانية كانوا يعرفون بالروم، ويطلق على بلادهم اسم بلاد الروم، واشتهرت كنيستهم حتى اليوم باسم كنيسة الروم الأرثوذكس[1].

كانت نقطة الخلاف بين روما الجديدة و روما القديمة في أنّه لم توجد بروما الجديدة تقاليد وثنية، والمفروض ألا يرتكز في محيطها معابد وثنية باعتبارها مدينة مسيحية منذ البداية. كما أنها لم تحظى ما اشتهرت به روما القديمة من التقاليد الجمهورية فالقصر الإمبراطوري[2] كان من أهم مظاهر روما الجديدة، وجرى تصميمه على أن يثير الخوف والرهبة، وفي القرنين الأول والثاني الميلاديين كان أباطرة الرومان يعتزون بأنهم ليسوا إلاّ مواطنين وجهاء وذو خطوة بروما القديمة غير أنه منذ القرن الثالث الميلادي أخذ الأباطرة الرومان يعملون على جعل الإمبراطورية الرومانية صفة شرقية فراحوا يحضرون في المجتمعات، وقد اتخذوا التاج المرصع بالجواهر ولبسوا الملابس والثياب الفاخرة المطرزة بالذهب. وكرهوا استقبال أهل المدينة، ومن ينعم بنعمة المثول أمامهم، لابد أن يركع أمام أقدامهم، وراح الأباطرة على شاكلة دقلديانوس إلى أن يعيشوا بعيدا على العاصمة في بعض الأماكن على غرار مدينة نيقوميديا، فلما تأسست القسطنطينية عام330م عاد الأباطرة الرومان حاملين بلاطهم وأفراد حاشيتهم معهم إلى العاصمة الجديدة[3].

على أن أكبر نقطة اختلاف بين روما القديمة وروما الجديدة، هو أنا روما القديمة تعد العاصمة الأصلية والتاريخية للإمبراطورية الرومانية، ومنها أسس الكيان الروماني[4] عام 753 ق.م، ومن جانب آخر تعد روما القديمة منبع الإمبراطورية، ومركز سلطتها السياسي والعسكري والديني والاقتصادي، وفيها تعيش أكبر فئة سكانية في ربوع الإمبراطورية الرومانية[5].

بينما كان تأسيس روما الجديدة لتحقيق أهداف حيوية أمست من متطلبات العصر للاستقرار بالنسبة للإمبراطورية الرومانية فروما الجديدة عبارة عن حصن كائن في موقع إستراتيجي بالجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية، على الشاطئ الغربي للبسفور في الضفة الأوروبية من آسيا

---

[1]- العريني، س.ب.،1968، ص. 78.

[2]- القصر الإمبراطوري: هو القصر الذي أقامه قسطنطين في عاصمته الجديدة، العريني، س.ب.،1968، ص. 78.

[3]- العريني، س.ب.،1968، ص. 78.

[4]- الكيّان الروماني: الحضارة الرومانية، العريني، س.ب.، 1968، ص.78-79.

[5]- العريني، س.ب.، 1968، ص.78-79.

الصغرى، عند مدخله إلى بحر مرمرة، فأصبح يتحكم في حركة المرور بين أوروبا وآسيا، ومن البحر الأسود إلى البحر المتوسط، ويعد قاعدة للجيوش التي تشحن منها الإمدادات في حدود الإمبراطورية مع الإمبراطورية الفارسية الساسانية ومع القبائل الجرمانية على طول ضفاف نهر الدانوب من الشمال. وتعتبر أيضا القسطنطينية قاعدة بحرية، يتم بفضلها السيطرة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وبنيت روما الجديدة وأحيطت بأسوار عالية ومنيعة لتصمد أمام أي نوع من الحصار سواء كان بحري أو بري وقد حققت القسطنطينية هذا المطلب وظلت كقلعة صامدة حتى عام 1453م، باستثناء فترة نصف قرن، بداية من عام 1204م بعد سقوطها بيد البنادقة[1].

وبعد وفاة قسطنطين الأول عام 337م تجلت أهمية مدينة القسطنطينية أنّها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى زماننا الحالي[2].

3- العناصر المشكلة لمدينة القسطنطينية:

لقد كان من المؤكد أن تختلط في العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية مدينة القسطنطينية عناصر الإمبراطورية، التي تم إعادة تنظيمها، وهي: التراث، والحضارة الرومانية والدين المسيحي، فقد أسست المدينة على سواحل تتحدث باليونانية، وأصبحت موطنا للعلم والفن والحضارة اليونانية، ولم يغفل قاطنوها عظمة تراثه اليوناني، وأصبحت اللغة المتداولة في أرجائها هي اللّغة اليونانية بعد تراجع اللاّتينية وانقراضها. ولكنها من جانب آخر كانت مدينة رومانية فكانت اللّغة اللاّتينية لمدة تتجاوز القرنين أي إلى مطلع القرن السادس الميلادي، لا تزال هي لغة العلم والفكر لمقاطعات البلقان[3].

وكان سكانها هم الشعب الروماني، وقد تمتعوا بكثير من الحقوق والامتيازات التي عمل قسطنطين على منحها لعاصمته الجديدة، ولذلك كانت القسطنطينية هي روما الجديدة أو روما

---

[1]- العريني، س.ب.،1968، ص. 78- 79.

[2]-عاشور،س.ع.ف.،2009،ص. 26، Buruy, B.,1923, *History of the later romain empire from the death of Theodosius I to the death of justinian*,Vol. I , London, p.67 .

[3]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 54.

الثانية. ولقد أعطت روما القديمة الإمبراطورية الجديدة بالعديد والكثير من نظرياتها الإدارية وقوانينها وتقاليدها الحربية[1].

وكان العنصر الثالث المكون لمدينة القسطنطينية هو الدين المسيحي، فقد أسست القسطنطينية لتكون عاصمة مسيحية للإمبراطورية الرومانية، وأخذ الشرق يغزو العالم الروماني بآرائه الصوفية، وكان الفرد في القسطنطينية على وعي بتراثه اليوناني والروماني. غير أن رؤيته للحياة كانت مغايرة، فكان أقل استمتاعا بالحياة، ووجه فكره نحو الفلسفات والعلوم الأدبية والتقنية وكان أكثر تهيئا لاستقبال الأفكار الآتية من الشرق، ويعد تاريخ الإمبراطورية البيزنطية هو فترة من الزمن صبغت فيه التقاليد الإغريقية الرومانية بصبغة شرقية[2].

خلاصة القول أن العوامل الجديدة التي نشأت منها الإمبراطورية البيزنطية كانتبيزنطية الأصل لا إغريقية ولارومانية[3].

وفيما يخص هذا الموضوع أيضا، فقد جلب إليه اهتمام وبحث الكثير من المؤرخين والمختصين الأجانب الباحثين في التاريخ البيزنطي، يقول رانسيمان[4](Runciman) في كتابه «الحضارة البيزنطية»، «وحتى في القرن الخامس عشر، ناقش رجال القسطنطينية طبيعة حضارتهم. فهم الرومانيون، فهل كانوا أيضا هلينيين؟ وقد أعطاهم الرد على ذلك آخر وأعظم رجال الإمبراطورية، وهو جورج سكولاريوس جناديوس، حينما قال: ومع أني هلليني بلغتي، إلا أنني لا أقول أبدا أني هلليني، لأني لا أعتقد فيما يعتقد فيه الهلينيون. ومع أن عاش في تساليا فإني لا أسمي نفسي تساليا، إنّما بيزنطيا لأني من بيزنطة، ويمكن أن نأخذ بهذا الرأي، ونسمي الحضارة الرومانية من تلك العناصر بيزنطة»[5].

أما المؤرخان بينز(Baynes)وموس (Moss) فيقولان في كتاب"بيزنطة": «على الرغم من تحمس البيزنطيين في أن يعلقوا على أنفسهم الرومانيين، وفي أن يدعوا لأنفسهم بتقاليد مستوحاة

---

[1]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 54.

[2]-يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 54 - 55.

[3]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 55.

[4]- رانسيمان:مختص في التاريخ البيزنطي، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 55.

[5]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 55.

من الإرث الروماني، إلاّ أن ثقافتهم كانت يونانية خالصة،ولم يقم المشرع ليبانيوس (Libanius) بدراسةلاتينية العناصر المبررة في القرن الرابع الميلادي، ضف إلى ذلك لم يقم بتعليمها، وعلى الرغم من أن ثيودوسيوس الثاني[1] عيّن عام 425م مدرسين لاتين وإغريق في جامعته في القسطنطينية، إلاّ أن عدد الإغريق فاق عدد اللاّتين، ثم أن جستنيان، ولو أنّه أصدر باللاّتينية مجلة أحكامه والنظم الخاصة بالقانون الروماني، إلاّ أنه كتب تشريعاته المتأخرة باللّغة اليونانية حتى يمكن تفهمها بسرعة ويسر»[2].

أما المفكر باركر (Parker) فقد بيّن في كتاب «الفكرالاجتماعي والسياسي في بيزنطة» أن أصل الإمبراطورية الرومانية، وظل مواطنوها ورعاياها لقرون طويلة يعرفون أنفسهم باسم الرومانيين (Romain)، وكان العنصر الروماني في فترة حكم جستنيانI وطيلة القرن السادس الميلادي لا يزال بارزا، إذ سعى الإمبراطور جستنيان إلى إستعادة الغرب اللاّتيني[3] مكانته، وقام بتشريع القوانين التي ارتكزت عليها أمن ونظام الإمبراطورية باللغة اللاّتينية. ولكن مع مر الزمان أصبح العنصر الروماني عنصرا يونانيا رومانيا. وكان القانون أثناء حكم الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث (LeoIII)(717- 741م) يدون بالخط اليوناني، كما كان طلاب العلم يتحدثون عن التشريع الروماني المتأغرق. وقد تحول هذا الخليط اليوناني الروماني في آخر الأمر، إلى يوناني خالص ومبسط[4].

من هذه المعطيات يمكن أن نستخلص ممّا سبق أن العوامل الجديدة التي ولدت وترعرعت فيها مدينة القسطنطينية يصبح أن تسمى بيزنطية لا إغريقية ولا رومانية حسبما أسلفنا من قبل، وأن اللغة اللاّتينية وحضارتها بدأت في الأفول وأخذت تزول تدريجيا من الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية لتأخذ مكانها وتحل محلها اللغة اليونانية[5].

---

[1]- ثيودسيوس الثاني: إمبراطور بيزنطة (408- 450م)، يوسف، ج. ن.، 2005، ص.55 - 56.

[2]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص.55 - 56.

[3]- الغرب اللاّتيني: الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية الذي يغلب عليه التراث اللاّتيني، يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 56.

[4]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 56.

[5]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 56.

وهكذا غدت مدينة قسطنطين تلقب بحق بروما الجديدة، وأصبحت رمزا للإمبراطورية الناهضة التي كانت في أمس الحاجة إلى مقومات الدول، فكان من اللاّزم والحيوي وجود جيش متأهب للحرب وحماية حدود الإمبراطورية من الأخطار الخارجية، كما وجب على جميع الطبقات مواصلة نشاطها. ولزم توفير اليد العاملة وفي سبيل ذلك ألزم الأبناء باتخاذ حرف أبائهم، بمعنى أن مختلف الحرف والصناعات أصبحت متوارثة. وأدرك قسطنطين ضرورة توفير المواد الغذائية بإعتبارها من المسائل الحيوية، ولضمان ذلك أصدر مرسوما إمبراطوريا (Un Edit Impériale) يعمل على ربط المزارعين بالأرض التي يفلحونها، وإتخذ الوسائل الضرورية التي تحول دون فرارهم من الأرض. وأجبرهم على القيام بواجباتهم، ولو أدى الأمر إلى معاملتهم معاملة الرقيق (عبيد الأرض). ويمكن القول بأن هذا المرسوم يعد من الأسباب التي مهدت الطريق لنظام العبودية الذي تحول عبر القرون التالية إلى ماسمي بنظام الإقطاع (Le Système Feodale)[1].

4- النظام الحكومي في العاصمة الجديدة:

إن تأسيس عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، من الأسباب الأساسية في تأسيس حكومة جديدة للنظام الإمبراطوري الجديد الذي أحدثه قسطنطين في جسم الإمبراطورية، وقد تشكلت الهيئة الإدارية الحاكمة في الحكومة الجديدة من عدّة موظفين يندرجون تحت ثلاث فئات متميزة:الأولى البارزون[2](Illustrious)، والثانية المبجلون[3] (Respectable) والثالثة الموقرون[4](Honorable)، وفي عهد البساطة الرومانية كان هذا اللّفظ الأخير بمثابة شرح غير مفهوم عن الرعاية أو التكريم، حتى تحول إلى لقب يميز أفراد السناتوعن غيرهم من الموظفين، ثم بعد ذلك لما اختير من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني لحكومة الأقاليم[5].

---

[1]- يوسف، ج. ن.، 2005، ص. 56.

[2]- البارزون: فئة من الموظفين في هيكلة الحكومة الجديدة التي أقامها قسطنطين في عاصمته الجديدة، جيبون، إ.،بدون تاريخ، ص. 358.

[3]- المبجلون: فئة أخرى من الموظفين في هيكلة الحكومة الجديدة، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 358.

[4]- الموقرون: فئة أخرى من الموظفين في الحكومة الجديدة، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 358.

[5]- جيبون، إ.،بدون تاريخ، ص. 358.

أمّا لقب المبجلون فقد تشكل من الذين يتميزون في سلم الوظائف الإمبراطورية، كطبقة وسطا بين الولاة البارزين وحكام الولايات الموقرين. وكان للبروقنصل في آسيا وآخيا (ولاية إغريقية) وإفريقيا مركز ممتاز في طبقة المبجلين، وهو مركز منح بفضل ذكرى مكانتهم السابقة وكان استئناف أحكامهم إلى محاكم الولاة البريتوريين هو الرمز الوحيد لتبعيتهم أو إشارة إلى عدم استقلالهم.

أما لقب البارزون فقد احتفظ به دائما للشخصيات الرفيعة القدر الذين كانوا موضع احترام الطائفتين الثانية والثالثة وطاعتهما، وكان هذا اللقب يطلق فقط على (أ) القناصل والنبلاء (البطاركة) (ب) رؤساء الحرس البريتوري[1] والوالي في كل من روما والقسطنطينية (ج) والقائد العام لكل من الفرسان والمشاة (د) نظار القصر السبعة الذين مارسوا مهامهم المقدسة إلى جوار شخص الإمبراطور. ولم يكن لأسبقية التعيين أي اعتبار طالمت تماثلت الوظائف. وعمد الأباطرة الذين أرادوا الإكثار من خلصائهم المقربين، إلى إعطاء البراءات الشرفية كوسيلة لإرضاء غرور رجال البلاط القلقين، ولو لم يحققوا أهدافهم[2].

أ- **القناصل والبطاركة (النبلاء)**:كان القنصلان الرومانيان في العهد الجمهوري للحضارة الرومانية (509- 27 ق.م) بمثابة السلطة التنفيذية في الإدارة الرومانية إلى جانب مجلس الشيوخ الذي مثل السلطة التشريعية لكن مع بداية العهد الإمبراطوري في روما منذ عهد الإمبراطور أكتافيوس أغسطس تغير دور القنصل الروماني مع تغير الأوضاع السياسية للكيان الروماني، ولقد ظل القناصل ينتخبون بالاقتراع العام الحقيقي أو الشكلي في السناتو[3]، طالما تفضل الأباطرة بعدم التدخل في انتخاب القنصل. ولقد ألغيت منذ عهد دقلديانوس تلك الحرية في عملية انتخاب القنصلين الجديدين للعام الجديد. وقام المرشحون الناجحون الذين كانوا يفوزون بشرف الوظائف القنصلية عام بعد عام بالتظاهر بأنهم يرثون إرث المهام القنصلية التي تهاوت أهميتها بعد أن تردى إسلافهم لمرتبة الذل والتهاوي. فقد شهد التاريخ هوان أسرتي سكبيو وكاتو إلى التماس

[1]- الحارس البريتوري: الحرس الإمبراطوري، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.358،ص. 364.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.358،ص. 364.

[3]- السناتو: مجلس الشيوخ الروماني، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 358- 359.

أصوات العامة، وكانوا يعانون من طريقة الانتخابات الشعبية المملة الباهضة التكاليف، ويعرضون مكانتهم الاجتماعية وكرامتهم للخزي والعار إذا أبى الشعب أن يصوت عنهم، من هذا المنطلق كان التدخل المباشر للإمبراطور في اختيار القنصلين الجديدين هو ماحفظ ماء وجه تلك الطبقة في الجهاز الإداري الحاكم. وقد أعلن الإمبراطور صراحة في الرسائل التي وجهها إلى القنصلين المنتخبين، أنهما من صنع سلطانه ويده هو وحده. وصنعت لوحات مذهبة من العاج نقش عليها اسماهما وصورتاهما ووزعت على الإمبراطورية هدية إلى الولايات والمدن والحكام والسناتو والشعب[1].

وجرى الاحتفال المهيب بتنصيبهما في القصر الإمبراطوري، وحرمت روما لمدة مائة وعشرين عامامن حكامها القدامى، وفي صباح اليوم الأول من يناير من كل عام كان القناصل يتسلمون شعارات مناصبهم، وكان لبساهم عبارة عن رداء أرجواني موشي بالحرير والذهب، محلى أحيانا ببعض الجواهر الثمينة. وكان يسير في ركابهم في هذه المناسبة المهيبة كبار موظفي الدولة ورجال الجيش في زي أعضاء السناتو، ويتقدمهم ضباط يحملون شعارات هي عبارة عن قضبان مخزومة على بلطة، وكانت هذه يوما مخيفة مروعة، وكان الموكب يسير من القصر الإمبراطوري إلى الساحة أو الميدان الرئيسي في المدينة، حيث يصعد القنصل إلى مقره ويجلس في مقعده الفاخر المثلث القوائم المصنوع على الطراز الكلاسيكي القديم، ومن ثم يمارس على الفور عملا من المهام الموكلة إليه، وهو أن يعتق عبدا كان يمثل أمامه لهذا الغرض، وهذا لون من الطقوس قصد به تمثيل عمل بروتس(Brutes) الأكبر المشهود منشئ الحرية، ومؤسس وظيفة القنصل[2]. وتستمر الاحتفالات العامة لعدة أيام في جميع المدن الرئيسية: بحكم العرف والعادة في روما والتقليد والمحاكاة في القسطنطينية، وحبا في الأعراس والبهجة نظرا لوفرة الفن والثراء في قرطاجة[3] وأنطاكية والإسكندرية.

---

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 358- 359.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ ، ص. 359.

[3]- قرطاجة: عاصمة المقاطعة الإفريقية الرومانية القديمة (Africa Vitus) منذ قرار التقسيم الذي أوجده يوليوس قيصر منذ عام 46 قبل الميلاد، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 359- 360.

وقدرت تكلفة ألعاب المسرح والسيرك والمدرج في عاصمتي الإمبراطورية أربعة آلاف رطل من الذهب، أي ما يساوي مائة وستين ألف جنيه إسترليني، فإذا تجاوزت هذه النفقات الباهظة قدرة القناصل أو حدود مشيئتهم دفع المبلغ من الخزانة الإمبراطورية، وإذا انتهى القناصل من هذه الواجبات التقليدية المتكررة أضحوا أحرارا في الركون إلى ظل حياة خاصة لينعموا طوال بقية العام بأن يتمتعوا فيما يحيط بهم من سمو مكانة وجلال عظمة دون أن يعكر عليهم أحد صفوهم فاستقالوا من رئاسة المجالس الوطنية أو تقرير حالة الحرب والسلم، ولم يكن لمواهبهم وقدراتهم كبير القيمة (إلاّ إذا امتهنوا وظائف أكثر أهمية وفعالية) ولم يكن لأسمائهم من فائدة إلا في تحديد الموعد القانوني للسنة التي كانوا قد ملئوا فيها الكرسي الذي كان يشغله ماريوس وشيشرون[1] على أنه ظل من الأمور المحسوسة المعترف بها في أواخر عهد العبودية الرومانية أن هذا اللقب الأجوف قد يقارن بالمنصب الذي يؤهل صاحبه إلى الوصول إلى التحكم في السلطة الفعلية، بل قد يفضل عليه. فقد ظل لقب القنصل ووظيفته محط الأنظار وهدف الأطماع وأوفى مكافأة وعربون وفاء للسيرة الحسنة والإخلاص، بل إن الأباطرة أنفسهم، أولئك الذين اختفوا الظلال الباهتة للجمهورية الرومانية، كانوا يدركون كل الإدراك أنهم إنما يحظون بمزيد من الجلال والعظمة حين يفوزون كل عام بأمجاد منصب القنصل[2].

ولا يمكن أن يوجد في أي عصر أو بلد أدق وأكثر زهوا بين النبلاء والشعب من هذا التفريق الذي كان قائما بين النبلاء والعامة في أول عصور الجمهورية الرومانية[3]، حيث كانت الثورة والمجد ووظائف الدولة والطقوس الدينية تكاد تكون مقصورة قصرا تماما على الأولين الذين احتفظوا بنقاوة دمائهم بأشد الحقد المسيء، وبذلك أبقوا أتباعهم في حالة من الرق[4] ولكن القناصل قضوا بجهودهم المتواصلة، وبعد صراع طويل على هذه الفوارق التي لا تتناسب مع روح شعب حر... فتجمع أفراد الطبقة العامة الذين تحسنت أوضاعهم الاجتماعية، ومع مرور الزمن أصبحوا

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 359- 360.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 360.

[3]- الجمهورية الرومانية: مرحلة من مراحل التاريخ الروماني (509- 27 ق.م)، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 360.

[4]- الرق: مشتق من كلمة الرقيق، أي تجارة العبيد، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 360.

يشكلون طبقة اجتماعية منافسة للطبقة الأرستقراطية خالقين مجتمع الترف الذي كان حكرا على النبلاء[1].

أما أسرات النبلاء، من جهة أخرى تلك التي لم يحص عددها حتى نهاية عصر الجمهورية والتي فشلت في المحافظة على مركزها الاجتماعي في حالة الأمن، أو تعرضت للإبادة في الحروب الخارجية والداخلية العديدة، أو بسبب افتقارها إلى الموهبة والحظ، فإنها اختلطت، دون أن تشعر بجمهرة الشعب، وبقي منها عدد ضئيل جدا يمكن أن يرجع بعرقه النقي الأصيل إلى تأسيس مدينة روما عام 753ق.م[2]، أو حتى إلى نشأة الجمهورية، أو مع فجر العصر الإمبراطوري حين خلق يوليوس قيصر وأغسطس وكلوديوس وفسباسيانوس أعضاء من أسرات بطاركة جديدة لمجلس الشيوخ الروماني، يحدوهم الأمل في تثبيت نظام ظلوا يعتبرونه شرفا مقدسا، ولكن سرعان ما اكتسح بطش الطغاة، والانتفاضات العديدة وتغير السلوك واختلاط الأمم، اكتسح هذه الأسرات المصنوعة (التي كان البيت الحاكم في تعدادها دائما) ولم يبق من ذلك عند اعتلاء قسطنطين العرش، سوى تقليد غامض مشوه يقول بأن النبلاء هم أسلاف الرومان[3]. وكان من الجائز ألاّ يلتئم مع شخصية قسطنطين وسياسته، تكوين هيئة من النبلاء يكون لها من تأثيرها ونفوذها ما يقيد من سلطة الإمبراطور ويعمل على تدعيمها من جانب آخر، لكن لو أنه تبنى جديا مثل هذه الخطة لما كان في تلك المكانة، بجرة قلم أو بأمر عال حاسم، أن يقر نظاما لابد لترسيخه من عامل الوقت وتحضيرا للأفكار. والواقع أن لقب البطاركة (أي النبلاء) أحيي بوصفه امتيازا شخصيا لا لقبا ولا وراثيا، ولم يسبقهم في علو المنزلة إلا القناصل[4] الذين اقترنت مناصبهم السنوية بهذا التفوق العابر، ولكن النبلاء فيما دون ذلك سموا فوق جميع كبار الموظفين في الدولة ولم يكن بينهم وبين شخص الأمير حجاب قط، وكانوا يمنحون هذه المنزلة الممتازة لمدى العمر. ولما كانوا عادة من المقربين، ومن الوزراء الذين بلغوا أواخر العمر في البلاط الإمبراطوري فقد فسد الاشتقاق أو

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 360.

[2]- عام753 ق.م: السنة التي أسست فيها مدينة روما، العاصمة التاريخية الإمبراطورية الرومانية والتي تقع في إيطاليا على ظفاف نهر التيبر، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 360.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 360.

[4]- القناصل: جمع قنصل، وهو الذي يمثل السلطة التنفيذية في الحكومة الرومانية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 361.

الأصل الحقيقي للكلمة بفعل الجهل والرياء، وحظي بطاركة القسطنطينية بالإجلال والاحترام على أنهم "الآباء" المختارون للإمبراطور والدولة[1].

ب- رؤساء الحرس الإمبراطوري (البريتوري):

كانت حظوظ رؤساء الحرس تختلف اختلافا جوهريا عن حظوظ القناصل والبطاركة، فقد رأى البطاركة عظمتهم القديمة تذوب في لقب عقيم وأجوف، أما القناصل الذين صعدوا تدريجيا من أدنى درجات السلم أو هيكلة الوظائف الإمبراطورية، فقد أوكل إليهم بالإدارة الفنية والعسكرية في العالم الروماني، فمنذ فترة حكم سيفيروس إلى عهد دقلديانوس أصبح الحرس الإمبراطوري والقصر الإمبراطوري وإصدار القوانين والأموال، والجيوش والولايات[2] تحت إشرافهم ورعايتهم، فأمسكوا بيد خاتم الإمبراطورية وباليد الأخرى علمها شأنهم في ذلك شأن وزراء الشرق. وكانت فرق الحرس الإمبراطوري تعزز طمع رؤسائهم القناصلة، الذي كان تارة مخيفا وتارة مميتا، بالنسبة للسادة الذين هم في خدمتهم وطاعاتهم. ولكن لما أضعف دقلديانوس شوكة هذه الفرق المتغطرسة. وقضى عليها قسطنطين بعد اجتياحه روما في أكتوبر عام 312م، هبط من بقي من قادتهم، دون صعوبة، إلى مرتبة الحكام المدنيين، واستقالوا من مهامهم الطبيعية المتمثلة في حماية شخص الإمبراطور وتخلوا عن الولاية أو السلطة التي كانوا قد ادعوها ومارسوها، حتى ذلك العهد، على كل إدارات القصر وأقسامه، وحرمهم قسطنطين من القيادة العسكرية حالما انقطعوا عن قيادة زهرة القوات الرومانية إلى ميدان المعركة بناءا على أوامرهم الخاصة، وفي نهاية الأمر تحول قادة الحرس، إلى حكام مدنيين في الولايات[3].

وطبقا لخطة الحكم التي قام بوضعها دقلديانوس، كان لكل واحد من الأمراء الأربعة رئيس لحرسه الإمبراطوري. ولما وحّد قسطنطين الإمبراطورية منذ عام 323م[4]، ظل محافظا ومواصلا

---

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 361.

[2]- الولايات: هي المقاطعات الإدارية الرومانية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.361.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص.361.

[4]- عام323م: السنة التي حقق فيها قسطنطين الإنتصار على ليكينيوس أغسطس الشرق، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 362.

بعد برؤساء الحرس الأربعة وعهد إلى كل واحد منهم أمر تسيير الولايات التي كانوا يعملون فيها وكان تقسيم المهام على النحو التالي:

1- رئيس حرس ولايات الشرق:

وامتدت دائرة اختصاصه على ثلاثة أجزاء المعمورة التي كانت خاضعة للحكم الروماني من شلالات النيل إلى ضفاف فاسيس ومن جبال تراقيا إلى الحدود مع فارس.

2- رئيس حرس ولايات وسط الإمبراطورية:

وامتدت دائرة نفوذه على الولايات الهامة والإستراتيجية على غرار بانونيا[1] وداسيا ومقدونيا[2] واليونان والذي كان يدير شؤون هذه الولايات من مركزه في الليركيوم.

3- رئيس حرس ولايات الإمبراطورية في إيطاليا وما جاورها من ولايات: وأدار هذا الرئيس مركز الإمبراطورية الرومانية في إيطاليا بالإضافة إلى راشيا حتى ضفاف نهر الدانوب وعلى الجزر التابعة للحكم الروماني في البحر المتوسط، وذلك الجزء الممتد في الولاية الرومانية الإفريقية الممتد من مشارف برقة شرقا وحدود تينجيتانيا (Tingitania) أو موريطانا غربا.

4- رئيس حرس ولايات غرب الإمبراطورية:

والذي تكفل بإدارة ولايةغالة التي كانت مركز حكمه حتى أنه يعرف باسم رئيس حرس ولاية غالة بالإضافة إلى الولايات المجاورة على غرار جنوب بريطانيا وإسبانيا والبرتغال وموريطانيا[3].

ولقد تم استبعاد رؤساء الحرس الإمبراطوري عن الإشراف على القيادة في الجيش بصفة كلية، حيث كانت المهام التي وكلت إليهم في الأمم الخاضعة تتناسب مع آمال أقدر الموظفين ومواهبهم، فقد عهد إلى حكمتهم بمهمتين ساميتين هما الجانب القضائي والشؤون المالية،وهما الموضوعان اللذان يستنفذان أيام السلم جهود الإمبراطور والشعب، ففي الأولى أي القضاء يحمون المواطنين الذين يخضعون للقانون، وفي الثانية يجمعون من أموالهم القدر اللازم لمساهمتهم في

[1]- بانونيا: هي أحد المقاطعات الشمالية للإمبراطورية الرومانية الواقعة في شبه جزيرة البلقان على ضفاف نهر الدانوب هي المجر وجزء من جمهورية التشيك، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 362.

[2]- مقدونيا: مقاطعة رومانية تقع شمال اليونان، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 362.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 362.

مصاريف الدولة. وكان هؤلاء الرؤساء البريتوريون بفضل سلطانهم يوفرون العملة وتعبيد الطرق والبريد ومخازن المحاصيل الزراعية ومختلف النشاطات الصناعية وغير ذلك مما يحقق الرفاهية للجميع، وخول لهم باعتبار أنهم ممثلون للجلالة والعظمة الإمبراطورية أن يفسروا مضامين القرارات والمراسيم الإمبراطورية ويعملوا على تنفيذها، وفي بعض الأحيان يعدلوا المراسيم الإمبراطورية[1]، بما يصدرون من بلاغات أو إعلانات وفق مقتضيات الظروف[2].

كما حرصوا على مراقبة سلوك حكام الولايات فقاموا بعزل المهملين منهم وقاموا بمعاقبة المذنبين منهم، وكان يستأنف أمام محكمة الرئيس البريتوري كل ملف قضية ذات أهمية مدنية كانت أو جنائية التي كانت من اختصاص الهيئات الداخلة في دائرة ولايته الشرعية. وكان الحكم الصادر منه نهائيا حاسما، بل إن الأباطرة أنفسهم أبوا أن يقبلوا أية شكوى ضد حكم أو نزاهة هؤلاء القضاة الذين كرموهم بمثل هذه الثقة الغير محدودة، وكانت مخصصاته متناسبة مع مكانته أما إذا امتلك الجشع قلبه، فما أكثر ما استمتع بالفرص لنهب قيمة طيبة من المرسوم والهدايا والمبالغ الإضافية، وعلى الرغم من أن الأباطرة[3] لم يصبحوا يخشون طمع هؤلاء رؤساء الحرس الإمبراطوري، فإنهم حرصوا على إيجاد شيء من التوازن لمواجهة قوة هذا المنصب العظيم، عبر وسيلة عدم التثبت من مدة شغله وقصر هذه المدة[4].

وتم استثناء كل من روما والقسطنطينية وحدها لأهميتها ومكانتها الخطيرة من ولاية الرؤساء البريتوريين، وبعد مرور ثلاثين عاما من تأسيس القسطنطينية عين للمدينة المؤسسة حديثا محافظ شبيه بهذا الذي كان في روما، لنفس الأغراض وبمثل هذه الصلاحيات، وسوى في المرتبة بين المحافظ (رئيس البلدية) وبين الرؤساء البرويتوريين[5].

---

[1]- المراسيم الإمبراطورية: جمع مرسوم أي القوانين الامبراطورية أو القرارات الامبراطورية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 362.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 362.

[3] - الأباطرة: جمع إمبراطور أي قائد باللغة اللاّتينية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 363.

[4] - جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 363.

[5] - جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 363- 364.

جـ- قادة الفرسان والمشاة:

في عهد الإمبراطور دقلديانوس كان هذا المنصب من صلاحيات الإمبراطور حيث كان دقلديانوس القائد الأعلى للجيش والإشراف على كل شؤونها الحربية،ومن جانب آخر عمد هذا الإمبراطور إلى إصلاح النظام الإداري الروماني وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية، وقد اقتفى قسطنطين أثر السياسة التي وضع أساسها سلفه دقلديانوس بصورة أبعد أثر وظهرت هذه التفرقة واضحة في كم الولايات، إذ أصبح حاكم الولاية مسئولا عن شؤونها الإدارية فحسب، في حين وكلت للقائد[1](dux) مهمة الإشراف على النواحي الحربية في ولاية أو أكثر من ولاية من ولايات الإمبراطورية[2].

د- وزراء القصر السبعة:وإلى جانب الحكام والذين مارسوا سلطاتهم المخولة إليهم في الولايات والجيوش، بعيدا عن البلاط الإمبراطوري، منح الأباطرة مرتبة البارزين لسبعة من أقرب موظفيه الذين وكل إليهم لأمانتهم وإخلاصهم أمر سلامته وتقديم المشورة إليه وإدارة أمواله[3].

1- تولى شخص عزيز أثير شؤون الجناح الخاص في القصر، وكان يسمى بلغة ذلك العصر (Praepositus) أي حاجب المخدع المقدس (الأمين الخاص)، وكانت المهمة الموكلة إليه أن يلازم الإمبراطور في ساعات عمله أولهوه، ويؤدي لشخص الإمبراطور كل الخدمات الحقيرة التي تستمد بهاءها إلاّ من الملكية، وكان الحاجب العظيم (وقد نسميه كذلك)، مع الأمير الجدير بالملك، خادما نافعا ذليلا، ولكنه خادم داهية، يتحين كل مناسبة لما وضع فيه من ثقة عالية ليجد له إلى العقلية الضعيفة منفذا تجده الحكمة الجافة أو الفضيلة الصارمة، ورفع أحفاد ثيودسيوس[4] المنحلون، وكانوا محتجبين عن أنظار رعاياهم محتقرين في أعين أعدائهم، رفعوا حجاب مخادعهم فوق هامات سائر الحجاب في القصر بل الأدهى من ذلك أن نائبه الذي لم يعد أن يكون على

---

[1]- القائد: هو المسؤول عن الجهاز العسكري، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 21، ص. 24.

[2]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 21، ص. 24.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 367.

[4]- ثيودسيوس: هو الإمبراطور الذي قسّم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي عام 395م، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 367- 368.

رأس موكب الواقفين رهن الإشارة كان يسبق في مرتبة البروقنصل[1] "المبجل" في بلاد اليونان أوفي آسيا، وكان ثمة اثنان من الملاحظين يحملان لقب "كونت" يشرفان على مناط الأبهة والعظمة والترف في القصر فتولى أحدهما أمر خزائن الملابس الملكية، وعهد إلى الثاني بتحضير المائدة الإمبراطورية وكانا يأتمران في هذه المهمة الخطيرة بأمر حاجب المخدع وينفذان تعليماته[2].

2- وعهد بالإدارة الرئيسية للشؤون العامة إل رئيس الديوان وكان الحاكم الأعلى في القصر يتفقد النظام ويعمل على مراقبة الفرق المدنية والعسكرية، ويتلقى الاستئناف من مختلف أنحاء الإمبراطورية في قضايا هذا الجيش الكثير من الأفراد أصحاب الامتيازات، الذين كسبوا لأنفسهم ولأسرتهم، بوصفهم خداما في البلاط الإمبراطوري[3]، حق عدم الانصياع إلى سلطان القضاة المدنيين، وكانت المكاتب الأربعة أو بالأحرى مكاتب وزير الدولة هذا، تتولى أمر المراسلات بين الأمير ورعاياه. وكان المكتب الأول مختص بالمذكرات والتقارير الرسمية، والثاني بالرسائل والثالث بالعرائض والملتمسات، والرابع بالوثائق والأوامر من شتى الأنواع. وكان يدير كلا من هذه المكاتب رئيس أدنى مرتبة من فئة "المبجلين"، وكان يقوم على هذه العملية كلها مائة وثمانية وأربعون سكريتيرا أو كاتبا معظمهم من رجال القانون نظرة لكثرة ما يصادفهم في عملهم من الحاجة إلى تلخيص التقارير وإلى المراجع. وثمة تنازل ربما اعتبر غير جدير بالجلالة الرومانية في العصور الأولى، ذلك هو تعيين سكرتير خاص للغة اليونانية. وعين مترجمون لاستقبال سفراء البرابرة على غرار الجرمان، ولكن إدارة الشؤون الخارجية، التي تمثل زاوية جوهرية في السياسة الحديثة، قلما جذبت انتباه رئيس الديوان، فقد كان تفكيره منصرفا إلى توجيه البريد وإدارة الترسانات في الإمبراطورية التي كانت تضم أربعا وثلاثين مدينة، منها خمس عشر في الشرق وتسع عشر في الغرب، وفيها جمع من العمال تمتهن صناعة أسلحة الدفاع، وأدوات الهجوم من مختلف الأنواع والآلات الحربية التي كانت تودع الترسانات، وتنقل عند اللّزوم إلى الميادين لتستخدمها الفرق[4].

---

[1]- بروقنصل: هو حاكم مختلف المقاطعات الرومانية، ويتمتع بسلطة عسكرية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 367-368.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 367- 368.

[3]- البلاط الإمبراطوري: هو المكان الذي فيه عرش قسطنطين ووزرائه، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 368- 369.

[4]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 368- 369.

3- وطرأ على مدى تسعة قرون، تطور غريب في وظيفة "الكوستر" (Quaestor) أي الصراف أو الموظف المالي، ففي القرون الأولى للكيان الروماني كان الشعب يختار كل عام موظفين صغيرين لمساعدة القنصل في مهامه، منها مهمة إدارة الأموال العمومية[1]، وعين لهذا المقصد كذلك مساعد لكل بروقنصل أو رئيس تولى القيادة العسكرية أو الإدارة الفنية في الولاية وتضاعف عدد هذين الموظفين الماليين بالتدرج، نتيجة التوسع في أراضي الإمبراطورية، إلى أربعة، ثم إلى ثمانية، ثم عشرين وربما إلى أربعين وذلك في فترة وجيزة. وتطلع أشرف المواطنين إلى وظيفة تحضر لهم مقعدا في مجلس الشيوخ الروماني، وتعلقوا من ورائها بالأمل الصادق في الاستفادة بأمجاد الدولة. وفي الوقت الذي تظاهر فيه أغسطس بحماية حرية الانتخاب تراه يقبل عن طيب خاطر الامتياز الذي اختصوه به، وهو أن يوصي في كل عام، أو على الأرجح أن يعين عدد محددا من المرشحين، وكان من عادته أن يتخير أحد أولئك الشبان من الممتازين ليقرأ خطبه أو رسائله في مجالس الشيوخ الروماني وسلك خلفاء أغسطس نفس مسلك الأخير، وتحولت المهمة الطارئة الموقوتة إلى وظيفة دائمة، وأطلق على شاغلها لقب "كوستر" وهو الوحيد ذو الخطوة الذي اتخذ شخصية جديدة أكثر لمعانا، وبقي بعد إلغاء وظائف زملائه القدامى العقيمين[2].

ولما كانت الخطب التي يكتبها "الكوستر" باسم الإمبراطور قد اكتسبت قوة المراسم النافذة واكتسبت آخر الأمر صيغتها، فقد اعتبر هذا الموظف ممثل السلطة التشريعية، ومهبط الوحي في المجلس والمصدر الأصلي للتشريع المدني[3]، وكان يدعى أحيانا إلى حضور جلسات القضاء الأعلى في المجمع الإمبراطوري بين الرؤساء البريتوريين ورئيس الديوان ويطلب إليه أن يقطع بالرأي فيما يعجز عن حله صغار القضاة، ولما لم يكن مرهقا بأية مهام ثانوية، فقد شغل وقت فراغه ووظف مواهبه في ابتداع ذلك الأسلوب الرفيع المنمق من الفصاحة التي حفظت للقوانين الرومانية جلالها وروعتها، رغم فساد الذوق واللّغة[4].

---

[1]- الأموال العمومية: أموال الدولة، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 369.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 369.

[3]- التشريع المدني: القوانين المدنية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 369.

[4]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 369.

وانقسمت الحكومة المدنية في الإمبراطورية إلى ثلاث عشر وحدة إدارية كبيرة كانت كل منها تعادل في الحقيقة مساحة مملكة قوية، وكانت أولى هذه الوحدات من اختصاص حاكم يسمّى كونت(Count) الشرق. ويمكن أن نعمل على تكوين فكرة عن خطورة شأن مهامه وتنوعها إذا لاحظنا أن ستمائة من العاملين الذين يمكن تسميتهم بلغة الحاضر سكرتارية أو كتبة أو حجابا أوحملة الرسائل، كانوا يعملون في مكتبه، ولم يعد منصب الوالي الإمبراطوري على مصر يشغل بأي فارس روماني، ولكن احتفظ بالاسم فقط، أمّا السلطات غير العادية التي كانت يوما ما، والتي جعل منها مركز الولاية المصرية، فقد كانت من اختصاصات عمل المحافظ. أما الوحدات الإحدى عشر المتبقية آسيا الصغرى، بونتيكا[1] (بنطس)، تراقيا، ثم مقدونيا، داسيا، بانونيا أو المعروف باسم الليريكوم الغربية، ثم إيطاليا وافريقيا، ثم غالة واسبانيا وجنوب بريطانيا فكان في كل منها نائب للوالي. ويمكن القول بأن نواب قادة الجيش الروماني والكونتات والأدواق العسكريين[2].
الذين كانوا كذلك يتمتعون بمكانة ولقب "المبجلين"[3].

ولما طفت روح الحقد والتباهي على جلسات الأباطرة، ثابروا في شغف زائد على توزيع السلطة ومضاعفة عدد ألقابها ومزقت شر ممزق، بطريقة غير محسوسة، تلك الأقطار الكبيرة التي كان الفاتحون الرومان قد وحدوها في ظل شكل بسيط واحد من أشكال الحكم، حتى انقسمت الإمبراطورية بصفة نهائية إلى مائة وستة عشر ولاية، عمل على إدارة كل منها جهاز إداري مكلف من الناحية المالية، تختلف ألقاب من يتولون الحكم فيها: ففي ثلاث منها كان لقبه "البروقنصل" وفي سبع وثلاثين كان "القنصل"، وفي خمس كان يعرف بكركتور(Corrector) وهو طراز من الموظفين كان يتولى الحكم في المدن الحرة نشأ لأول مرة في عهد أغسطس، وفي إحدى وسبعين ولاية كان يدعى "الرئيس"، وهكذا تحددت تسميات هؤلاء الحكام، وتدرجت مراتبهم البعض فوق بعض، كما اختلفت شعارات هذه المراتب بشكل غريب، ولم تكن فرصهم على نفس المستوى، في الارتياح إلى هذه المراكز أو الاستفادة منها، بل تأرجح هذا وذاك صعودا وهبوطا تبعا للظروف

[1]- بونتيكا: منطقة في آسيا الصغرى، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 364.

[2]- الأدواق العسكريين: جمع دوق، وهي رتبة في الجيش الروماني، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 364.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 364.

المستعجلة، ولكن كانوا جميعا (باستثناء البروقنصل) يندرجون تحت طبقة "الموقرين"[1]، وأوكل إليهم جميعا في حالة رضا الأمير وتحت سلطة الولاة ونوابهم (أو بتوكيل أو تفويض منهم) بشؤون القضاء والمال كل في نطاق اختصاصه، وأن المجلدات الضخمة للتشريعات[2] والفتاوي لتزود الباحث المدقق بمادة غزيرة عن نظام الحكم في الولايات ذلك النظام الذي تناولته بالتهذيب والتنقيح على مدى ستة قرون أيدي رجال السياسة والقانون من الرومان[3]. وقد يكتفي المؤرخ بنصين فريدين نافعين قصد بهما الحد من سوء استغلال السلطة:

1- تسلح حكام الولايات بسيف العدالة قصد المحافظة على الأمن والنظام، وأنزلوا العقوبات البدنية، وحكموا بالإعدام في الجرائم الكبرى، لكن لم يكن من حقهم أن يسمحوا للمحكوم عليه باختيار الطريقة التي ينفذ بها الحكم أو بصدور الحكم بالنفي مهما كان الحكم خفيفاأو مشرفا. فقد احتفظ بهذه الامتيازات للوالي الذي كان له وحده أن يفرض غرامة ثقيلة قدرها خمسون جنيها ذهبا، أما نائبه فقد انحصرت مهامه في فرض غرامة يسيرة لا تعدو بضع أوقيات من الذهب. وكان هذا التفريق الذي يبدو أنه يخول القدر الأكبر من السلطة، على حين ينكر القدر الأيسر منها مبنيا على أساس معقول، ذلك أن هذا القدر الأيسر على التحقيق، أكثر عرضة للاستغلال السيئ، فكثيرا ما سولت الأهواء لحاكم الولاية ممارسة الظلم التي تصيب الرعايا في حريتهم وفي أرزاقهم، عل حين يداخله الرعب، بدافع الروية أو الشعور بالإنسانية، من احتمال وزر الدم البريء. كذلك يمكن اعتبار النفي أو الغرامات الكبيرة أو الميتة السهلة، تتصل أكثر ما تتصل، بصفة خاصة بالأغنياء والبطاركة[4] (النبلاء)، وبهذه الطريقة أو بحكم هذا النص، ينقذ من الاضطهاد الخفي لحاكم الولاية أولئك الأشخاص الذين هم أكثر عرضة لجشعه أو سخطه، وينتقل التصرف في شأنهم إلى محكمة أكثر مهابة وتجردا هي محكمة الوالي الإمبراطوري[5].

---

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 364- 365.

[2]- التشريعات: هي القوانين، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 365.

[3]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 365.

[4]- البطاركة: هم القناصلة من طبقة النبلاء والنبالة في روما تستمد من الأصل أي مختلف القبائل المنتمية إلى مدينة روما، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 365- 366.

[5]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 365- 366.

2- وكانوا يخافون خشية أن ينحرف القاضي عن جادة النزاهة مصلحته أو ميوله، ولهذا صدرت التعليمات المشددة باستبعاد أي موظف من حكومة الولايات التي ولد فيها، دون إجازة خاصة من الإمبراطور، كما حرم على الحاكم وابنه الزواج من مواطنة أو مقيمة في الولاية أو شراء العبيد والأراضي والبيوت في نطاق ولايته[1].

ورغم هذه الاحتياطات الشديدة، ظل قسطنطين بعد حكم دام خمسا وعشرين سنة ينعى الرشوة والجور في الجهاز القضائي، ويعبر عن استيائه الشديد من أن نظر القاضي للدعوى وسرعة تصرفه فيها أو تأجيله لها، ثم حكمه النهائي، كل ذلك كان يشترى ويباع إما بطريق مباشر أو عن طريق موظفي محكمته، وأن تكرار القوانين غير الرادعة والتهديدات غير المؤثرة لينهض دليلا على المضي في مثل هذه الجرائم دون محاسبة أو عقاب[2].

وكان كل الحكام المدنيين من رجال القانون، فقد فتحت معاهد جستنيان[3] أبوابها لشباب الإمبراطورية الذين وهبوا أنفسهم لدراسة الفقه الروماني، ويبدي الإمبراطور كرمه تحفيزا لإدارة الشباب، فيؤكد لهم أنه سيجزيهم أحسن الجزاء نظير مهارتهم وكفايتهم نصيبا وافرا في حكومتهوكانت أصول هذا العلم المربح تدرس في كل حواضر الإمبراطورية الكبرى في الشرق والغرب ولكن أشهر مدرسة له كانت في بيروت على الشاطئ الفينيقي[4]، وقد ازدهرت لأكثر من ثلاثة قرون، منذ زمن الإسكندر سيفيروس[5] (Alexandre Severus) (223- 235م) الذي أسس معهدا كان كثير النفع لبني وطنه، وكان الطلبة بعد دراسة منظمة مدتها خمس سنوات فيه يضربون في الولايات سعيا وراء الثروة والمجد، وما كان ليكبح جماح إرادتهم العمل في إمبراطورية مترامية الأطراف عمل على إفسادها تعدد القوانين، وكثرة المفاسد والرذائل. وكانت محكمة الوالي الإمبراطوري في الشرق كافية وحدها لإيجاد عمل لمائة وخمسين محاميا، تفرد أربعة وستون منهم

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 366.

[2]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 366.

[3]- جستنيان: هو الإمبراطور الثاني الذي حكم بيزنطة من أسرة جستنيان التي دام حكمها ما بين (518 إلى غاية 584م)، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 366.

[4]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 366.

[5]- الإسكندر سيفيروس: آخر أباطرة الأسرة السيفيرية الإفريقية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 366-367.

بمزايا خاصة، وأتخير من بينهم اثنان آخران بمرتب قدر بستين جنيها ذهبا للدفاع في قضايا الخزانة، وجرى أول اختبار لمواهبهم القضائية بتعيينهم ليزاولوا علمهم باعتبارهم مساعدين للحكم ومن هنا كانوا يرافعون في مجالسها، وتولوا مناصب الحكم في الولايات، ثم صعدوا بفضل جدارتهم أو شهرتهم أو حظوتهم، خطوة خطوة، إلى أعلى مناصب الإمبراطورية، وصنفوا في سلم الوظائف الإمبراطورية في فئة "البارزين"[1]، واعتبر هؤلاء الرجال قوة الإدراك أو العقل أداة المقارعة في ساحة القضاء، وقاموا بشرح وتحليل وتفسير القوانين وفق مصالحهم الشخصية، وربما لازمت العادات الوبيلة أخلاقهم في مجال إدارة شؤون الدولة. والحق أن المحامين القدامى والحديثي العهد الذين شغلوا أهم المراكز بنزاهة خالصة وحكمة بالغة، قد رفعوا من شأن المهنة الحرة، غير أن التدرج العادي للمحامين في عهد اضمحلال الفقه الروماني اقترن بأبلغ الضرر والعار. فقد وقعت المهنة الشريفة التي ظلت إرثا مقدسا للنبلاء، وقعت بين أيدي المعتقين والعامة الذين اتخذوا منها خبثا لا استحقاق، تجارة فخرية وسيئة. وطرق بعضهم أبواب الأسرات للقيام بإشعال نار المنازعات وتشجيع القاضي وجلب المغانم لأرواحهم ولإخوانهم. ونبغ بعضهم في أماكنهم، ولبسوا لباس أساتذة القانون[2]، وقاموا بتزويد زبائنهم الأغنياء بأحذق الحيل لتشويه أوضح الحقائق، وبالحجج لتزييف أشد المزاعم بطلانا. وتألفت الطبقة العالية المقام المشهورة من المحامين الذين امتلأت الساحة وضجت بفصاحتهم التي تتسم باللّغو والثرثرة والمبالغة. ولم يقيموا وزنا للشهرة أو العدالة، ووصموا في أغلب الأحوال بأنهم أذلاء جهلة جشعون، قادوا زبائنهم وعملائهم في تيه من النفقات والإبطاء وخيبة الأمل، حتى إذا كاد ينفذ صبرهم وثروتهم عبر مرور السنين، كان نتيجة ذلك الطرد ورفض الدعاوي[3].

[1]- جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 366-367.

[2]- أساتذة القانون: واضعي التشريعات القانونية الرومانية، جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 367.

[3]-جيبون، إ.، بدون تاريخ، ص. 367.

إن الإصلاحات السياسية التي مارسها قسطنطين على الإمبراطورية الرومانية والتي تمثلت في تغيير العاصمة التاريخية للإمبراطورية الرومانية من روما القديمة عل ضفاف نهر التيبر[1] في إيطاليا نحو روما الجديدة (القسطنطينية) على ضفاف مضيق البسفور في آسيا الصغرى[2]من العوامل الأساسية التي أعطت الحياة من جديد لجسد الإمبراطورية الذي تضرر بشدة من جراء أزمة القرن الثالث الميلادي، وقد بدأ دقلديانوس مهمة إنقاذ الإمبراطورية منذ أواخر القرن الثالث، وجاء قسطنطين ليواصل عملية الإصلاحات، حيث أننا نجد من الصعب الفصل بين أعمال هذين الإمبراطورين[3]، وعند الحديث عن تأسيس القسطنطينية في ثلاثينات القرن الرابع الميلادي نبرز أهمية الخطوة التي قام بتنفيذها الإمبراطور الأغسطس[4] قسطنطين، حيث أن تدشين عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية في الجهات الشرقية لها أحدث تغييرات جوهرية على الأوضاع الحضارية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية، فمنذ ذلك العهد أصبحت الإمبراطورية بسمات شرقية مسيحية، مبتعدة عن أصولها الغربية الوثنية[5].

[1]- نهر التيبر: هو نهر يقع في وسط إيطاليا وعلى ضفافه أسست مدينة روما، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 24.

[2]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 24.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 13، ص. 24.

[4]- الأغسطس: لقب يطلق على إمبراطور روما يفوق مرتبة القيصر، كانتور، ن.ف.، بدون تاريخ، ص. 72.

[5]- كانتور، ن.ف.، بدون تاريخ، ص. 72.

الفصل الرابع:
تأثير إصلاحات قسطنطين الأول الدينية
على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية

الفصل الرابع: تأثير إصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية.

1-التأثير المباشر لإصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية أثناء عهده.

2- أثر إصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع بعد وفاته.

كان للإصلاحات الدينية التي أحدثها قسطنطين الأول على الإمبراطورية الرومانية تأثيرات عميقة على الأوضاع الدينية التي عاشها العالم الروماني خلال حياة الإمبراطور قسطنيطن وبعد وفاته، فقد شهد الكيان الروماني تغيرات جذرية في هذا الجانب الديني في حياة الإمبراطورية فهذا الإصلاح الذي مارسه قسطنطين الأول والمتمثل في تدعيمه لوضع المسيحية ووضعها على قدم وساق مع بقية الديانات الوثنية الأخرى المتوزعة على مختلف أنحاء الإمبراطورية أحدث نقلة نوعية للوضع الديني السائد في أرجاء الدولة الرومانية.

عندالحديث عن هذا الجانب الأساسي في آثار إصلاحات الإمبراطور قسطنطين الأول والتي تولدت بفعل السياسة التي وضع أسسها قسطنطين منذ وصوله إلى الحكم عام 306م وتوحيده للجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية عام 312م، وتوحيده لأراضي الإمبراطورية منذ عام 323م[1]، نؤكد أن هناك عدة آثار يمكن استخلاصها عند الحديث عن هذا الجانب المهم من إصلاحات قسطنطين الأول.

1- التأثير المباشر لإصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية أثناء عهده:

ظلت المسيحية طوال ثلاثة قرون تعاني من عدم شرعية وجودها بفعل عدم اعتراف الأباطرة الرومان، والعمل على محاربتها وتشديد الخناق على أتباعها ومريديها، لذا فإن هذا الوضع الذي لازم حياة النصارى طوال ذلك العهد من عمر المسيحية جعل الكنيسة المسيحية والمسيحيين يعملون على إخفاء وعدم إظهار اختلافاتهم في شؤون العقيدة والمذهب، عاملين على توحيد الكلمة ضد السلطة الرومانية الوثنية وغالبية أفراد المجتمع الروماني الذين يدينون بمختلف الديانات الوثنية، غير أن هذا الوضع الذي عاشته المسيحية سرعان ما تغير من حالة الوحدة نحو حالة التفكك والانشقاق، وكان السبب الرئيسي في تغير أوضاع الكنيسة والمسيحيين هو تأثيرات الإصلاحات الدينية التي قام بمباشرتها الإمبراطور قسطنطين الأول أثناء فترة حكمه، والواقع الذي يجب الإشارة إليه هو أن الانشقاقات التي حدثت في جسم الكنيسة المسيحية عديدة منها ما حدث

[1]- الناصري، س.أ.ع.، 1991، ص.441.

أثناء حياة قسطنطين ومنها ما استجد عقب وفاة الإمبراطور بعد عام 337م، وعند الإشارة إلى الاختلافات التي ولدت أثناء عصر قسطنطين نذكر الانشقاق الأريوسي والأزمة الميليتية[1] والأزمة الدوناتية[2].

أ- الانشقاق الأريوسي:

وعند الحديث عن الدعوة أو الانشقاق الأريوسي[3] نؤكد أنها تنسب إلى أريوس الذي ينحدر عن أصل ليبي وتعلم في أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة في كنيسة الإسكندرية. وتمتع هذا المفكر الديني بإرادة قوية وقوة في الشخصية وحدة في العقل، ونظرا لكونه تعلم في مدرسة أنطاكية المسيحية التي سادت فيها فلسفة أوريجينيس (Originis) الدينية التي تشبعت بأفكار أفلاطون الفلسفية، فقد ظل محافظا على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويعمل وفقها في الإسكندرية بشكل متطرف، وسرعان ما صاغ آراء مستقلة في العقيدة المسيحية لا تتفق مع العقائد السائدة، مما جره إلى صدام شديد مع أسقف كنيسة الإسكندرية في ذلك الوقت المسمّى إسكندر. وتتلخص عقيدة أريوس في أنه ابتدأ بموقف أفلاطوني وهو أن للإله وجود أبدي لا يمكن إدراكه ثمّ توصل من خلال ذلك إلى نتيجة منطقية في أن "الإبن" لا يمكن أن يكون إلها بنفس المعنى ولذلك يلزم منطقيا أن وجدانه كان متأخرا لوجدان الإله، وبتعبير آخر فإن "الإبن" له بداية، في حين أن الإله "الأب" قديم وأزلي ودائم وأخيرا بما أنّ الإله "الأب" لا يقبل الإنقسام فلابد أن "الإبن" خلق من العدم[4].

ومن المؤرخين من يفسر العقيدة الأريوسية في قول أريوس بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الإبن، ولما كان المسيح الإبن مخلوق للإله الأب فهو إذا دونه، ولا يمكن بأي حال أن يماثل

---

[1]- العبادي، م.، 1981 ،ص. 247- 248.

[2]- حارش، م.هـ.، 1992، ص. 228.

[3]- الإنشقاق الأريوسي: هو الإشقاق الديني الذي أحدثه أريوس ذو الأصول الليبية في عصر قسطنطين، العبادي،م.، 1981، ص.248- 249.

[4]- العبادي،م.، 1981، ص.248- 249.

أو يساوي الإبن الإله الأب في المستوى والقدرة[1]. وبتعبير آخر فإن المسيح مخلوق لا إله بمعنى هذه الكلمة المطلق، وإلاّ فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبالإيمان وعبادة إلاهين (الإبن والأب)[2].

صدمت مثل هذه التوجهات الدينية كثيرين من رجال الكنيسة في الإسكندرية الذين كانوا يعتقدون أن الابن مثل الأب قديم دائم وأنهما من طبيعة واحدة، وقد تطور الموقف كثيرا حتى اضطر الأسقف إسكندر إلى عقد مجمع من القساوسة في مصر وليبيا وأصدروا استنكارا لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة، ولم يمكث أسقف كنيسة الإسكندرية[3] بمصر مكتوف الأيدي بل ذهب يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس الكبرى في الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية يعضهم على مقاومة دعوة أريوس في مناطق نفوذهم بكل عزيمة وقوة في ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يتدخل في الأمر ويصلح بين أريوس وإسكندر بدون أن يحقق مبتغاه فقرر عقد مجمع ديني عالمي يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة في الشرق والغرب لوضح حد للانقسامات العقائدية التي انتشرت في ذلك الوقت، وأرسلت الدعوة للاجتماع لمناقشة مختلف المشاكل المطروحة بقوة على الساحة الدينية للعالم الروماني وتم ذلك في مدينة نيقية[4] في آسيا الصغرى عام 325م.

. **مجمع نيقية الأولعام 325م وقرارته:** اشتدالصراع والنزاع الديني بين إسكندر أسقف كنيسة الإسكندرية وأريوس شمّاس نفس الكنيسة، مما دفع بالإمبراطور قسطنطين إلى محاولة التوفيق بين المذهبين، وأرسل مبعوثا هوسيوس (Hosius) إلى الإسكندرية لهذا الغرض، ولكن جهود الإمبراطور لم تثمر غير الفشل. لذلك دعا قسطنطين إلى عقد مجمع ديني في نيقية عام 325م لفض النزاع، وكان هذا المجمع أول مجمع كنسي عالمي في تاريخ الكنيسة المسيحية، إذ تواجد

[1]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص.39– 40.

[2]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص.40.

[3]– كنيسة الإسكندرية: هي كنيسة تقع في مصر وهي أحد الكنائس الرئيسية في العالم الروماني، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص.40– 41.

[4]– نيقية: مدينة في آسيا الصغرى، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص.40– 41.

فيه ما يقارب ثلاثمائة رجل دين من مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وقد ترأس قسطنطين أشغال المجمع، على الرغم من أنه لم يكن قد تلقى التعميد الحاصل في الكنائس (أي أنه لم يصبح مسيحيا كاملا)[1].

وبالرغم من أن المجمع تناول كثيرا من مشاكل المسيحية في ذلك الوقت إلاّ أنّ الخلاف بشأن العقيدة الأريوسية كان المشكلة الأساسية التي قام بمعالجتها المجمع، ولذلك عمل المجتمعون في مدينة نيقية بأمر الوصول إلى صياغة للعقيدة المسيحية، يمكن أن يقبلها المسيحيون من المذاهب والفرق المتنوعة[2].

وقد استهل الإمبراطور قسطنطين حديثه في أشغال المجمع معربا عن موقفه بأنه يرى أن السلام في الإمبراطورية الرومانية يقع في دائرة مسؤولياته، كما أعرب عن تذمره الشديد للصراع الذي قام بين المسيحيين، ورأى في ذلك أخطر أنواع الحروب، وفي المناقشات التي دارت قاد المعارضة ضد عقيدة أريوس الرجل الدين المصري المنتمي لكنيسة الإسكندرية أثناسيوس الذي تمسك بالرأي الأرثوذكسي القائل بأن السيد المسيح هو إبن الرب ومن نفس جوهره، وأيدته في ذلك أكثرية المجتمعين[3]، وقد حاول أتباع مذهب أريوس إقتراح عقيدة للدين المسيحي ولكنها رفضتبأغلبية ساحقة.

وقد كانت نتيجة تلك المناقشات الطويلة الوصول إلى صياغة عقيدة تتضمن المبادئ المسيحية الأساسية التي يقبلها الجميع ووضعت في مصطلحات لا تعمل على إثارة الاختلافات المذهبية، ولكن بعد أن أقر المجمع المعتقد الذي دافع عنه أثناسيوس قامقسطنطين بإقتراح إضافة لفظ واحد يصف العلاقة بين الأب والابن بأنهما من طبيعة واحدة(Homoousion)[4].

وتعد إضافة هذا اللفظ مجاملة كبرى من الإمبراطور للأغلبية التي عارضت عقيدة أريوس لأن قسطنطين كان يحرص في واقع الأمر على كسب ولاء الأكثرية قبل التفكير في تأييد مذهبهم

---

[1]- عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص.40- 41.

[2]- العبادي، م.، 1981، ص. 250.

[3]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 70- 71.

[4]- العبادي، م.، 1981، ص.250.

الديني، ولقد قبله معظم الحاضرين بما فيهم أتباع المذهب الأريوسي، ولم يعارض هذا القرار سوى أريوس وإثنين من أتباعه المخلصين، فأصدر المجمع في الحال قراره بحرمانهما مع أريوس من رحمة الكنيسة كما أصدر الإمبراطور أمره بطردهم من مصر ونفيهم إلى إليريا وفرض الإقامة الجبرية عليهم[1].

ومنع تداول كتابات أريوس وأعدمت مؤلفاته واضطهد أتباعه من الأريوسيين، ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة في الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية، وعن هذا الطريق انتقلت إلى القبائل الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين[2]، وعن طريق مبشر منهم اسمه ولفلاس[3] (Wulfilas) (311– 361م) الذي تلقى تعليمه في القسطنطينية، وعندما عين ولفلاس أسقفا على القوط حوالي عام 341م قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللّغة القوطية وتعد هذه الترجمة، التي مازال جزء منها باقيا حتى اليوم، أقدم آثار اللّغة الجرمانية، ومن قبيلة القوط أعظم القبائل الجرمانية انتقلت الأريوسية إلى باقي القبائل الجرمانية على غرار الواندال والبرجنديين واللمبارديين[4].

. **موقف قسطنطين من أتباع المذهب الأريوسي:**وكان حضور آراء المذهب الأريوسي بقوة في الشرق كان من الأسباب التي أدت بالإمبراطور قسطنطين إلى تغيير رأيه، فاستدعى أريوس من منفاه عام 327م، ويمكن أن نفسر هذا التفسير الذي استجد على مسلك قسطنطين بما كان يعمل الإمبراطور من نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى مدينة بيزنطة الإغريقية، وهو الحدث الذي ولد منذ عام 330م، إذ أن مدينة بيزنطة كانت تقع في الجزء الشرقي من أراضي الدولة الرومانية حيث تحولت إلى عاصمة الإمبراطورية وأخذت اسم مؤسسها كما بيّنا آنفا، وهو ما دفع قسطنطين إلى استرضاء سكان الجزء الشرقي من الإمبراطورية.

---

[1]– توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 71.

[2]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41.

[3]– ولفلاس: هو رجل دين مسيحي ذو عقيدة أريوسية، درس في القسطنطينية وهو الذي نشر المذهب الأريوسي بين ربوع القبائل الجرمانية، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 67.

[4]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 67.

وتوحي هذه الخطوة من جانب قسطنطين الرأي الذي يقول بأنه كان على استعداد تام لتغيير ميوله المذهبية بل حتى الدينية حسب ما تتطلبه أهدافه ومنافعه السياسية ذلك أنّه ظل يساند المذهب الأثناسيوسي طالما كانت عاصمته في الغرب وطالما اعتمد على غرب الإمبراطورية في قوته وسلطته، لكنه عندما شرع في نقل عاصمته إلى الشرق وأحس بالحاجة إلى كسب رضا سكان القسم الشرقي من الإمبراطورية، لم يلق مانعا في إحداث تغيير في عقيدته أو تغيير ميولاته المذهبية نحو المذهب الأريوسي[1].

.الخلاف الديني بين القصر الإمبراطوري وكنيسة الاسكندرية فيمصر: وبذلك تبلور خلاف شديد بين كنيسة الإسكندرية والقصر الإمبراطوري في القسطنطينية واتسم موقف مصر في هذا الخلاف بالطابع الديني والسياسي في آن واحد ويبرز المظهر السياسي بوضوح في أنه بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية في مركز حكمهما في مدينتي القسطنطينية وروما، تتحسن العلاقات بين الإسكندرية وروما بالقدر الذي تسوء مع القسطنطينية ولقد إكتسبت كنيسة الإسكندرية أهمية عالمية لا يماثلها في ذلك سوى كنيسة روما ذاتها[2].

وكان لشخصية أثناسيوس، الذي جاء مكان إسكندر كأسقف للكنيسة المصرية منذ عام 328م، تأثير كبير ودور عميق على ازدهار ونمو الكنيسة المصرية في هذه الفترة من عمر كنيسة الإسكندريةوذلك زهاء نصف قرن من الزمان، وفي هذه السنين الطويلة واجه أثناسيوس الأباطرة في القسطنطينية الواحد تلو الآخر إنطلاقا من عهد قسطنطين إلى غاية الإمبراطور فالنس[3](Valens) (364- 378م) وتحمل النفي مرة بعد أخرى في عناء وشدة مراس أهلته ليكون زعيما شعبيا وليس مجرد أسقف للكنيسة المصرية[4].

---

[1]- عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41.

[2]- العبادي، م.، 1981، ص. 251.

[3]- فالنس: هو إمبراطور الجزء الشرقي من الدولة الرومانية ما بين (365- 378م) وقتل في موقعة أدريانويل في أوت 378م على يد قبيلة القوط، العبادي، م.، 1981، ص. 251- 252.

[4]- العبادي، م.، 1981، ص. 251- 252.

ويبتدئ الخلاف بين أثناسيوس وقسطنطين أول الأمر بسبب المسألة الأريوسية، إذ يبدي أسقف كنيسة الإسكندرية الجديد موقفا شبيها بموقف سلفه إسكندر ويتشبت بموقفه ويصر على عصيان أمر الإمبراطور قسطنطين بإعادة أريوس إلى كنيسة الإسكندرية. وبعد تكرار المحاولات يعقد الإمبراطور مجمعا دينيا في مدينة صور عام 335م لمحاكمة أثناسيوس الذي وجهت له تهم كثيرة لا تنحصر على موقفه من أريوس والإمبراطور ذات الصبغة الدينية وإنما بعضها اتسم بالطابع السياسي من استخدام للقوة والقسوة في تعامله مع أتباع ميليتيوس والتدخل في منع إبحار القمع المصري الذي كان يرسل إلى العاصمة الرومانية الجديدة كل عام، وكذا مساعدته لثورة قامت ضد الإمبراطور في مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس[1] (Filominus) عام 335م وتقرر خلال مجمع صور عزل أثناسيوس من منصبه، وتم نفيه إلى مدينة تريفيز الواقعة على نهر الراين في الحدود بين غالة وجرمانيا حيث ظل هناك حتى أطلق سراحه الإمبراطور جوليا ن[2] (Julien) (361- 363م) الذي كان بحكم وثنيته لا يكترث بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين[3].

.إنتشار المذهب الأريوسي في الشرق والكاثوليكي في الغرب: ومن جانب آخر في أنه من الواضح أن المذهب الأريوسي كان يتفق ومنطق المثقفين لأنّه أراد أن يبعث العقيدة المسيحية على أساس من المنطق والتعقل، في حين كان المذهب الأثناسيوسي[4] يستقيم وتفكير عامة الشعب الذين يسبقون بالحكم على الأمور بعواطفهم قبل عقولهم[5].

---

[1]- فيلومينوس: هو قائد الثورة المصرية ضد إرادة الإمبراطور الذي جرّد ميليتيوس من مهامه الكنسية، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41.

[2]- جوليان: هو إمبراطور روماني في عهده استرجعت الوثنية مكانتها الطبيعية بين مختلف أديان الكيّان الروماني، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41.

[3]- عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41.

[4]- الأثناسيوسي: مشتق من أثناسيوس وهو الذي جادل أريوس في مجمع نيقية الأول وهو يمثل العقيدة الكاثوليكية السائدة في روما، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 40.

[5]- عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 40.

ومن هذا المنطلق نلاحظ أثر الفوارق الحضارية بين الشرق الروماني ونظيره في الغرب إذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسي في مقاطعات الغرب الروماني اللاّتيني في حين ساد المذهب الأريوسي في الشرق الهلنستي. هذا فضلا عما نلاحظه من أن غالبية المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موّحدين، في حين أن الأغلبية الساحقة من أفراد الطبقات الوسطى والدنيا التي انتمى إليها رجال الدين من الأثناسيوسيين[1].

لم يعش أريوس طويلا بعد الانتهاء من أشغال مجمع صور[2] عام 335م، حيث توفي فجأة في القسطنطينية عام 336م مما دفع بأتباعه إلى القول بأنه مات مسموما، في حين هلل خصومه واعتبروا ذلك الحكم الرباني العادل[3].

وكان قسطنطين قد قسّم الإمبراطورية قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة، فأخذ قسطنطين الثاني غرب الإمبراطورية وأخذ قسطنطيوس الثاني شرق الإمبراطورية، في حين كانت إليريا والجزء الأوسط من شمال إفريقيا من نصيب قسطانز[4]. من هذا التقسيم الذي أوجده قسطنطين نجد كل إمبراطور من هؤلاء الأباطرة الثلاثة يعمل على تدعيم سلطته عبر تدعيم المذهب المنتشر في بلاده، فأتجه قسطنطيوس الثاني[5]نحو تدعيم المذهب الأريوسي، في حين راح أخواه يعملون على مساندة المذهب الأثناسيوسي، مما جعل الخلاف المذهبي يتطور إلى إنشطار في الكنيسة بين الشرق اليوناني والغرب اللاّتيني[6].

وعندما توفي قسطنطين الثاني حاكم إيطاليا وما يتبعها من بلاد أصبحت مهمة الدفاع عن العقيدة الأثناسيوسية تقع على عاتق البابوية[7] ورجال الدين في الغرب، فصار من الواجب أن

---

[1]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 40.

[2]– مجمع صور: هو أحد المجامع الكنسية الكبرى المنعقد في لبنان والذي أعطى الشرعية الدينية للمذهب الأريوسي وقام بنفي أثناسيوس إلى تريفيز الواقعة على نهر الراين، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41– 42.

[3]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 41– 42.

[4]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 42.

[5]– قسطنطيوس الثاني: هو الإمبراطور الذي حكم الإمبراطورية الرومانية في الجزء الشرقي بعد قرار التقسيم السياسي الذي آلت إليه الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة قسطنطين عام 337م، عاشور، س.ع. ف.، 2009،ص. 42.

[6]– عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 42.

[7]– البابوية: مشتق من البابا، وهي الكرسي البابوي المتركز في روما، عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 42.

يتكاتفوا لاسيما بعد مقتل قسطانز وتوحيد الإمبراطورية الرومانية تحت حكم قسطنطيوس الثاني(353- 361م)[1]، وهو ما أدى إلى رجحان كافة الأريوسية في عهده غير أن هذا الرجحان كان مؤقتا إذ لم يلبث الإمبراطور ثيودسيوس I (379- 395م) أن أعلن نهائيا عدم قانونية الأريوسية في مجمع القسطنطينية عام 381م كما فرض عقوبات قاسية على أتباع المذهب الأريوسي في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية[2].

ب- الأزمة الميليتية:

.سببها:كان من الأسباب الأساسية لحدوث هذه الأزمة الدينية هو حملة الاضطهادات الواسعة في عهد الاضطهاد الأعظم طوال عهود حكم الأباطرة الثلاثة دقلديانوس وجالريوس وماكسيمينوس دايا، فيخبرنا يوسابيوس القيصري أن بطرس (Petrus) أسقف كنيسة الإسكندرية الذي جاء مكان ثيوناس (Theonas) في هذا المنصب، قد تم القبض عليه وأعتقل عدد من القساوسة هم فوستوس (Phostus) وديوس(Dius) وآمون (Ammonius) إلى قاعة السجن واعتقل معهم أيضا فيلياس (Phileas) أسقف كنيسة تمويس (Thmuis)، وهو شخص عرف بنبوعه في العلوم الفلسفية ونبل أصله، وكذا هسيكيوس (Hesychius) وباخوم(Pachomius) وثيودور (Theodore) وهم أساقفة في الكنائس المصرية العديدة وفي العام التاسع للإضطهاد والذي يوافق وفاة الإمبراطور جالريوس عام 311 م كلل بطرس ورفاقه بشرف الاستشهاد[3].

بإيداع أولئك الأساقفة في السجن، فقدت الكنائس خيرة رجالها وتحمل عبء المهام الكنسية الشاغرة أشخاص غير مؤهلين لمثل هذه المهام، حتى كنيسة الإسكندرية فقدت رئيسها الروحي منذ عزل أسقفها بطرس.

[1]- عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 42.

[2]- عاشور، س.ع. ف.، 2009، ص. 42.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 206- 207.

. ثورة ميليتيوس: في هذه الظروف العسيرة كان شخص واحد تحمل عبء مواجهة الإضطهاد الصادر من السلطة الرومانية ضد الطائفة المسيحية هو ميليتيوس(Melitius)[1] أسقف أسيوط (Lycopolis)، فلم يكن يقتصر عمله على التنقل بين مختلف الكنائس فحسب، بل راح يعين لها أساقفة جدد، غير أن هذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليد كنيسة الإسكندرية، فنحن نعلم من المؤرخ سوزومينوس أن لكل كنيسة في الإسكندرية قسيسها وكنائس أخرى في بعض مدن مصر عليها أساقفتها، ولم يكن يحق لأحد الإنتقال من أسقفيته أو كنيسته إلى غيرها. ثم يضيف سوزومينوس قائلا أن أسقف كنيسة الإسكندرية احتفظ لنفسه بإدارة شؤون كنيسته وشؤون بقية كنائس الإقليم كله[2].

ولقد كانت الخطوة السابقة من قبل أسقف كنيسة أسيوط تهدف لترقيته إلى مستوى الأسقف الأعلى على مصر وأن تتمتع كنيسة أسيوط بما كان من مزايا وامتيازات كنيسة الإسكندريةأو ربما أراد أن يصبح أسقفا على كنيسة الإسكندرية،ويخبرنا ثيودوريت (Theodorit) أن هذه الأفعال قد نمت إلى مسامع بطرس وهو في السجن فأستهجن الأخير سلوك أسقف أسيوط ومن ثم اتخذ قرارا بعزله.

غير أن ميليتيوس لم يستسلم لقرار العزل هذا وملأ طيبة والمناطق المجاورة لها في مصر بالاضطراب والقلاقل عل حد قول تيودوريت الذي أكد أن الأسقف الأسيوطي استمر في تنصيب الأساقفة والقساوسة في الكنائس الشاغرة، لأنه يضيف قائلا أنه تجاسر على التدخل في أمور أسقفية الإسكندرية ذاتها، فعزل اثنينمن قساوستها ورسم آخرين مكانهما[3].

تلك رواية تم نقلها عن ميليتيوس حسب كتابات مؤرخي الكنيسة، على أن هناك رواية أخرى يخبرنا بها إبيفانيوس (Epiphanius) وهي تقترب من الرواية الأولى تقول أن بطرس بعد

---

[1]- ميليتيوس: هو رجل دين مصري أحدث انشقاق في الكنيسة المصرية، يعرف بالإنشقاق الميليتي، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207- 208.

القبض عليه، دخل معه السجن ميليتيوس وفئة من رجال الأكليروس[1]، وتواصل الاضطهاد والقمع فترة من الزمن نال فيها عدد من النصارى الشهادة بينما اشترى البعض الآخر أنفسهم وأموالهم بأن قدموا القرابين والأضاحي على مذبح أرباب الوثنية. وهكذا حرم هؤلاء أنفسهم من رحمة الكنيسة غير أنهم سرعان ما ندوا بعد ذلك واجتهدوا ليقبلوا في الكنيسة للمرة الثانية عن طريق طلب الشهادة، وكان مليتيوس من رواد الاتجاه المتذبذب طوال فترة الاضطهاد، ثمّ سلك مسلكا متشددا بعد حملات الاضطهاد، بينما ترأس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقا آخر تبنى الاتجاه المعتدل وكانت مسألة الخلاف بين ميليتيوس وبطرس[2] هي قضية قبول المرتدين ثانية في الكنيسة، وهكذا وجدت كنيسة للشهداء، يتزعمها ميليتيوس تقف ضد سياسة الكنيسة الكاثولكية، ولما أصر ميليتيوس على تعيين الأساقفة وترسيمهم مخالف لما جرى عليه العرف في مصر، لم يكن أمام بطرس من خيار إلاّ أن يصدر ضده قراري العزل والحرمان[3].

. دور **قسطنطين في إخماد الثورة الميليتية:**أمام هذا الوضع الخطير الذي عاشته مصر وكنيستها مع مطلع القرن 4م كان لابد على الإمبراطور قسطنطين أن يضع حدا للأزمة الميليتية وكان ميليتيوس يدعو إلى اتخاذ موقف متزمت من الذين ضعفوا أمام الاضطهاد وارتدوا عن المسيحية، بينما كنيسة الإسكندرية التي يتزعمها بطرس فكانت متسامحة مع الذين أعلنوا توبتهم وعادوا إلى حظيرة الكنيسة، وقد جاء الأسقف إسكندر ليواصل نفس سياسة سلفه القائمة على التسامح تبيح العفو بعد التوبة، ورغم عدم خطورة موضوع الانقسام وبقائه محليا في مصر إلاّ أنّ ميليتيوس ظل عنيدا متعصبا، فلم يتراجع عن أرائه قيد أنملة، وشجعه على ذلك كثرة أتباعه، حتى اضطر الأساقفة المصريون إلى نفيه إلى فلسطين. وقد بلغ بعد التعصب أنّه بنى له ولإتباعهكنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء كما ذكرنا آنفا وذلك حتى لا يشاركوا المسيحيين الآخرين كنيستهم

[1]- الأكليروس: رجال الدين في الكنيسة المسيحية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207- 208.

[2]- بطرس: هو بطريرك كنيسة الاسكندرية المعارض للإنشقاق الذي أحدثه ميليتيوس، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207- 208.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 208- 209.

الكاثوليكية ورفع الأمر إلى قسطنطين الذي قرر عرض القضية الميليتية على مجمع نيقية I عام 325م[1].

عمل الحاضرون في أشغال مجمع نيقيةI على إيجاد حلول للمعضلة الميليتية[2] وقد خرج المؤتمرون بقرارات من شأنها إيجاد حلول للصراع الميليتي الكاثولوكي، وكانت أهم تلك القرارات هي:

1. تحريم انتقال الأساقفة والقسيسيين والشمامسة من كنيسة لأخرى.
2. إعطاء بطريرك كنيسة الإسكندرية كل الحقوق التي كانت له منذ القدم على مختلف أساقفة مصر وليبيا والمدن الخمس[3].
3. محافظة ميليتيوس على لقبه الديني، دون أن يمارس عمله في الكنيسة، ولكن سمح لأتباعه من رجال الدين أن يعودوا إلى عملهم في الكنيسة بقبول الأسقف إسكندر لهم[4].

كانت القرارات التي خرج بها الحاضرون في مجمع نيقيةI تدل على رغبة الإمبراطور قسطنطين والمجتمعين في أشغال ذلك المجمع على القضاء وإيجاد الحل للانشقاق الذي أحدثه ميليتيوس في جسم الكنيسة المصرية، غير أن تلك القرارات تدل على استفادة قسطنطين من تجربته السابقة مع أتباع المذهب الدوناتي في إفريقيا، فمجمع روما عام 313م،ومجمع آرل عام 314م لم يكونا كافيين لفض النزاع الدوناتي الكاثولوكي[5]، وقرار إمبراطوري في الملف الدوناتي في ميلانو عام 316م ما أوقف أتباع المذهب الدوناتي ولا أتى بجديد في عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثولوكية، بل كان كل ما جاء به عنفا بلا هوادة وتعد صريح لسلطة الإمبراطور ذاته، واضطهادا مسيحيا ضد أنصار الكنيسة الرسمية في قرطاجة، هكذا أيقن قسطنطين أن لا حل في يده سوى الصفح والمهادنة، فأطلق سراح الدوناتيين وأعاد لهم كل ممتلكاتهم[6].

---

[1]- العبادي، م.، 1981، ص. 249- 250.

[2]- المعضلة الميليتية: الإنشقاق الميليتي، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 207.

[4]- العبادي، م.، 1981، ص. 251.

[5]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 209.

[6]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 209- 210.

كانت إذن القضية الدوناتية تجربة شخصية استفاد منها قسطنطين في معالجته للصراعات الدينية في الكنيسة المسيحية، فراح يغير من السياسة الإمبراطورية في التعامل مع الملف الميليتي في مصر، وساعده قدره وفكره على عقد هذا المجمع المسكوني[1] الكبير الذي جاء إليه أساقفة الشرق والغرب، فراح الإمبراطور يحث الجميع على اتخاذ سبيل وسط يعمل على التوفيق بين الأطراف المتنازعة، وعمل الحضور بنصح الإمبراطور، وقد حفظ ثيودوريت مأتم بشأن الميليتيين في مجمع نيقيةIفي وثيقة مهمة إلى كنيسة الإسكندرية جاء فيها:

«أحبائنا... ها نحن الآن نخبركم بما قر عليه رأي المجمع في هذا الصدد لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة ميليتيوس، مع أنه وحتى نكون مع أنفسنا صادقين، ما كان يستحق من الشفقة أقلها، لقد سمح له بالبقاء في مدينته مجردا من كل سلطة تجيز له تعيين الغير أو سيامتهم، محروما حتى الظهور في أية ولاية أو مدينة لهذه الدواعي، ولكن ليحمل لقبه فقط عاريا من كل نفوذ»[2].

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قدر، فذلك هو الجزاء الذي تلقاه ميليتيوس نتيجة خروجه على كنيسة الإسكندرية وأسقفها، تخالف ما رأيناه قبلا في موقف مجمعي روما وآرل[3] وموقف قسطنطين تجاه الدوناتيين، ولا ريب أن هذه السياسة الجديدة التي لجأ إليها مجمع نيقية تجاه المشكلة الميليتية كانت كرد فعل صريح لعدم نجاح السياسة التي سلكها الإمبراطور في علاجه للمشكلة الدوناتية، ومن ثم فقد منح المجمع ميليتيوس من اللّقب اسمه وسحب مضمونه وأعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرها[4]، وأضافت رسالة المجمع قائلة:

« أما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقي، على أن يقبلوا ثانية في الكنيسة، وتبقى رتبتهم الكهنوتية[5] في سائر الأبرشيات على أن تكون في مرتبة أدنى من

---

[1]– المجمع المسكوني: هو المجمع الكنسي، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 210.

[2]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 210.

[3]– مجمعي روما وآرل: هما مجمعين كنسيين أنعقدا لفض الإنشقاق الدوناتي، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 210.

[4]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 210.

[5]– رتبتهم الكهنوتية: رتبتهم الكنسية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 211.

تلك التي منحت لغيرهم من قبل على يد إسكندر، زميلنا الكاهن المبجل وعليه فليس لأولئك حق إختيار أو تعيين آخرين للكهنوت أو الإقدام على أي شيء دون موافقة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المنضوين تحت نفوذ إسكندر، ولكن هؤلاء بنعمة الله، وفضل صلواتكم، لم يدنسهم تيار الانشقاق، فظلوا طاهري الذيل في الكنيسة الرسولية الجامعة، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنسية، بل ويسمح لهم بما هو أبعد من ذلك في التصرف في أغلب أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها، فإذا ما شاء القدر واختطف الموت واحدا ممن يتسنمون الآن إحدى الوظائف الكنسية، فليرتق الجدد إلى شرف الراحلين إذا كانوا للمنصب مستحقين، وعلى يد الرعية مختارين، ما دام هذا يثبت بموافقة أسقف الإسكندرية الكاثولوكي»[1].

لم ينحصر قرار المجمع إذن في هذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة الميليتية في حد ذاتها، ولكنه تجاوزها آخذا من مجريات أحداثها مدارا لمزيد من قرارات التنظيم الكنسي حول تعيين القسسيين[2] والأساقفة في مختلف الكنائس، ولا مجال للشك أن دافعه إلى ذلك حرص للحضور على أن لا تتكرر في الإسكندرية أو غيرها من مدن الإمبراطورية تلك الحوادث التي وقعت بفعل ميليتيوس بعد مبادرته بتعيينه أساقفة وقساوسة[3].

كما جاء في فحوى الرسالة الصادرة عن المجمع والتي تتحدث عن ميليتيوس فتقول: «أما عن ميليتيوس على أية حال، فهناك استثناء قد وقع، بسبب عصيانه السالف، ونتيجة مزاجه المتهور وطبعه الطائش، ذلك لأنه إن منح أقل سلطان فإنه سوف يسيء استغلاله بإثارة الاضطراب من جديد»[4].

وبعد أن يعلم الحاضرون في أشغال مجمع نيقيةI رجال كنيسة الإسكندرية في رسالته بأن أسقفهم إسكندر سوف يقص عليهم تفاصيل ما حدث في جلسات المجمع وما قرعليه رأي رجال

[1]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 211.

[2]– القسيسيين: جمع قس، وهي رتبة في السلم الكنسي وهي رتبة تحت درجة الأسقف، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 212.

[3]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 212.

[4]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 212.

الأكليروس، ويزف إليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الإمبراطورية وغربها[1]، يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة:

« فلتفرحوا إذن لنجاح ما تعهدنا القيام به، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق، واستئصال دنس الهرطقة، ولتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقد إسكندر[2] محبوبنا أسقفكم الذي جلب على مجمعنا البهجة بحضوره، والذي تقدم العمر به قد تحدى المشاق والمتاعب بغية إعادة السلام إليكم، صلوا من أجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتا وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع المسيح إن كل ما أتمناه بنعمة الله الأب وبوحي الروح القدس صار... له المجد أبد الآبدين»[3].

على هذا النحو أتم مجمع نيقيةI أشغاله وارتحل الأساقفة عائدين إلى كنائسهم يسبحون بحمد الإمبراطور مبعوث الرب[4] الذي أغدق عليهم نعمه، فهيأ لهم أسباب رغد العيش والسعة ولاشك أن قسطنطين كان يهدف من وراء هذه السياسة إلى استعماله هؤلاء الأساقفة ليكونوا له يدا يمسك بها على إدارة إمبراطوريته وتعمل على تقوية سلطانه في أرجاء الإمبراطورية بما لهم من تأثير على نفوس رعاياهم، وقد آتت هذه السياسة أكلها وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين "مبعوث الرب" حاميها، وباعث حياتها، ورفعته مكانا عليا، إلى الحد الذي تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها في زمانه وهو يوسابيوس القيصري، ليدون كتابا يرفعه به إلى درجة الرسل، جاعلا منه الحواري الثالث عشر[5].

خيل للإمبراطور حينئذ أنه حقق بذلك أكبر انتصاراته، فقد بدى له أنه حفظ للإمبراطورية وحدتها في الجانب السياسي والعقائدي والمذهبي، وأنه تمكن من إعادة السلام إلى الكنيسة وأنجاها من شر مستطير كاد يودي بوحدتها، وبالتالي يعمل على تهديد أمن الدولة وسلامتها، ولقد تحمل قسطنطين العبء الأكبر، بل العبء كله في الإعداد لهذا المجمع الكبير، وأثناء وبعد انعقادهولعب

[1]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 212.

[2]– إسكندر: هو أسقف كنيسة الإسكندرية الذي جاء بعد بطرس، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 212.

[3]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 212.

[4]– مبعوث الرب: هو الرسول الذي كلّفه الرب بمنح المسيحيين حقوقهم الطبيعية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 213.

[5]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 213.

دورا هاما وشارك مشاركة إيجابية في كل تحرك وسيكون من أداء المجمع، فحقق بذلك رغبته التي أبداها في رسالته التي أسلها إلى الأساقفة يدعوهم للحضور في نيقية[1].

.وضع أسس القيصرية البابوية :ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه في الدعوة لعقد المجامع سنة سلكها خلفاؤه من بعده فما من مشكلة عقائدية يدق للكنيسة، إلاّ ووجهن الدعوة لعقد مجمع كنسي (مسكوني) لبحث المشكلة المطروحة، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من رأس الكنيسة أو من غيره، بل موجهة من الإمبراطور ذاته، حتى وصل عدد المجامع المسكونية التي انعقدت في الكنيسة الشرقية[2] على طول أربعة قرون بين عامي 325، 787م إلى سبعة، وكان المجمع الأخير على عهد الإمبراطورة إيرين (Irine)[3].

وعلى هذا الشكل أيضا وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية (Caesaro papism) التي بلغت في عهود من جاء بعده من الأباطرة شأنا عظيما، وأضحت كنيسة الشرق في هذا الصدد دائرة من دوائر الحكومة وأسقفها موظفا عظيم الشأن لدى الإمبراطور، وتمتع هذا بسطوة كبيرة وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين أصبحوا في أغلب فترات تاريخ الكنيسة الشرقية جند في يد الإمبراطور[4].

وإذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس الشرقية التابعة لها بصفة خاصة فإن الكنائس الأخرى في النصف الشرقي من الإمبراطورية، والإسكندرية على رأسها لم تمش على نفس المنهج والمسلك، فأساقفة الإسكندرية كانوا يعرفون يقينا ويقدرون مركز كنيستهم في العالم المسيحي، ولم تدنس جبهتها لوثن، وأنطاكية تترفع بأن القديس بطرس هو الذي وضع أساس الكنيسة فيها قبل روما، فإن الإسكندرية كانت تفتخر بأن الحواري مرقس الإنجيلي ابن بطرس بالتبني وتلميذهورفيقه هو الذي رفع القواعد من كنيستها، ولكنها إلى جانب ذلك كانت تتسامى

[1]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 213.

[2]– الكنيسة الشرقية: الكنيسة الأرثوذوكسية التي كان مقرها في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 213.

[3]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 213.

[4]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 213– 214.

بمدرستها اللاّهوتية الشهيرة، وفكر آبائها الكنسيين، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الإمبراطورية الرومانية تستطيع أن تصل إلى مكانة كنيسة الإسكندرية، بل أن عالم المسيحية كله في هذه القرون الباكرة من عمر المسيحية كان يسعى إلى كنيسة الإسكندرية للنظر في مسائل العقيدة، القول الفصل في كنيستها[1].

من أجل هذا، وللخلاف العقائدي الدائم بين القسطنطينية والإسكندرية، وقفت كنيسة الإسكندرية تعارض الأباطرة الرأي وتأبى تهديداتهم، وشهد تاريخها حتى القرن السابع الميلادي صراعا شديدا بين أباطرة الإمبراطورية وأساقفة كنيسة الإسكندرية،لم تستسلم فيه كنيسة الإسكندرية طول هذا العهد قيد أنملة[2].

فإذا ما تجاوزنا الإسكندرية وحاولنا أن نبحث عن الدوافع التي دفعت الكنيسة بعامة على عهد قسطنطين إلى تقبل هذا الوضع الجديد في العلاقة بينها وبين الدولة طائعة لأدركنا على الفور الحال التي كانت عليها قبل مجيء قسطنطين ثم ما كان من حال تعاطفه مع أتباع الدين المسيحي. وما أغدقه على رجالاتها من أنعمه وعطاياه، ومما أغرق فيه الكنيسة من المنح، ومن ثم فما للكنيسة إذن أن ترفع جسدها أمام عظمة شخص الإمبراطور الذي استغل هذه الفرصة أحسن استغلال وأشاع في أذهان معاصريه وخلفه الذين جاءوا من بعده أنّه مبعوث العناية الربانية لإحلال السلام على الأرض، وأن الرب قد ميزه من بين عباده وعهد إليه بحكم هذه الإمبراطورية وذلك شيء نلمسه في رسائل قسطنطين وخطاباته العديدة، ويقول نورمان بينز[3]:«لابد أن نعي أن قسطنطين كان قبل كل شيء إمبراطورا رومانيا ورجل سياسة، وكانت سياسته الدينية جزءا من سياسة الإمبراطورية، فهذه كانت قائمة في فكره على تصور بأنه المبعوث خدمة لرب المسيحيين»[4].

---

[1]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 214.

[2]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 214.

[3]– نورمان بينز: مختص في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 214–215.

[4]– عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 214–215.

ولا يمكن أيضا إنكار الدور الذي لعبه شيخ مؤرخي الكنيسة يوسابيوس القيصري في هذا السبيل، فكتابه العاشر من تاريخه الكنسي يدل على أن قيام الدولة والكنيسة قد بدأ سويا في آن واحد، ولذلك نراه يتكلم بنعمة التفاؤل، أما مؤلفه "حياة قسطنطين"[1] (Vita Canstantini) فكله حملة دعائية للإمبراطور على أنّه "محبوب الرب" ومبعوثه إلى البشر وقد آتات كتابات أسقف قيصرية بفلسطين المعاصر لعصر قسطنطين ثمارها في بحر الكنيسة وبين رجالاتها، وكان لها أكبر الأثر في بنيان العلاقة بين الكنيسة والدولة[2].

جـ- الأزمة الدوناتية وإصلاحات قسطنطين:

.عوامل ظهور الأزمة الدوناتية:

صنف المؤرخون،استنادا إلى مصطلح رجال الجدل الكاثوليكيين أمثال أوبطا الميلي (OptatMiléve) وأوغسطين، على إطلاق تسمية الحركة الدينية المعارضة للسلطة وللكنيسة المتواطئة معها بالدوناتية، نسبة إلى أحد أعلامها الكبار الذي حمل راية الرفض للخضوع لسلطة الإمبراطور ومقاومة أساقفة كنيسة قرطاجة الذين قبلوا الإنظواء تحت لواء السلطة السياسية الحاكمة وقبلوا شروطها. تلك الشروط التي لاحظ فيها دوناتوس (Donatus)[3]، نيلا شديد التأثير من مبادئ السيد المسيح وتحطيما لقوة المؤمنين المخلصين بالمسيحية. وبذلك شكل موقف أساقفة قرطاجة الذين يمثلون الكنيسة الرسمية في المغرب تراجعا صريحا عن النصرانية الصحيحة وردة

[1]- حياة قسطنطين: هو مؤلف ضخم ألفه يوسابيوس القيصري يروي حياة قسطنطين وهو مصدر عايش الفترة، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 215.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 215.

[3]- دوناتوس: ولد هذا العلامة في بلدة الأكواخ السود (Casae Nigrae) (تقع شمال شرقي باتنة)، تاريخ ميلاده مجهول وتوفي حسب رأي بول مونصو بعد محاكمته من طرف الإمبراطور قسطنطين عام 316م إثر القرار الإمبراطوري الصادر من ميلانو، وهو المؤسس الأول لحركة الدوناتية وداعيها وممثلا لها في مؤتمرات روما عام 313م ومؤتمر آرل عام 314م وميلانو عام 316م، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 285- 286.

وهناك أيضا دوانوس الكبير المدعو بالقرطاجي، ولد حوالي عام 270م وتوفي عام 355م، ويرجع الفضل له في تنظيم نشاط الحركة الدوناتية وتوسيع انتشارها وتعميق مبادئها، وهو الذي قام بتنظيم المقاومة في بانماي عام 347م، غير أن المجادلين الكاثوليك لا يفرقون بين شخصية الرجلين، وكذلك الأمر بالنسبة للدوناتيين أنفسهم، ومن ثم ارتبطت الحركة بإسم دوناتوس إظهارا للفرق بين الأول والثاني.

على المسيحية وخيانة لضحايا القمع، وظهرت الدوناتية في صورة تيار ديني مستقل رفض جميع أشكال التعاون مع السلطة ممتنعا الامتثال لأوامر الإمبراطور، يعمل على المحافظة على المبادئ الأصلية التي اتحد من أجلها المتنصرون الأوائل وضحوا من أجل تحقيقها[1]، في حين اتضح من خلال مواقف كنيسة قرطاجة (الكنيسة الرسمية في المغرب) اتجاه ديني معتدل، تميز بالمرونة ومسايرة الوضع السياسي واستغلال حاجة الإمبراطور للتعاون مع الكنيسة في توسيع نفوذ وسلطة الكنيسة الدينية وكذا تنمية إمكانيتاها الاقتصادية وتقوية رصيدها السياسي في جسد الإمبراطورية المتصدع والسائر نحو الانهيار[2].

من هذا المنطلق يبدوا أن معارضة الدوناتية[3] لكنيسة قرطاجة التي أصبحت رسمية كان يشكل في حقيقة الأمر استمرارية لمقاومة شعبية اتخذت من المسيحية وسيلة للتعبير عن رفضها للوضع الذي فرضته الطبقة الأرستقراطية ورجال السلطة. وتجلت مقاومة أتباع المذهب الدوناتي في الإصرار على التمسك بالدين المسيحي رغم سياسة القمع التي سلط عليها من المجتمع الوثني سواء من الأرستقراطية الوثنية أو السلطة الحاكمة، ونتيجة لسياسة الاضطهاد أن نما في نفوس المضطهدين إحساس يمقت كل إجراء يهدف إلى النيل من مقاومتهم الاجتماعية العنيدة، وتحركت فيهم الرغبة إلى مناهضة ومقاومة المتخاذلين من رجال الدين، ومعارضة ذوي المواقف المعتدلة منهم إزاء السلطة التي مارست سياسة الاضطهاد من قبل[4].

وبدا لأنصار الاتجاه الدوناتي المقاوم للسلطة السياسية والمعارضة لسياسة الكنيسة الرسمية[5] في قرطاجة أن حرص الإمبراطور على التخلص من المسيحية دفعها إلى اضطهاد أتباعها ومحاولة القضاء عليهم لتحقيق وحدة الإمبراطورية القائمة على وحدة توجهها الديني

---

[1]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 285– 286.

[2]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

[3]– الدوناتية: هي حركة دينية في المغرب القديم تزعمها دوناتوس تمرد خلالها على سلطة الإمبراطور قسطنطين وأسقف كنيسة قرطاجة كايكيليانوس أسقف الكنيسة الرسمية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

[4]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

[5]– الكنيسة الرسمية: كنيسة الدولة التابعة لكنيسة روما في إيطاليا، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

المتمثل في الديانات والعقائد الوثنية المتجذرة في جسم وكيان الإمبراطورية الرومانية،[1] غير أن فشلها في القضاء على وجود المسيحية بسياسة الاضطهاد والقوة دفعها إلى التراجع والإعلان عن سياسة التسامح الديني منذ إعلان الإمبراطور جالريوس[2] عن مرسوم التسامح الديني بتاريخ 30 أفريل 311م، ثمّ اعتناقها المسيحية على عهد قسطنطين الأول الذي حاول استخدام الدين لأهدافه السياسية، وذلك بتوظيف مؤسسة الكنيسة ورجال الدين الموالين للإمبراطورية لإخضاع الرأي العام المعارض لسياسة الدولة والثائر ضد الأوضاع الاجتماعية السيئة[3].

وقد تزايد عدد رجال الدين المسيحيين ازديادا مطردا وارتفعت نسبة الأغنياء من النبلاء والطبقة الأرستقراطية الذين اندمجوا في فئة رجال الدين، وأصبحوا جزءا من جهاز الكنيسة المسيحية التي استخدمتها السلطة السياسية (الزمنية، العلمانية) لتحقيق أهدافها السياسية ومخططاتها المستقبلية[4].

وهنا يظهر عامل الحرب الطبقية أو صراع الطبقات على أنّه المحرك الخفي لحركة التناحر والقطيعة الدينية[5] بين نصارى المغرب الروماني خلال القرن الرابع الميلادي، وقد ظهر هذا الصراع الطبقي في تلك الحرب التي قامت بين أتباع المذهب الدوناتي والثوّار الريفيين[6] (الدواورن Les Circonocellions) كطرف، وبين أتباع المذهب الكاثوليكي أو ما يسمى بأنصار الكنيسة الموّحدة التي أصبحت تمثل الطبقة الغنية التي تحالفت مع النظام السياسي الحاكم المتمثل في السلطة الإمبراطورية كطرف آخر[7].

---

[1]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

[2]– جالريوس: هو الإمبراطور الذي صعد إلى مرتبة أغسطس الشرق بعد تنحي دقلديانوس عام 305م، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286.

[4]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 286– 287.

[5]– القطيعة الدينية: هو الانشقاق الديني بين الكنائس الدوناتية والكنائس الرسمية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

[6]– الثوار الريفيين: هي الحركة السياسية العسكرية التي اعتمد عليها الدوناتيون في صراعهم مع السلطة الرومانية التي تحالفت مع الكنيسة الرسمية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

[7]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

وسنبرز فيما يلي تتبع أهم التطورات التي حدثت أثناء فترة الانشقاق لكي نستخلص من خلالها ما يفيد في استنتاج العوامل الأساسية لهذه الحركة الثورية التي اتهمها المؤرخون المسيحيون[1] مسؤولية كل ما حدث للمسيحية في إفريقيا من أحزان ومآسي ونكبات، وجعلوا الانشقاق الدوناتي أصل ومنبع لكافة الانقسامات، واثقين كل الثقة فيما نسبه إليها خصومها من رجال الجدل الكاثوليك على غرار أوبطا الميلي، والقديس أوغسطين الذي يعد أحد أباء الكنيسة والمساهمين في وضع قواعد لاهوت عالمي في العالم المسيحي[2].

حسب شهادة القديس أوغسطين فإن حركة الدوناتية قد ظهرت على مسرح الأحداث الدينية منذ عام 305م. وذلك عندما أصدر مجمع قيرطا (سيرتا Cirta) قرارا يوم 05 مارس من سنة 305م، رفض فيه ما اتخذه مجمع قرطاجة من إجراءات ترتبط بموقف الكنيسة من قرارات الإمبراطور دقلديانوس المتعلقة بمحاربة المسيحية ومصادرة ممتلكات الكنيسة وإحراق الكتب والوثائق المقدسة.

وقد عبّر دوناتوس الكبير عن موقف مجمع قيرطا في إحدى ردوده على أسقف قرطاجة المسمّى منصوريوس[3] (Mensurius) قائلا: «إنني مسيحي وأسقف ولست خائنا»[4].

مما يدل على محاولة منصوريوس إقناع بقية الأساقفة ضرورة الامتثال لأوامر الإمبراطور دقلديانوس حقنا لدماء المسيحيين، وهي المحاولات التي ظهرت في عين دوناتوس بأنها محاولة لتحويل المسيحية عن مبادئها الأصيلة، وفي ذلك خيانة وردة لا يمكن قبولها والانسياق في تيارها[5].

---

[1]– المؤرخون المسيحيون: هم مؤرخو الكنيسة أو مؤرخو المدرسة الدينية على غرار يوسابيوس القيصري أو لاكتانتيوس أو سوزومينوس مؤرخ القرن الخامس، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

[2]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

[3]– منصوريوس: هو أسقف كنيسة قرطاجة الذي عاصر فجر الدوناتية في مطلع القرن الرابع وحاول إيجاد حلول للإنشقاق الذي أحدثه أتباع دوناتوس وكذا ساهم في مقاومة سياسة الإمبراطور دقلديانوس، القائمة على محاربة الكنيسة المسيحية ومصادرة أملاكها واضطهاد أتباعها، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

[4]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

[5]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 287.

غير أن جذور الحركة تعود إلى ما جرى في إحدى القرى الصغيرة المسمّاة أبيتينا[1](Abitina)، حيث قام المسيحيون فيها بمقاومة إجراءات السلطة فسقط الكثير منهم، كما أعلنوا عن موقفهم من الذين أظهروا الكفر درءا للعذاب وذلك بحرمانهم من رحمة الكنيسة[2] دون أخذ رأي أسقف الكنيسة الرسمية المتركزة في قرطاجة وهو منصوريوس، فكان لعملهم هذا وقع مؤثر في نفوس المسيحيين، وخاصة النوميديون منهم الذين إعتبروه بمثابة الميثاق الاجتماعي والديني للمسيحيين، ودعي بميثاق الشهداء « ActMartyrum »[3].

وقد جرت تلك الأحداث مع مطلع عام304م، أي قبل قرار مجمع قيرطا بسنة ممّا يعطي للحركة الدوناتية أرضية جماهيرية ريفية، وقد حاول منصوريوس تهدئة الوضع والتخفيف من حماس جمع النصارى المقاومين الذين كانوا مقبلين على الموت دون اكتراث فأرسل أسقف كنيسة قرطاجة شمامسته[4] إلى المدن والقرى قصد إقناع الجماهير بضرورة التريث وعدم الحكم على بعض المسيحيين بالكفر لأن ذلك من مهام المجتمع الكنسي اللاّهوتي بقرطاجة وروما، لكن بعثاته لم تجد آذانا صاغية، بل إن أساقفة نوميديا قد أعلنوا الثورة في وجه منصوريوس، واتهموه بالخيانة وبتسليم الكتب المقدسة للإمبراطور[5].

وظل الخلاف قائما بين من أيدوا المقاومة المستميتة وعدم التظاهر بالكفر، وبين من انسلخوا عن مسيحيتهم وأظهروا إيمانهم بالديانة الوثنية، ورأوا إمكانية الامتثال مؤقتا لأوامر الإمبراطور حرصا على عدم إراقة دم المسيحيين وإزهاق أرواحهم، إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني عام 311م،الذي رفع السيف على رقاب المسيحيين[6].

---

[1]– أبيتينا: هي القرية التي بدأت فيها أولى جذور الحركة الدوناتية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288.

[2]– رحمة الكنيسة: هي السياسة التي تنتهجها الكنيسة المسيحية مع أتباعها وعند حدوث أي تمرد أو انشقاق يهدد سياسة الكنيسة أو وحدتها تفرض عليه الكنيسة قرار الحرمان (Excommunication)، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288.

[4]– شمامسته: جمع شماس، وهي رتبة في السلم الكنسي تحت رتبة الأسقف، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288.

[5]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288.

[6]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288.

لكنه رغم زوال عامل الأزمة الذي كان يعاني منه مسيحيو الإمبراطورية بعد سن الإمبراطور جالريوس لسياسة التسامح الديني، إلاّ أن الأزمة الدينية التي كانت تعاني منها الكنيسة الإفريقية[1] ظلت تطفوا على السطح محدثة خلافا عميقا بين الكنيسة الرسمية والكنيسة الدوناتية، إذ أن الانشقاق الذي أحدثه أتباع مذهب دوناتوس في جسم الكنيسة الإفريقية أخذ أبعادا أخرى حيث أصبح من المستحيل التحكم فيها أو تجاهلها.ومن تلك الأبعاد نذكر رفض أساقفة نوميديا الاعتراف بشرعية أسقفية منصوريوس على كنيسة قرطاجة التي كانت أما لجميع كنائس المغرب الروماني منذ سنة 229م، لكونه خائنا في اعتقادهم، بل تجردوا من تبعيتهم لأسقفية قرطاجة التي كانت هي الكنيسة الرسمية والمسؤولة أمام كنيسة روما على المسيحية في منطقة الشمال الإفريقي وبعد الاستقلال الروحي والإداري لكنائس نوميديا على كنيسة قرطاجة أعلنوا عدم المشاركة في انتخاب أسقف جديد لكنيسة قرطاجة مكان منصوريوس الذي مات عام 311م، وقد نجح كيكيليانوس في الانتخابات وبرز كأسقف جديد على رأس الكنيسة الرسمية في قرطاجة، وقد رفض أساقفة نوميديا[2] الاعتراف بأسقفيته معتبرين سلطته غير شرعية وغير قانونية[3].

وقد كان دوناتوس قد لعب دورا فعّالا في سحب شرعية أسقف قرطاجة الجديد كيكيليانوسوفي تحريض أساقفة نوميديا ضد أسقف الكنيسة الرسمية المنتخب حديثا[4].

لهذا السبب حمّل القديس أوغسطين مسؤولية كل ما حدث للمسيحية في إفريقيا من شر على عاتق دوناتوس.

---

[1]– الكنيسة الافريقية: هي الكنائس المنتشرة في مختلف مقاطعات الولاية الرومانية الافريقية وعند بداية الانشقاق الذي أحدثه دوناتوس، إنقسمت الكنيسة الافريقية إلى كنيستين: الكنائس الرسمية التي تتبع كنيسة قرطاجة ، والكنائس الدوناتية التي تتبع كنيسة دوناتوس، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288– 289.

[2]– أساقفة نوميديا: هم الأساقفة الذين كانت كنائسهم في المنطقة التي تشمل الحدود السياسية لمملكة نوميديا، المستقلة قبل فترة الاحتلال الروماني، وخلال فترة الحكم الروماني تشمل منطقة نوميديا مقاطعتي افريقيا الجديدة وموريطانيا القيصرية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288– 289.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 288– 289.

[4]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 289.

غير أن دوناتوس لم يكن وحده من رفض الاعتراف بأسقفية كيكيليانوس ذلك أن معظم المسيحيين في نوميديا رفظوا الاعتراف بأسقف قرطاجة الجديد ووجهوا له نفس التهمة التي وجهها إليه زعيمهم وقائدهم الروحي دوناتوس، بل إنهم نسبوا إليه استخدام القوة والعنف ضد المسيحيين لتشتيت تجمعاتهم أمام سجن قرية أبيتينا السالفة الذكر، وأنّه منع المئونة عن السجناء من المسيحيين[1].

وهكذا وجد دوناتوس الظروف مهيأة والمناخ الاجتماعي مناسبا للإعلان عن حركته واعتمد على المسيحيين، الناقمين على كنيسة قرطاجة أرضية شعبية[2] كثيرة السواعد متذمرة على سوء الأوضاع الاجتماعية والمادية. واجه دوناتوس الأسقف كيكيليانوس على طليعة هذه الأرضية الشعبية المتجانسة الذي وجدت في شخصية دوناتوس الزعيم المنتظر، ومن ثمّ أصبح كل مؤيد ومدعم لدوناتوس، عضوا في الحركة الجديدة التي أصبحت تسمى الدوناتية (Donatismus) نسبة إلى زعيمها دوناتوس[3].

ولما بادر الإمبراطور قسطنطين الأول بالاعتراف بالمسيحية وتأييد الكنيسة المسيحية ماديا ومعنويا، أظهر الإمبراطور قسطنطين الأول تأييده لكيكيليانوس وحمّل الأساقفة وكذلك كنيسة روما على الاعتراف به كأسقف شرعي في إفريقيا، وكان كيكيليانوس قد بذل قصارى جهده لتحطيم عدوه دوناتوس موظفا مختلف الوسائل لبلوغ هدفه، ومنها استعطاف الإمبراطور كي يضع حدا لنشاط هذا المنافس الشرس، حيث اتهم كيكيليانوس خصمه دوناتوس بإشاعة الفوضى وإثارة الفتن والعمل على إشعال نار الحرب في المغرب الروماني[4] عن طريق أتباعه في الداخل (داخل المقاطعة الإفريقية الرومانية)، كما استنجد كيكيليانوس بالمجامع الكنسية في المقاطعات الإفريقية وإيطاليا وغالة قصد إصدارها إدانة ضد دوناتوس. فكان له ما يريد، حيث تم إجماع ممثلي كنائس الغرب

---

[1]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 289.

[2]– أرضية شعبية: هو الرأي العام الشعبي الذي اعتمد عليه دوناتوس في صراعه ضد الكنيسة الرسمية والسلطة الامبراطورية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 289.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 289.

[4]– المغرب الروماني: هي الفترة الزمنية التي كان فيها المغرب جزءًا من الإمبراطورية الرومانية وتحدد زمنيا ما بين (146 قبل الميلاد إلى غاية 439م)، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 289– 290.

الروماني في أرلس أوت عام 314م على سحب شرعية حركة دوناتوس، ورفضوا الاعتراف بها وقرروا إدانتها وطالبوا بوضع حد لها[1].

غير أن هذه الإدانة التي كانت من اقتراح قسطنطين بدت للدوناتيين تدخلا من قبل السلطة الإمبراطورية في قضايا وملفات المسيحيين، وأنه من واجب أتباع الدوناتية معارضة هذا الإجراء ومقاومة ما ينجر عنه من نتائج وبهذا الموقف حوّل الدوناتيون قرارات مجمع أرلس إلى عامل قوّي دعّموا به حركتهم النضالية، بحيث يرددون في كل مناسبة أنّه ليس من صلاحيات الإمبراطور قسطنطين التدخل في شؤون الدين والكنيسة[2].

وكدليل على رفض أتباع المذهب الدوناتي تدخل السلطة الزمنية في شؤون الكنيسة هو احتجاج ممثليهم في محاكمة قرطاجة عام 411م بشدة ضد تدخل السلطة الزمنية[3] (الدولة) في الخلاف القائم بينهم وبين أتباع المذهب الكاثوليكي (العالمي). وهو الاحتجاج الذي سجله التاريخ لهم كأقوى المواقف الشجاعة وأروعها[4].

ويبرز الطابع الاجتماعي والسياسي للدوناتية في أنّها لم تسهم في الاجتهاد اللاّهوتي المسيحي، فلم يزود رجالاتها المرموقون كنيستهم الدوناتية بمذهب جديد يرتكز على فكر لاهوتي مستقل يمكننا من خلاله أن نطلق عليهم إسم العقائديين، ذلك أن الحركة الدوناتية قد اعتنقت المسيحية على المذهب الأورثوذكسي[5] منذ البداية وظلت وفية له[6].

ثمّ إنّها تعلقت بالمبادئ المسيحية الأولى الشاملة للمعاني والقيم الإنسانية وللعدالة الاجتماعية ممثلة في الدعوة إلى مقاومة البطش السياسي بقوة الإيمان والصبر، ومن ثم فهي قد

---

[1]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 289– 290.

[2]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 290.

[3]– السلطة الزمنية: هي السلطة السياسية الحاكمة التي تتمثل في سلطة الامبراطور الروماني، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 290.

[4]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 290.

[5]– المذهب الأرثوذكسي: هو مذهب الكنيسة الشرقية المتركزة في مدينة القسطنطينية وهو مذهب الدولة ويعرفه بعض المؤرخين بقانون الإيمان أو قانون الأمانة عند ابن خلدون، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 290.

[6]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 290.

حافظت على أهم العائلات الأولى التي تنصرت واعتنقت المسيحية منذ فجر حركة التبشير في المغرب الروماني. تلك التي يبدوا أن الدوناتيين رأوا فيها وسيلة لتكوين كنيسة إفريقية تعبر عن آمال وطموحات الجماهير المقهورة، أي إنهم أرادوا أن يتخذوا من اتجاههم الديني حركة معارضة ومطلب سياسي في آن واحد، فالدوناتية بهذا المفهوم الشامل كانت أفضل تعبير عن إرادة الأهالي وأكثر شعبية من الكنيسة الكاثوليكية[1].

ولعل التزام الحركة الدوناتية بمبادئ السيد المسيح الأولى كان نابعا من رغبة رجالها وأتباعها في التمسك بأقوى سلاح لمقاومة سياسة الإمبراطور التي كانت ترمي إلى استغلال المسيحية لأهداف سياسية حكومية، وبالتالي تفريغها من مضمونها الأخلاقي والاجتماعي وهو صلب ما تدعوا إليه المسيحية، من هذا المنطلق كان الدوناتيون يعتبرون كنيستهم هي الممثل الشرعي للمسيحية في المغرب وأن المنشقين الحقيقيين هم الكاثوليك لأنّهم ابتعدوا عن المبادئ المسيحية الأولى. هذا ما جاء في مرافعات محاميهم خلال جلسات محاكمة قرطاجة المشار إليها آنفا، حيث رددوا أن المسيحية الحقة الخالصة هي التي احتفظ بها ودافع عنها أنصار المذهب الدوناتي، وأنهم ورثة المبادئ المسيحية الأولى والشهداء والقديسيين[2]، وأن غيرهم أي الطائفة الكاثوليكية من يجب أن يحاكم ويسأل لأنهم تخلوا عن الدين وتواطئوا مع السلطة الحاكمة، وابتعدوا عن المنهج الذي ضحى المسيحيون الأوائل بأرواحهم لبلوغه[3].

ومن جانب آخر يمكن أن ندرك من خلال مواقف الدوناتيين ما يدّعم فكرة الإصرار لديهم على التمسك بالمضمون الاجتماعي والسياسي لحركتهم، من ذلك أنّهم اتصفوا بالعمل الصامت والامتناع من الدخول في نقاش خصومهم الكاثوليك[4] في القضايا الدينية أو الاجتماعية أوالسياسية

---

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 290- 291.

[2]- القديسيين: جمع قديس وهو لقب شرفي يعطى لرجل أو امرأة أفنو أعمارهم في خدمة الكنيسة والعمل على نشرها كالقديس أغسطين وباللغة الفرنسية (Saint)، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 291.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 291.

[4]- خصومهم الكاثوليك: هم أتباع المذهب الكاثوليكي المعارضون والمقاومون لأتباع المذهب الدوناتي، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 291- 292.

ذلك الامتناع الذي استنتج منه عدوهم ومعارضهم أوبطا الميلي بأنهم كانوا يخشون الفشل في الدفاع عن مواقفهم ومن ثمّ يفقدون امتيازاتهم ويسقط نفوذهم الديني في الأوساط الكنسية الدوناتية[1].

ويبدوا أن امتناع المذهب الدوناتي عن محاورة خصومهم الكاثوليك نابع من كونهم حددوا موقفا نهائيا من كنيسة الدولة (الكاثوليكية) ومن المنتمين إليها ،وانصرفوا إلى الاهتمام بما هو أهم من الجدل. أي تنظيم شؤون حركتهم المعرضة للقمع والاضطهاد وتعميق مبادئهم في نفوس الجماهير استعدادا للمواجهة ضد الكاثوليك[2].

وممّا يقوي هذا المبدأ المقاطعة التي انتهجتها الحركة الدوناتية حيال الكاثوليك، من أمثلة ذلك أنّها كانت تدعوا أتباعها للامتناع عن تبادل التحية أو الكلام مع الكاثوليك وتجنب الجلوس معهم أو الذهاب إلى أماكن جلوسهم، وكذلك عدم مخاطبتهم بعبارة "الأخ" أو "الأخت"، وكذا الامتناع عن مصاهرتهم، كما أمر أسقف عنابة[3] (هيبون) ذو المذهب الدوناتي الخبازين بعدم تقديم الخبز للكاثوليك وأصدر أساقفة الدوناتية أوامر تقضي بمنع الكاثوليك من دفن موتاهم بمقابر الدوناتيين وتحظر عليهم استعمال أدواتهم الجنائزية، وهكذا آمن الدوناتيون أن الكاثوليك ملوثين بدناسة الكفر والردة ومن ثمّ لا يجوز لهم مشاركة الدوناتيين في أداء الشعائر الدينية أو التردد على أماكنهم المقدّسة، ثم إنه عندما تتحول كنائس كاثوليكية إلى أيدي الدوناتيين كانوا يقومون بإجراء أعمال التطهير الكاملة بدءا من الأدوات الصغيرة والأثاث إلى الجدران والسقف والأرضيات، وذلك بالغسل أو التقشيرأو الحرق.

---

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 291- 292.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 292.

[3]- أسقف عنابة: هو أسقف كنيسة عنابة (هيبون) أحد أكبر الكنائس الدوناتية في المغرب، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 292.

أمّا الأشخاص التاركون الكاثوليكية والمعتنقون المذهب الدوناتي فكان عليهم أن يمروا بمرحلة الوثنية ثمّ يعتنقون المسيحية على المذهب الدوناتي على أساس أنّهم كانوا مرتدين[1] والمرتدون أشد دناسة من الوثنيين في نظر الدوناتيين[2].

وتوحي هذه المقاطعة عن منحاها الاجتماعي السياسي في أنّها محورت جهود زعماء النحلة الدوناتية حول تجنيد الجمهور عن طريق توعيته بالموقف وتزويده بمجموعة من المبادئ والسلوكات الموحية عن أهداف الحركة كي تكون بمثابة الشعارات الدينية السياسية الرافضة والمقاومة للأوضاع السياسية والاجتماعية المعاشة في تلك الفترة، ومن ثم يمكن اعتبار الدوناتية بهذا المفهوم حزبا سياسيا دينيا اتضحت مطالبه الاجتماعية والسياسية في تمسكه بمبادئ السيد المسيح الأولى المناهضة للظلم الاجتماعي واستبداد السلطة الحاكمة، وفي امتناعه عن الخوض في مناقشة خصومه أو التعامل معهم حرصا منه على سلامة مبادئه المناهضة للوضع السياسي والاجتماعي الحاصل عن تحالف المرتدين (أتباع المذهب الكاثوليكي) مع السلطة الإمبراطورية كما تجلت تطبيقات مبادئه عمليا في تعميق الهوة بين أتباعه وأتباع الكاثوليكية عبر المقاطعة الإفريقية واتهام الكاثوليكيين بالخيانة والارتماء في أحضان السلطة، وتحولهم إلى عملاء لشخص الإمبراطور في المقاطعات الإفريقية[3].

وهناك مظهر آخر يمكن إضافته إلى كل ما سبق في تسيير أبعاد الدوناتية. وهو الامتداد الزمني الذي غطت به القرن الرابع الميلادي وما بعده، والذي يأتي لتأكيد قدرة قادة الحركة على مواجهة الخصوم، وعلى تعلق القاعدة الشعبية من الأهالي المنتصرين بهذه الحركة لكونها أفصحت عن طموحاتهم الاجتماعية[4] وتطلعاتهم السياسية بالإضافة إلى بساطة شعائرها وطقوسها الدينية

---

[1]– مرتدين: من الردة وهو الاتهام الذي وجهه الدوناتيون للكاثوليك وهي سياسة دينية تعامل بها الدوناتيون مع أتباع المذهب الكاثوليكي وهي سياسة أكثر تطرفا كتلك السياسة التي تجمع الدوناتيين مع الوثنيين، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 292.

[2]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 292.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 292– 293.

[4]– طموحاتهم الاجتماعية: أهدافهم الاجتماعية المتمثلة في تحسين مستوياتهم الاجتماعية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 293.

التي مكنتها من التغلغل في أوساط الجماهير المنتمية إلى الطبقة العامة، التي كان معظم أفرادها يجهلون اللاّتينية[1].

لقد أحدث ذلك الامتداد الزمني الطويل لتلك الحركة الدوناتية من التحول إلى عقيدة نضالية توارثت الأجيال اعتناقها والدفاع عنها. ومن ثمّ أصبحت تشكل رصيدا روحيا ونضاليا ساهم في تكوينه السلف بالمعاناة والتضحية فغدا أمانة مقدسة في رقاب الخلف وربما ضاعف عن قيمة هذا الإرث النضالي أنّه كان مرتبطا برصيد نضالي متعدد الأشكال والمراسي ضد الهيمنة الأجنبية وآثار التفاوت الاجتماعي[2] بحيث لم يكن يميز الإنسان العادي بين ما كان يصيبه من جانب السلطة المدنية من ضرر ناجم عن الشطط في جمع الضريبة مثلا، وبين ما كان يتعرض له من اضطهاد على يد رجال السلطة المبعوثين بإيعاز من الكنيسة الكاثولوكية لحمله على إتيان هذا العمل أو ذلك مما كان يدخل في إطار الشقاق الديني بين الكنيسة الكاثوليكية والدوناتية، ومن ثم تمكنت الحركة الدوناتية مندمجة مع الحركات الثورية المعاصرة لها من أن تملأ حيّزا هاما في ذاكرة الأهالي، وأصبحت عنصرا حيويا من العناصر المؤسسة لشخصيتهم التاريخية التي يغلب عليها الطابع التحرري وكذا الروح الاستقلالية من القيود الأجنبية[3].

وهناك ما يمكن أن يعبر بصدق أوضح، مما تم ذكره سابقا عن النزعة السياسية "الوطنية" للمذهب الدوناتي، ونعني به موقفها من الصراع السياسي المعاصر لها، كثورة الريفيين وحركة الأميرين فيرموس وجيلدون، لقد بادرت الدوناتية بتأييد الثورة الريفية وقام أساقفتها باحتضان فرق الثوار وأدمجوها في صفوف الحركة الدوناتية بحيث أصبح أولئك الثوار البسطاء محاربين أوفياء ومخلصين للسيد المسيح ولحزب دوناتوس، كما فتحت الدوناتية كنائسها لثورة فيرموس[4] ودعمتها

---

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 293.

[2]- التفاوت الاجتماعي: هي الطبقية الاجتماعية أي انقسام المجتمع إلى طبقات، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 293-294.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 293- 294.

[4]- ثورة فيرموس: هي الثورة التي اعتمد عليها أنصار المذهب الدوناتي في صراعهم مع الكنيسة الرسمية مع السلطة السياسية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 294.

ماديا ومعنويا وذلك بشهادة القديس أوغسطين الذي اتهم الدوناتيين بأنهم كانوا جنودا مخلصين لفيرموس ودعاهم باسمه فيرمياني (Firmiani).

أمّا حركة جيلدو ن[1] فقد ساهم فيها أساقفة دوناتوس المشهورون أمثال أوبتاتوس التمغادي (OpetatusThamugadensis)، الذي لقب بالجلدوني دليلا على تحمسه الشديد لحركة هذا الأمير الطموح[2].

وبإمكاننا أن نستشف من التهم التي وجهها أوبطا وأوغسطين إلى زعماء الدوناتية وفي مقدمتهم دوناتوس، ما يعزز القول بالمحتوى السياسي لهذه الحركة، من ذلك أن أوبطا الميلي إتهم دوناتوس بالسعي إلى السيطرة على كنيسة قرطاجة والاستقلال من قيود السلطة الإمبراطورية[3].

وأنّه لم يكن يعترف بالإمبراطور واضعا نفسه في المرتبة الثانية بعد الإله، وأضاف أوبطا أن دوناتوس كان يبادر الزائرين لقرطاجة من أعماق البلاد بالسؤال عن مكانة حركته وحزبه لا عن دين السيد عيسى المسيح عليه السلام، وأنّه لم يكن يسأل القادمين إليه عن حالة المطر والمحاصيل الزراعية ولكنه كان يردد على مسامعهم "كيف حال حزبي عندكم"[4].

وكان القديس أوغسطين يتألم للحظوة الكبيرة والمكانة السامية التي حظي بها دوناتوس لدى أتباعه، فكان يخاطبهم أوغسطين بحسرة ومرارة: « أنتم الذين ترددون دائما إسم دوناتوس، فما حكم دوناتوس؟ ... لماذا تهتفون بحياة دوناتوس أو تمدحونه بعبارات المجد والبطولة؟ وتنعتونه بصفات هي أحق بالمسيح عنه، مثل هتافكم: « تحيا أيّها القائد الممتاز أيها القائد العظيم؟ تقولونها ملء حناجركم...»[5].

إنّه على الرغم من صعوبة التأكد من هذه النعوت التي تنطوي على معان هامّة لفقدان القرائن التاريخية المتمثلة في كتابات الدوناتيين، فإننا لا نجد مبررا في إهمال دلالتها على المكانة

---

[1]– حركة جيلدون: هي الحركة السياسية العسكرية التي اعتمد عليها الدوناتيون في صراعهم مع السلطة السياسية وهي حركة قامت في المغرب الروماني، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 294.

[2]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 294.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 294.

[4]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 294– 295.

[5]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 295.

الخاصة التي تمتع بها زعماء الحركة الدوناتية لدى جماهيرهم، تلك المكانة التي تنم عن الأبعاد التي إتخذتها تلك الحركة بحيث لم تنحصر على مجرد انشقاق ديني[1] معزول من التأثير بالظروف المحيطة والتأثير فيها. إن شهادة أوبطا الميلي بنزوع دوناتوس نحو الزعامة السياسية في ظل الانشقاق الديني لتعبر عن حاجة الطبقة المسيحية إلى قيادة سياسة دينية تقود نضالها ضد الأعداء، ثمّ إن تعبير أوغسطين لأتباع دوناتوس بالمبالغة في التعلق بزعيمهم دوناتوس ينطوي على الآمال السياسية والاجتماعية التي كان يأمل أولئك الأتباع أن تحققها حركتهم بقيادة زعيم كبير متجلد، إن الحماس الفياض للجماهير المنبعث من أعماق الأمل في الخلاص جعلها لا تميز بين الريادة والزعامة الدينية والعلمانية (الزمنية، السياسية)، فهي حين تنادي باسم دوناتوس قائدها الممتاز العظيم، على حد قول أوغسطين، لم تكن تفرق بين عظمة القائد وقدسية الله الذي منحها هذا الرجل الذي سيحررها من الهوان والضعف[2].

. مراحل الثورة الدوناتية:

مرت الحركة الدوناتية في ظل هذه المعطيات التاريخية بمراحل نجملها في ثلاث مراحل أساسية:

- مرحلة الظهور والإنتشار:

ليس هناك تاريخ مضبوط يحدد انطلاق هذه الحركة، غير أن المختصين في تاريخ الدوناتية ربطوا زمن بدايتها بأحداث قرية أبيتينا السالفة الذكر، لكننا نلاحظ أن بذور الخلافات الدينية تعود إلى زمن أسقفية كبيريانوس (249- 258م) التي تزامنت مع إجراءات الإظطهادات الكبرى على يد دقيوس[3] والتي كان من عنفها وشدة وقعها أن بعض المسيحيين ارتدوا عن المسيحية. فطفت مشكلة المرتدين التي استعصت على كبيريانوس ولم يتمكن من حلها، وهنا نلاحظ وجه الشبه الكبير بين ظروف وأحداث أسقفية كبيريانوس وأحداث قرية أبيتينا، فالخلاف

[1]- انشقاق ديني: انقسام ديني، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 295.

[2]- دقيوس: هو امبراطور روماني حكم الامبراطورية الرومانية ما بين (249- 251م)عرف عنه اضطهاده الشديد للمسيحيين عام 250م، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 295.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 295- 296.

حول مشكلة اتقاء الأذى كان قد ظهر منذ أواسط القرن 3م وتجلى في عدم قدرة الأسقف كبيريانوس في حسم الخلاف حول قضية المرتدين أو المتظاهرين بالكفر في أنّه لم يتمكن من إقناع جميع أساقفة إفريقيا وقساوستها بوجهة نظره، حيث واجهه نفر منهم بمعارضة شديدة فاضطر إلى طرد خمسة منهم من الكنيسة. وهم الذين تشددوا حيال المرتدين أو المتظاهرين بالكفر، وقد تمكن أحد أولئك الخمسة ويدعى نوفاتوس (Nufatus) من تأسيس كنيسة منافسة لكنيسة قرطاجة واجه من خلالها الأسقف كبيريانوس المتسامح في قضية المرتدين التائبين العائدين إلى حظيرة الكنيسة المؤسسة من قبل نوفاتوس التي لم تتمكن من تحقيق الانتصار على كبيريانوس[1] بعد أن فشلت مقاومتها في الاستحواذ على أسقفية قرطاجة أمام كبيريانوس الذي طاردهم دون أن يتمكن من القضاء عليهم أو إزالة وجودهم[2].

غير أن هذه الحوادث لا تحملنا على الخوض فيما يمكن أن يطرح حول علاقة هذه الخلافات بظهور الدوناتية من تساؤلات تتعلق بانصراف الذهن إلى احتمال وجود علاقة بين بقايا الكنيسة المعارضة لكبيريانوس وبين حركة دوناتوس في بداية القرن الرابع الميلادي، الذي أحدث جوا مشابها للذي أحدثه المنشقون عن الأسقف كبيريانوس بقيادة نوفاتوس[3].

امتازت المرحلة الأولى من الحركة الدوناتية بالمقاومة السلمية لإجراءات التوحيد التي قامت بإصدارها السلطة الإمبراطورية، فلم يستعمل الدوناتيون القوة للدفاع عن أنفسهم أو نصرة نحلتهم أمام أعمال القمع والعنف التي انجر عنها أضرار جسمية، من ذلك أن قرار الإمبراطور قسطنطين الصادر عام 316م كان يقضي بتوحيد المسيحية في المقاطعات الإفريقية بكل الأدوات والطرق ومن ثمّ قام حكام المقاطعات الرومانية أمثال ليانتيوس (Leantius) وأورساكيوس (Ursacius) بحملات عسكرية لإخضاع المنشقين عن الكنيسة الرسمية في قرطاجة وإرغامهم على الانضواء

---

[1]- كبيريانوس: هو أسقف كنيسة قرطاجة وهو أحد أعلام الكنيسة الافريقية عاصر عهد الإمبراطور دقيوس وفاليريانوس الذي تميز عهديهما بالاضطهاد والقتل ضد الطائفة المسيحية وارتد كثير من المسيحيين عن دينهم بسبب هذه السياسة القاسية من قبل السلطة الامبراطورية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 295- 296.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 295- 296.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 296.

تحت سلطتها تطبيقا لأوامر الإمبراطور، وارتكبت خلال الحملات العسكرية أعمال قمع واسعة ذكرت الناس بعصر الاضطهاد. وكانت الكنائس الدوناتية ميدانا لمختلف أشكال التعذيب على يد الجنود، فسقط كثير من الضحايا وأراق الجيش دماء غزيرة في مختلف المدن التي ناصر سكانها حزب الدوناتية. وقابل الدوناتيون ذلك العنف والقمع والتعذيب بالصبر وشدّة التحمل ورباطة الجأش، فلم تنل من عزيمتهم أعمال الاضطهاد بل زادتهم إيمانا بمبدئهم وإصرارا على التمسك به وهو ما كان عاملا قويا في ازدياد قوة حركتهم ورسوخها في نفوس أتباعها[1].

وعمل الدوناتيون في هذه المرحلة التي امتدت إلى عام 347م على التركيز على تنظيم حركتهم وتوسيع نطاق أفكارهم بين النّاس، وقد لعب قائد الحركة الدوناتية الأسقف دوناتوس الكبير دورا رئيسيا وفعّالا في توسيع القاعدة البشرية والجغرافية للدوناتية فضمت معظم أنحاء المغرب القديم المتنصر[2] متغلغلة في الأرياف والمدن والحواضر الكبرى كبونة وقيرطا التي وجدت بها المسيحية من قبل، وتمكن دوناتوس خلال هذه الفترة من إعطاء حركته مفاهيم ومحتويات سياسية واقتصادية واجتماعية، فالتف حولها جمهور الفقراء والمضطهدين، وتعامل معها أصحاب الأهداف السياسية أيضا، ومن ثمّ أصبحت الدوناتية تمثل اتجاها واضحا في مفهوم رجال الدين الكاثوليك وسلطة الإمبراطور، وعناصر الطبقة الأرستقراطية في مجتمع ذلك العصر[3].

- مرحلة المواجهة:

أمّا هذه المرحلة فيمكن إظهار الفارق عن سابقتها بظاهرة العنف التي أصبحت أداة للدوناتيين للدفاع عن وجودهم، وذلك ابتداءً من عام 347م، وهي السنة التي أراد فيها الإمبراطور قسطانز[4] أن يوحد المسيحيين ويقضي على منبع الفتن والثورات في إفريقيا، فظهر له أن أسباب الانشقاق المسيحي والقلاقل الاجتماعية والحركات الثورية تكمن في الفقر والشقاء، فأمر بتوزيع

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 297- 298.

[2]- المغرب القديم المتنصر: المغرب في العهد المسيحي، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 297- 298.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 297- 298.

[4]- الإمبراطور قسطانز: هو الامبراطور الذي حكم المقاطعة الافريقية بعد قرار التقسيم السياسي للإمبراطورية الرومانية بعد وفاة قسطنطين عام 337م، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 298.

الصدقات على الطبقات المعوزة من النّاس، وحمل العصاة منهم على الرضوخ للقانون وسيادة الدولة وإرغام الروافض على العودة إلى حظيرة الكنيسة الرسمية وحل مبعوثو قسطانز بالبلاد وراحوا ينفذون تعليماته، فأغدقوا على النّاس لاستمالة قلوبهم نحو السلطة، فقاومت الدوناتية تلك الإجراءات وحثت أتباعها لرفض الصدقات ورد دوناتوس على سفراء الإمبراطور بقوله أنّه ليس من حق الإمبراطور قسطانز التدخل في أمور الكنيسة[1].

وتدخل الجيش لتطبيق أوامر الإمبراطور المتعلقة بتوحيد الكنيسة تضرب الرافضين بقوة وخاصة في مدينة باغاي التي قام دوناتوس إلى تحويلها إلى مركز للمقاومة وقام يجعل كنائسها مخازن تموين للمدافعين عن القضية الدوناتية[2].

وسقط ضحايا كثيرون في باغاي وفيجيزيلا وتبسة وغيرها، وصودرت الكنائس الدوناتية وممتلكاتها ووضعت تحت تصرف الكاثوليك الذين كان أساقفتهم على رأس الجيش المهاجم[3].

وتميزت هذه المرحلة بالتحالف بين الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية من جانب وبين الحركة الدوناتية والثوار الريفيين من جانب آخر، وتبلور ذلك التحالف في أن الكاثوليك أصبحوا يقومون بممارسة الحرب العسكرية إلى جانب الكلامية ضد الدوناتية داعين السلطة إلى التعاون معهم لإجبار أعدائهم على الخضوع، بينما تخلى الدوناتيون عن مبدأ المقاومة السلمية واعتمدوا على الثوار الريفيين في الدفاع عن كيانهم ضد الكاثوليك المحتمين بسيوف الجيش الروماني فكانت حروب عام 347م[4]، تجسيدا لهذا التطور في مجريات الصراع[5].

وأصاب الدوناتيين وحلفائهم على يد الجيش الإمبراطوري ودعاة الوحدة الدينية الكاثوليك ما أصاب المسيحيين من قبل في فترات الاضطهاد على يد الوثنيين، ولقد تركت تلك الأحداث الدامية

---

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 298.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 298.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 298.

[4]- حروب عام 347م: هي المعارك العسكرية التي جسدت الانقسام الديني السياسي في المغرب الروماني ما بين السلطة الامبراطورية والكنيسة الرسمية والسلطة السياسية والحركة الدوناتية والثوار الريفيين، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 298-299.

[5]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 298- 299.

في نفوس أتباع المذهب الدوناتي آثارا عميقة لم تتمكن الأيام من إزالتها، فكان بتيليانوس[1] (Petilianus) يردد ذكرى تلك الأضرار في وجه خصوصه الكاثوليك قائلا: «إن الكتاب المقدس يقول «لا تقتل أخاك وأنتم قتلتمونا» «ولا تأخذ متاع غيرك» وأنتم نهبتم أملاكنا واعتبرتموها ملكا لكم...»[2].

مما يوحي بأنّ هذه المرحلة قد اتصفت باستباحة كل طرف للآخر بسبب تمكن الأحقاد والضغائن من النفوس وتعذر إمكانية تحقيق الصلح بين الطرفين فتحولت المواجهة إلى حرب بدا النصر متعذرا بالنسبة لكل طرف إلا بعد القضاء ومحو خصمه[3].

كما تميزت هذه المرحلة ببروز مجادلين أقوياء في صفي الطرفين المتصارعين، من بينهم بارمينيانوس (Parmenianus) الدوناتي، الذي قام بتأليف كتاب في خمسة أجزاء ضمنه في الدفاع عن المذهب الدوناتي. لكن لم يصلنا عنه سوى فقرات ضمن ردود خصمه أوبطا الميلي على آرائه[4]. ثمّ أنّ أوبطا الميلي رائد الجدل الكاثوليكي المعارض والمناهض للدوناتية الذي ألّف كتابا حماسيًا شديد التحامل على النحلة الدوناتية[5]، عارض فيه آراء بارمينيانوس وسماه «كتاب الرد على بارمينيانوس الدوناتي Contra Permeniaum donatistum»، قام بتأليفه عام 366م ثمّ جاء بيتيليانوس (Petilianus) أسقف قرطا الدوناتي الشهير الذي كتب في أصول الدوناتية شارحا تاريخها، غير أنه لسوء الحظ أن مؤلفاته قد اندثرت ولا يوجد حولها سوى الإشارات التي ذكرها أوغسطين للرد على صاحبها في كتابه « ضد رسائل بتيليانوس Contra Lettras Petiliani»[6].

ثمّ يأتي عملاق الكاثولوكية وأحد أقطاب اللاهوتية المسيحيين القلائل القديس أوغسطين الذي لم يتردد في استعمال جميع الطرق والوسائل والإمكانيات لتحميل الدوناتيين على الرضوخ

---

[1]- بتيليانوس: هو أسقف قيرطا الدوناتي،شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299.

[4]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299.

[5]- النحلة الدوناتية: المذهب الدوناتي، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299.

[6]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299.

لسلطة الإمبراطور وكنيستها الرسمية في قرطاجة بما في ذلك إفتاؤه بجواز وشرعية استخدام القوة لإرجاع المنشقين الدوناتيين[1]. إلى الكنيسة الكاثوليكية، وهي الفتوة التي أخذها عليه مؤرخو الكنيسة[2].

ويبدوا من خلال مستوى الجدل أن أساقفة المذهب الدوناتي كانوا لا يقلون عمقا عن أعدائهم الكاثوليك في دراستهم للقضايا المطروحة، ولا أقل منهم تمكنّا من فهم والسيطرة على اللغة اللاّتينية وآدابها[3].

وتميزت هذه المرحلة إلى جانب ما ذكرنا بالشمولية وبنزوع زعماء المذهب الدوناتي إلى المساهمة في الأحداث السياسية الحاصلة في عهدهم، والتعامل مع القوى السياسية والعسكرية المناهضة للإمبراطورية مثل ثورتي الأخوين جيلدون وفيرموس. فعبرت بذلك عن الدوافع السياسية الكامنة من وراء الانشقاق الديني، وهذا ما حمّل الأباطرة على وضع الدوناتية في مصف الأحزاب السياسية المتربصة بالسيادة الرومانية فأخذوا على عاتقهم مهمة متابعة الدوناتية عسكريا وقانونيا (محاكمتها) قصد استئصال جذورها من المقاطعات الإفريقية التابعة للسيادة الرومانية، فطاردت الجيوش رجال الحركة الدوناتية وعاشت في كنائسها. وأفصح الإمبراطور هونوريوس[4] عن تشكيل محكمة خاصة لمحاكمة المنشقين وإصدار عقوبات ضد كل الفئات المتعاملة معهم، وهي المحكمة التي مارست جلسات محاكمتها بقرطاجة عام 411م[5].

وقررت المحكمة عقوبات متفاوتة القيمة على الدوناتيين وأجبرتهم على التنازل على كنائسهم وممتلكاتهم إلى الكاثوليك، غير أن إجراءات الردع لم توقف نشاط أتباع المذهب الدوناتي بصفة نهائية حيث تشير الأخبار إلى أن الدوناتية قد تواصل اعتناقها في كثير من الجهات وإن

---

[1]– المنشقين الدوناتيين: هو أتباع المذهب الدوناتي الذي استقلوا وانفصلوا عن جسم الكنيسة الافريقية الرسمية في قرطاجة، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 300.

[2]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 299– 300.

[3]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 300.

[4]– هونوريوس: هو الامبراطور الذي حكم الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية بعد قرار التقسيم السياسي عام 395م وحاول ايجاد حلول للمشكلة الدوناتية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 300.

[5]– شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 300.

الحركة واصلت نشاطها متوارية في الأقاليم الخارجية على نطاق السيطرة الرومانية، إلى غاية الفتح الإسلامي[1].

وتعد الفترة الزمنية ما بين محاكمة قرطاجة إلى نهاية المسيحية في إفريقيا هي المرحلة الأخيرة من تاريخ الدوناتية. وقد تميّزت بغموض ملامحها وقلة الحيوية التاريخية[2] بسبب الوهن والضعف الذي أصابها على يد الدولة في عهد الإمبراطور هونوريوس الذي اضطهد الدوناتيين بشدة وبالغ في إنزال العقاب عليهم إمعانا في إنقاص دورهم والحد من أثرهم على النشاط السياسي الذي ساهموا فيه بفعالية خلال ثورتي فيرموس وجيلدون[3].

2- أثر إصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع بعد وفاته:

أ- تطور العلاقة بين الإمبراطورية الرومانية والكنيسة:

كان انتصار المسيحية بعد اعتراف قسطنطين بها منذ عام 313م يستلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة والدولة والمجتمع من جهة أخرى، إذ أن الإمبراطورية الرومانية منذ عهد أغسطس كان لها دين رسمي هو الوثنية بمختلف عقائدها وأصولها وسلم كهنوتي مشكل من عدة رتب لكهنة يتمتعون بمساندة الحكومة وتأييدها، غير أن رجال الدين الوثنيين[4] لم يحاولوا إطلاقا التدخل في شؤون السلطة السياسية[5].

غير أنّ هذا الوضع الذي ميّز عمر الإمبراطورية الرومانية في العصر الوثني سرعان ما تغير في العصر المسيحي، إذ أن الكنيسة المسيحية أخذت تنموا شيئا فشيئا لتشكل دور سلطة جديدة تنافس السلطة السياسية، مما أوجد تباعدا بين السلطتين السياسية والدينية. وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة في شؤون السلطة العلمانية كان أكثر في غرب الإمبراطورية منه في شرقها حيث مكان وجود الإمبراطور الروماني، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الإمبراطورية الرومانية

[1]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 300- 301.

[2]- الحيوية التاريخية: هي قلّة الأحداث التاريخية، شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 301.

[3]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 301.

[4]- رجال الدين الوثنيين: هم موظفو الجهاز الديني في المرحلة الوثنية من عمر الامبراطورية الرومانية أي قبل عهد قسطنطين الأول، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 45.

[5]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 45.

الغربية بعد اضمحلال[1] الأخيرة وسقوطها منذ عام 476م. ومما أعان جهاز الكنيسة على تحقيق ذلك أنها اتبعت نفس مسلك الإمبراطورية الرومانية في تنظيماتها حتى غدا الأساقفة يقومون بإدارة أعباء التنظيم الإداري في أقاليم الإمبراطورية فضلا عن نهوضهم بأعباء مهامهم الدينية[2].

والواقع أن الاعتراف الإمبراطوري الذي أصدره قسطنطين لصالح المسيحية بحيث أصبحت ديانة مرخصة[3] (Religio Licitia)، وتلى ذلك أن أصبحت المسيحية دينا رسميا للإمبراطورية كانت له نتائج بعيدة الأثر بالنسبة للكنيسة وتنظيماتها الداخلية، ذلك أن التنظيم الكنسي امتاز بالبساطة المطلقة في العصور المسيحية الأولى، إذ لم يتجاوز الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض، لكل دائرة اجتماعية أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة[4].

والواقع الذي يجب الإشارة إليه أن فئة من الأساقفة امتازوا عن زملائهم بحكم ما لكراسيهم الأسقفية من أهمية قديمة أو ثروة عظيمة أو مساحة واسعة، ولكن على الرغم من ذلك لم توجد هيئة كنسية تلعب دور سلطة دينية ذات نفوذ فعّال في الحياة العامة.

وقد ظهر على رأس الكنيسة في غضون القرن الرابع الميلادي خمسة بطارقة في روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية، وهؤلاء يمكن تشبيههم بكبار الرؤساء الإداريين في الإمبراطورية الرومانية. وكان كل واحد من هؤلاء البطارقة يتبعه مجموعة من رؤساء الأساقفة الذي يشرف كل واحد منهم على شؤون كرسيه الأسقفي، وأخيرا يأتي قس الأبرشية في القرية. وهكذا ظهر سلم للوظائف الكنسية متدرج يشبه إلى حد كبير سلم الوظائف الإدارية في الهيكل الإداري للإمبراطورية الرومانية[5].

---

[1]– اضمحلال: هو مصطلح يعبر عن ضعف وشيخوخة دولة أو انسان وهي مرحلة عاشتها الامبراطورية الرومانية الغربية بعد مقتل الامبراطور فالنتيان الثالث عام 454م واستمرت إلى سقوط الامبراطورية عام 476م، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 45.

[2]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 45.

[3]– ديانة مرخصة: ديانة معترف بها من قبل السلطة السياسية الحاكمة، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46.

[4]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46.

[5]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46.

ثم كان أن أخذت الكنيسة المسيحية تحصل بصفتها ممثلة الديانة الرسمية للإمبراطورية على امتيازات خاصة من الحكومة الإمبراطورية، وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والإعفاء من الضرائب فضلا عن قيام الأساقفة بالفصل في المنازعات التي تنشأ بين المسيحيين[1].

ولم يدم الحال طويلا حتى أصبح نفوذ الأساقفة متزايدا بصفة تدريجية في أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية[2] من جهة وما قاموا بجمعه من صدقات وعطايا من جهة أخرى، لاسيما وأن الهبات التي قام بإعطائها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف شخصيا، مما عمل على إيجاد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين المسيحيين[3].

وهكذا ازدادت ثروة الكنيسة إلى درجة امتلاك الأراضي والضياع الواسعة التي تكفل العبيد والأقنان بفلاحتها وحصد منتجاتها ومحاصيلها، هذا بالإضافة إلى مساهمة الأباطرة في ازدياد الرصيد المالي للكنيسة بفعل الهبات والمزايا المالية التي قام الأباطرة بصرفها وتحويلها إلى رصيد الكنيسة، بالإضافة للتبرعات التي قام بتقديمها الأهالي عن طيب خاطر من ناحية ثانية[4].وسرعته حتى أدى ذلك إلى تحولها من منظمة دينية بسيطة ديمقراطية إلى هيئة وراثية ذات إدارة بيروقراطية مركزة، إلاّ أن الكنيسة دفعت ثمنا غاليا مقابل ما بلغته من عظمة، كلفها ذلك التخلي عن سياسة التسامح من جانب، وانتشار الفساد من رشوة وسرقة في جهازها من جهة أخرى، ذلك أن ازدياد ثروة خزينة الكنيسة واتساع أملاكها العينية[5] وعقاراتها في مختلف مقاطعات الإمبراطورية أدى إلى انقراض واختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة، وهي الروح التي سادت تاريخ الكنيسة في زمنها الأول، وحلت مكانها روح التفاخر والتباعد والقسوة وهي نتيجة حتمية للغنى المفرط

---

[1]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46.

[2]– مكانتهم الدينية: هي الأهمية التي كان يتمتع بها الأساقفة المسيحيون بفضل نشاطهم الديني، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46.

[3]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46.

[4]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 46– 47.

[5]– أملاكهم العينية: هي الأملاك كالمباني والعقارات والأراضي باستثناء الثروة النقدية، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 47.

المفاجئ. وهكذا أخذت الهوة بين الأساقفة ورعاياهم تزداد شيئا فشيئا مع مرور الوقت، وغدا كل واحد منهم يجلس على عرشه الأسقفي كما كان يفعل الحاكم الروماني من قبل، ولم يدم الأمر طويلا حتى أصبح قصر حاكم الولاية دون أهمية القصر الأسقفي بعد أن تشبه الأساقفة بالأمراء وازداد عدد أتباعهم وموظفيهم وحشمهم[1].

على أن القرن الرابع الميلادي لم يشهد قيام التنظيم الكهنوتي للكنيسة، فحسب وازدياد تدخلها في الشؤون السياسية، بل عرف أيضا تطور المعتقد المسيحي وتقدمه، وذلك أن السيد المسيح وضع للناس أسلوبا جديدا للعيش، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمي منظم. وطالما كان أتباعه ورسله (الحواريون الإثني عشر) يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أفراد ليسوا من الطبقة المثقفة فإن وضع لاهوت ومعتقد مسيحي لم يكن من متطلبات التبشير للمسيحية، لأنّه كان يكفي هؤلاء البسطاء أن يسمعوا عن قصة السيد المسيح وحياته ليتفهموا أسلوب حياة المسيحي في الحياة، ولكن انضمام المثقفين إلى دائرة المؤمنين بالمسيحية، الذين اعتادوا على التفكير الكلاسيكي وتمرسوا على طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة، أدى ذلك إلى تطور جديد حصل على الدراسات اللاّهوتية[2].

ذلك أن المتعلمين والمثقفين أخذوا يستفسرون عن العلاقة بين الله والسيد المسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة، كما تساءلوا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا إلى لحم ودم السيد المسيح، وسرعان ما أصبحت هذه المسائل الإعتقادية والإيمانية تشكل جانبا عظيما وتشغل جانب مهما من تفكير المسيحيين عندما أضحت المسيحية دينا رسميا للدولة الرومانية، ممّا استوجب وضع دراسات لاهوتية تضع أجوبة منطقية لتساؤلات المتعلمين ويقتنع بها المثقفون من معتنقي المسيحية[3].

وقد قام بوضع لاهوت مسيحي يجيب على تساؤلات المثقفين المسيحيين مجموعة من كبار مفكري المسيحية الذي يطلق عليهم لقب آباء الكنيسة (Les pères d'église) وأهمهم نجد

[1]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 47.

[2]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 47- 48.

[3]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48.

القديس كليمنت الإسكندري في القرن الثالث الميلادي، وأوريجن[1] وجيروم وأمبروز والقديس أوغسطين. وكان هؤلاء الآباء والمفكرين المسيحيين على معرفة عميقة وإدراك واسع بالفلسفة الكلاسيكية، لاسيما آراء الفيلسوف أفلاطون[2] (Aflaton) الحديثة منها، فاستخدموها في التبرير لأرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية في شكل رأي علمي تتقبله الطبقة المثقفة، هذا بالإضافة إلى محاولة هؤلاء الآباء إلى التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة، ومطالب الدولة والكنيسة في عصرها الجديد من جهة أخرى[3].

ب- نشأة البابوية:

على أن الاتجاه الذي سلكته الكنيسة، ومحاكاتها لنظم الحكومة الإمبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للإمبراطورية إمبراطور يتزعمها. وهنا ندرك مدى الفرق الواضح بين الشرق الروماني ونظيره في الغرب، ففي الغرب فإن الظروف العامة التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية فرضت على السلطة السياسية (الزمنية) استحالة وعجز الأباطرة الرومان الذي يمتد سلطانهم على الجزء الغربي من الإمبراطورية على التحكم في زمام وشؤون السياسة والدين. هذا الوضع أدى بالكنيسة الغربية إلى إيجاد شخص يكون على رأس الكنيسة ووقع الاختيار على شخص أسقف روما الذي تحول كرسيه الأسقفي إلى بابوية لها السلطة المطلقة والسيادة العليا على الكنيسة في مختلف أنحاء الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية[4].

أمّا فيما يخص شرق الإمبراطورية فإن جهاز الكنيسة قد أسلم زمام أموره للأباطرة الرومان ثمّ البيزنطيين بعد تقسيم الإمبراطورية عام 395م، حيث ازداد تدخلهم في الشؤون الكنسية خصوصا فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، حيث أصبحوا يتدخلون في سياسة الكنيسة الخارجية بالإضافة إلى نظمها وسياستها الداخلية، وهكذا غدا من الصعب وقف تدخل إمبراطور

[1]- أوريجن: هو أحد أباء الكنيسة والمساهم في وضع لاهوت مسيحي يتلاءم مع روح العصر، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48.

[2]- أفلاطون: هو فيلسوف يوناني نظّر منه أباء الكنيسة معتقدهم اللاهوتي في القرن الرابع بعد تحقيق الصلح بين الكنيسة والدولة بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية عام 313م، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48.

[3]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48.

[4]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48- 49.

بيزنطة في شؤون الكنيسة الشرقية، حتى أصبح إمبراطور الكيّان البيزنطي يمثل نوعا من القيصرية البابوية[1] (Caesaro Papism) أي توحد السلطتين السياسية والروحية (ما يخص الشؤون الدينية) تحت إمرته. ومن الواضح أن أسس هذه السياسية وضعها قسطنطين منذ اعترافه بالمسيحية وإنشائه القسطنطينية.هذا بالإضافة إلى سن قسطنطين لسنة جديدة سار عليها خلفاؤه من الأباطرة الشرقيين وهي دعوة الأباطرة البيزنطيين لإقامة المجامع الدينية العامة للقيام ببحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والمعتقد النصراني[2].

وعند الحديث عن المزايا والعوامل التي هيأت لكرسي أسقف روما الصدارة والزعامة على جميع أسقفيات الغرب الروماني نبين أنه من الشائع أن أهمية الكرسي الأسقفي تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التي يقوم فيها كرسي الأسقف. وإذا كان الشرق الروماني غنيا بمراكزه الحضارية الهامة التي تحولت إلى مراكز لكراسي دينية هامة وكبرى مثل كرسي الإسكندرية وأورشليم (القدس) وقيصرية[3] وأنطاكية والقسطنطينية، فإن الغرب الأوروبي ومنطقة المغرب لم يوجد به في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسيحية سوى كرسيي روما وقرطاجة. ومهما بلغ أمر الكنيسة الثانية فإنها لم تكن أن ترقى إلى مكانة كنيسة روما ذات الماضي العريق والشهرة العالمية والصيت الذائع، لهذا ليس من الغرابة أن يتمتع أسقف روما بمكانة متميزة مستمدة من عظمة مدينته روما عاصمة الإمبراطورية ومركز سلطتها السياسية والدينية، من هذا المنطلق قام أساقفة روما باستغلال هذه الأهمية والمكانة في تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على سائر أسقفيات الغرب الروماني[4]. هذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة

---

[1]– القيصرية البابوية: هو لقب أطلق على امبراطور بيزنطة بعد تحكمه في شؤون السلطة السياسية والدينية أي هو الرئيس الأعلى للدولة والرئيس الأعلى للكنيسة الأرثوذكسية القائمة في القسطنطينية عاصمة الدولة، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48– 49.

[2]– عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 48– 49.

[3]– قيصرية: هي منطقة في فلسطين ترتكز فيها أحد أقدم الكنائس المسيحية وهي كنيسة قيصرية التي ينتمي إليها يوسابيوس القيصري صديق الإمبراطور قسطنطين ومؤرخ حياته، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 49– 50.

[4]– أسقفيات الغرب الروماني: هي مختلف الكنائس المنتشرة في الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 49– 50.

بسهولة، إذ واجهوا عدة ألوان من المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجة[1].

أما إذا انتقلنا بالحديث إلى التنافس بين كنيسة روما ونظيرتها في القسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحي، فإن القسطنطينية ارتكزت على أنها مركز الإمبراطورية ومحل إقامة الأباطرة، وبالتالي يحق لبطريقها أن تكون له الرئاسة الدينية على العالم المسيحي كما كان لإمبراطورها الرئاسة السياسية. ولكن هذا الرأي صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين وظل محفوظا في الكنائس المؤسسة من طرفهم وخصوصا في كنائس أنطاكية والإسكندرية وروما. وهنا نجد أن كنيسة القسطنطينية مفتقرة إلى هذا التشريف، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى مكانها أو الاستشهاد قربها أو إنشاء كنيسة في موضعها لأن القسطنطينية نفسها لم تؤسس إلاّ في القرن الرابع، أمّا كنيسة روما فيكفيها فخرا أن اسمها ارتبط اسمها ارتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس[2]الذي اتخذ منه السيد المسيح صخرة بنى عليه كنيسته، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات، وإذا كان بطرس بحكم هذه الخطوة والتشريف يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل، فإن خلفاؤه أساقفة روما أحق البشر بأن يرثوا زعامة العالم المسيحي[3].

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والأسانيد شيء، ومحاولة فرض سيطرتهم شيء آخر، والحقيقة التي يجب الإشارة إليها هو أننا لا نعرف عن أساقفة روما في القرنين الأول والثاني أكثر من أسمائهم. ولقد تغير الوضع بداية من عصر قسطنطين عندما أخذت المراجع التاريخية تشير إلى بعض الباباوات الذين لعبوا دورا مؤثرا في توجيه سياسة الكنيسة. ومن هؤلاء الباباوات البارزين البابا داماسوس الأول (DamasusI) (366-384م) الذي دوّن مؤلفا إستعرض فيه

---

[1]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 49- 50.

[2]- القديس بطرس: هو أحد الحواريين الذين توجهوا إلى روما وأسس هنالك كنيسة القديس بطرس أحد أقدم الكنائس المسيحية في العالم الروماني في النصف الثاني من القرن الأول توفي هذا الشخص إثر اضطهادات الإمبراطور نيرون عام 64م، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 50.

[3]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 50.

مكانة كرسي روما الأسقفي وأكد سيادة البابوية وسموها كذلك عهد داماسوس الأول إلى جيروم وهو أحد أباء الكنيسة بترجمة الإنجيل[1] (العهد الجديد) إلى اللّغة اللاتينية. أما خليفته سيركيوس (Siricius) (384- 399م)، فترجع إليه أولى المراسيم البابوية التي وصلتنا، كما بقيت من عصره بعض خطابات رسمية عالجت مسائل معروضة على أسقف روما لحلها. وبعد ذلك أشتهر البابا ليو الأول (LeoI) (440- 461م) الذي تم في عهده الاعتراف بحكم البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب، ولعب دورا أساسيا في صدّ حملة الهون على إيطاليا عام 452م[2].

وأمام سمو مكانة البابوية وعظم شأنها كان الشرق البيزنطي مصرا على عناده ومعارضته للسياسة الدينية لأسقف روما أو بتعبير آخر بابا الفاتيكان، فاستمر الأباطرة البيزنطيون يدعون لإقامة المجامع الدينية للبث في المشاكل الدينية المطروحة، كماأخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين كنيسة روما والقسطنطينية من حيث المركز الديني. وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية في مجمع خلقادونيا عام 451م تأكيد هذه المساواة المطلقة في المكانة والامتيازات بين كرسي روما وكرسي القسطنطينية، ولكن مبعوث البابا ليو الأول قام بمعارضة هذا الرأي وألح على الأخذ ببعض قرارات مجمع نيقيةI على علو قيمة وأهمية كرسي روما. وهكذا زاد ارتباط باباوات روما بفكرة أنّهم خلفاء القديس بطرس، وفي عام 455م أصدر الإمبراطور فالنتنيان الثالث (425- 455م) إمبراطور الغرب مرسوما إمبراطوريا يقضي بوجوب خضوع جميع أساقفة الغرب للبابا[3].

وهنا نشير إلى وجود عوامل ثانوية ساعدت على تحقيق سيادة البابوية، منها ازدياد الذهاب إلى أساقفة روما لاستئناف القرارات القضائية التي أصدرتها المجامع الإقليمية أو صغار الأساقفة، مما أوصل أسقف روما إلى مرتبة القاضي الأكبر والسيد الأعلى[4].

---

[1]- الإنجيل: هو الكتاب السماوي الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام، عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص.50 -51.

[2]- عاشور،س.ع.ف.، 2009، ص. 50- 51.

[3]- عاشور،س.ع.ف. ، 2009، ص. 51.

*- من الواضح أنّ لفظ بابا Pope إنّما هو تحريف للفظ اللاّتينيPapa بمعنى أب ويمكن إطلاق هذا اللّفظ على أي فرد من رجال الكنيسة، ولكن العرف جرى في الغرب على أن يختص به أسقف روما وحده من باب التشريف.

[4]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 51- 52.

ومن هذه العوامل أيضا عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من الباباوات من ذوي الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفي أمثال ليوالأول، وجريجوري الأول[1] (GregoryI) (590-604م)، هذا فضلا عن أن انهيار وتفكك الإمبراطورية الغربية عام 476م ترك البابا وحيدا لا ينازعه السلطة سيد سياسي في الغرب، في الوقت الذي كان بعيدا عن سلطة إمبراطور القسطنطينية ونفوذه في مقاطعات شرق الإمبراطورية[2].

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية في صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجوري الأول الذي خضعت لسلطته الكنيسة الغربية كليا، وذلك باعتباره خليفة للقديس بطرس[3].

أما الشرق فقد ظل على إصراره المتمثل في استقلال إمبراطوريته وكنيسته عن الغرب وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تحليل وتفسير بعض المسائل الدينية كان دائما من الأسباب الأساسية التي عملت على زيادة اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية ومن أبرز أمثلة ذلك الخلاف الذي قام حول تفسير طبيعة السيد عيسى المسيح، إذ أدان مجمع أفسوس الأول (Afsus I) عام 431م الرأي القائل بفصل طبيعة المسيح الإلهية عن طبيعته البشرية[4].

ومنذ ذلك التاريخ ظهرت مجموعة من رجال الكنيسة يتزعمها أقطاب الكنيسة المصرية تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب تسمية مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysite) وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا[5] عام 451م عارض وأدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ برأي البابا ليو الأول بأن للسيد المسيح طبيعيتين فهو إله من طبيعة أبيه

---

[1]- جريجوري الأول: هو أحد البابوات العظام في تاريخ البابوية ساهم في تحقيق سمو كنيسة روما على سائر كنائس العالم الروماني، بالإضافة إلى دوره في إرساء نمط من أنماط الحياة الديرية (La vie monèstère)، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

[2]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

[4]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

[5]- مجمع خلقادونيا: هو مجمع كنسي جاء للفصل بين أتباع المذهب الملاكاتي المرتكز في روما وأنصار المذهب الطبيعة الواحدة المرتكز في الاسكندرية في مصر، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

وبشر من طبيعة أمه، وهو ما يسمى بالمذهب الملكاتي إلاّ أن هذه المشكلة استمرت قائمة لتمثل سببا جديدا للخلاف الديني[1] والتباعد بين الشرق والغرب[2].

جـ- الخلافات الدينية داخل الكنيسة المسيحية الناتجة عن إصلاحات قسطنطين:

وفي القرن الخامس تعرف الخلافات وتعارض وجهات النظر بين المسيحيين حقبة جديدة ظهر فيها التنافس بين البطريركيات أو الكنائس الرئيسية في العالم المسيحي على من يحتل الزعامة والصدارة كما أشرنا آنفا، ولعبت كنيسة روما في هذا الاتجاه دروا هاما كالكنيسة الأساسية في المحيط المسيحي، فعمل ممثل البابا ليو الأول في سبيل ذلك جاهدا ليعطي كنيسة روما التفوق ما لم تنعم به في سابق عهدها.

وكان الخلاف والتنافس بين كبريات الكنائس المسيحية عميق الأثر على الخلافات الدينية التي تبلورت وطرحت على الساحة الدينية للعالم الروماني خلال القرن الخامس[3].

. الخلاف حول الطبيعتين البشرية والإلهية في السيد المسيح:

بعدأن بيّنت كنيسة الدولة في القسطنطينية موقفها من طبيعة عيسى المسيح الإلهية وموقعه داخل عقيدة الثالوث المقدس، فالخلاف التالي الذي نشأ بين المسيحيين كان حول العلاقة بين الطبيعتين البشرية والإلهية في السيد المسيح، فقد تأسس في مدرسة أنطاكية في أواخر القرن الرابع الميلادي مذهب يقول بأن الطبيعتين الإلهية والبشرية لما تتحدا إتحادا كاملا في جسد المسيح ونادى أصحاب هذا المذهب بأن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة ونفوا عن السيد المسيح أي طبيعة إلهية، كما رفضوا الاعتراف بالسيدة مريم العذراء كأم للإله ورأوا أنها والدة المسيح البشركان هذا الرأي يخالف رأي مدرسة الإسكندرية التي أكدت أن الرب خلق إنسانا وجعل فيه الطبيعتين البشرية والإلهية واتحدتا في شخصه[4].

[1]- الخلاف الديني: الانشقاق أو القطيعة الدينية، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

[2]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 52.

[3]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 72.

[4]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 72.

- **ظهور مذهب النسطورية:**

وفي بداية الصراع كان رأي المدرسة الأنطاكية محدودا في توسعه، إلى غاية ظهور أحد أبرز أتباعها وهو نسطوريوس[1] (Nestorius) على مسرح أحداث القرن الخامس، وكان هذا الأخير أخلص أتباع مدرسة أنطاكية اللاّهوتية متحمسا لها، ومنذ أن تربع على بطريركية كنيسة القسطنطينية سنة 428م، تغير وضع مذهب أنطاكية الذي أصبح ينسب إلى نسطوريوس حيث عمل على فرض هذا المذهب على كنيسة الدولة، وقد ثار سكان القسطنطينية ردا على السياسة المذهبية التي انتهجها بطريك كنيسة حاضرة الإمبراطورية (روما الجديدة) وقاموا بمظاهرات قوية ضده في الشوارع والكنائس، ورد نسطوريوس على هذه المعارضة الشعبية بإتباع الشدة مع المعارضين له.

وقد لقيت أراء نسطوريوس العقائدية معارضة أساسية من قبل كيرل (Cyril) بطريرك كنيسة الإسكندرية الذي كان يتفوق على نسطوريوس في الشؤون الدينية والسياسية، وكان ممثل مدرسة الإسكندرية اللاّهوتية. وتمكن كيرل من إلحاق الهزيمة بنسطوريوس في المجالين السياسي والديني بفضل تأييد ومساعدة الرهبان المصريين الذين كانوا يكونون قوة كبيرة، بالإضافة إلى مساعدة بابا الفاتيكان ورجال الدين في روما.

وفي المجمع المسكوني الذي انعقد في مدينة أفسوس عام 431م، تم اتهام أتباع المذهب النسطوري وتم إدانة نسطوريوس واعتبار آرائه الدينية هرطقة، وهكذا حقق كيرل الانتصار على خصمه بطريك كنيسة القسطنطينية وأصبح زعيما للكنيسة الشرقية، واحتلت بطريركية الإسكندرية في عهده مكانة مرموقة[2].

[1]- نسطوريوس: هو أحد أعلام الكنيسة المسيحية وواضع عقيدة مسيحية مستقلة عن عقيدة كنيسة الدولة المرتكزة في القسطنطينية وهو رجل دين ساهم في ادخال عقيدة التوحيد في الجانب الاعتقادي في المعتقد المسيحي على شاكلة أريوس الموحد وهو شخص عاش في القرن الخامس للميلاد، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 72- 73.

[2]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 72- 73.

.ظهور مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية):

وسرعان ما تطورت وانتعشت مكانة مدرسة الإسكندرية كإحدى المدارس الدينية في العالم الروماني وذلك بعد وفاة كيرل عام 444م، وتولي ديوسقوروس (Dioscorus) مهام رئاسة بطريركية الإسكندرية الذي حافظ على علومكانة كنيسة الإسكندرية، وكان ممثل المذهب السكندري في القسطنطينية بوتيخا(Boticha) الذي تمتع بنفوذ كبير هناك، إلاّ أن ديوسقوروس وبوتيخا قد تجاوزا في التعاليم المذهبية لكنيسة الإسكندرية ما نادى به كيرل، وأكدا على أن طبيعتي السيد المسيح الإلهية والبشرية تحولتا عند التجسد إلى طبيعة واحدة مع طغيان الطبيعة الإلهية على نظيرتها البشرية وبذلك أصبحت له طبيعة واحدة وترتب على ذلك بروز مذهب المونوفيزية أو مذهب الطبيعة الواحدة[1](La Doctrine Monphysitism)[2].

وقد عارضت كلّ من كنيستي القسطنطينية وروما نمو وازدياد أهمية كنيسة الإسكندرية التي بلغ نفوذها الديني درجة هددت مصلحة كنيستي العاصمتان الرومانيتان (روما والقسطنطينية)، ولذا اتحدتا ضد الكنيسة المصرية، وقد لقي مذهب الطبيعة الواحدة معارضة كنيستي القسطنطينية وروما، وذلك رغم تأييد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني[3](Theodsius II)(408- 450م) الذي أمر بعقد مجمع أفسوس II عام 449م، وهو المجمع المعروف بمجمع اللصوصي الذي أقر مذهب ديوسقوروس وبوتيخا، أو ما يعرف بمذهب الطبيعة الواحدة[4].

---

[1]- مذهب الطبيعة الواحدة: هو مذهب أتت به كنيسة الاسكندرية ومضمونه إتحاد الخصائص الإلاهية والبشرية في جسد المسيح مكونة طبيعة واحدة إلهية وبشرية في نفس الوقت، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 73- 74.

[2]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 73- 74.

[3]- ثيودسيوس الثاني: هو امبراطور بيزنطة (408- 450م) عرف عنه تأييده لمذهب الطبيعة الواحدة وذلك بعد قرارات مؤتمر أفسوس الثاني عام 449م، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 74.

[4]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 74.

ولكن قرارات هذا المجمع لم تفرض على رجال الكنيسة، وجاءت فترة عمت فيها الفوضى والاضطرابات حتى أمر الإمبراطور مرقيان[1] (Marcian) بعقد مجمع خلقادونيا عام 451م توصل من خلال المباحثات والمشاورات التي دارت فيه إلى تحديد العقيدة الخاصة بطبيعتي السيد المسيح، وقالوا بوجود الطبيعتين الإنسانية والإلهية كل منها غير قابلة للتجزئة وكل واحدة مستقلة عن الأخرى، وقاموا بإنكار رأي المونوفيزيين والنسطوريين ويمكن القول بأن المذهب الملكاتي الذي أقره المجمع المنعقد في آسيا الصغرى كان حلا وسطا بين مذهب المونوفيزية ومذهب النسطورية[2].

وقد أدت قرارات مجمع خلقادونيا إلى انتصار كنيسة القسطنطينية بحيث نجحت الأخيرة في فرض كلمتها وأقر المؤتمرون فرض عقيدة كنيسة القسطنطينية وروما. كما وضع المجمع كنيسة روما في صدارة الكنائس المسيحية في الشرق والغرب، وفسرت كنيسة القسطنطينية أن هذه الصدارة شرفية أي أن توازي كنيسة القسطنطينية نظيرتها في روما في المركز الديني، غير أن الهدوء وصفاء الجو بين الكنيستين سرعان ماتحول إلى عداء وتنافس بين الكنيستين الشرقية والغربية على من سينفرد بزعامة العالم المسيحي[3].

كما نتج على قرارات مجمع خلقادونيا ارتفاع حجم الخلاف بين كنيسة القسطنطينية من جهة، وكنائس الولايات الرومانية الواقعة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية من جهة أخرى، وقد قام الخلاف حول المذهب المونوفيزي الذي كان حاضرا بقوة في الشرق إلى مستوى أزعج الحكام في بيزنطة، وحقيقة الأمر أن المونوفيزية تضمنت ترجمة عن المشاعر الوطنية في مصر والشام ضد الحكم البيزنطي، تلك المشاعر التي وجدت في إتباع مذهب الطبيعة الواحدة منطلقا، ومما حدث في هذا الصدد أن أمرت كنيسة الإسكندرية بإيقاف توظيف اللغة اليونانية في طقوسها الدينية وقامت باستعمال اللّغة القبطية بدلا منها. وحين حاولت السلطات البيزنطية فرض قرارات مجمع

---

[1]– مرقيان: هو امبراطور بيزنطة، وفي عهده تم عقد مجمع خلقدونيا عام 451م الذي أقرّ عدم شرعية المذهب المونوفيزي (الطبيعة الواحدة) والمذهب النسطوري وأقرّ شرعية المذهب الملاكاتي الذي يدعو إلى فصل الخصائص الإلاهية عن خصائصه البشرية وهو رأي بابا كنيسة روما، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 74.

[2]– توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 74.

[3]– توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 74.

عام 451م بالقوة في كل من بيت المقدس والإسكندرية وأنطاكية لقت معارضة عنيفة لم تتغلب عليها السلطات العسكرية والمدنية، إلاّ بعد مشادات عنيفة وسفك للدماء[1]. ويجب الإشارة أن هذا الخلاف والقطيعة بين كنيسة القسطنطينية وأتباع مذهب الطبيعةالواحدة في الشرق كان الخلفية التاريخية التي عبدت الطريق لكل من الفرس والمسلمين في القرن السابع الميلادي للاستلاء على المقاطعات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية[2].

ومهما يكن من أمر فقد استمر الخلاف حول مذهب الطبيعة الواحدة في الفترة التي تلت مجمع خلقادونيا بالرغم من المحاولات التي بذلت لإيجاد مخرج لها، فقد حاول على سبيل الذكر الإمبراطور زينون[3] (Zenon) (474- 491م) عام 482م تسوية الوضع وإعادة السلام بين المذهب الملكاتي والمذهب المونوفيزي بما أصدره في القانون المشهور باسم قانون الإتحاد (Henoticon) تقرر فيه الاعتراف بقرارات المجامع المسكونية الثلاث الأولى، مع تجنب ذكر كلمة الطبيعة أو الطبيعتين في السيد المسيح كما لم يشر إلى ما ذهب إليه مجمع خلقادونيا من إتحاد الطبيعيتين[4].

ولم يأت قانون الإتحاد الذي أشرنا إليه بالنتائج المرجوة، فقد تمسك المونوفيزيون والملكاتيون بآرائهم وتوجهاتهم المذهبية، كما ظهرت فئة من المسيحيين تؤيد قانون الإتحاد الذي أوجده الإمبراطور زينون، أمّا موقف بابا كنيسة روما أو بابا الفاتيكان[5] بتعبير آخر فإنه لم يوافق على هذا القانون، بل أصدر ضد بطريرك كنيسة القسطنطينية قرار الحرمان. وترتب على ذلك أن

---

[1]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 74- 75.

[2]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75.

[3]- زينون: هو امبراطور بيزنطة عرف عنه اصدار قانون الاتحاد كحل وسط للإنشقاق الديني المسيحي بين أتباع المذهب الملاكاتي وأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وأصحاب المذهب النسطوري وقانون الاتحاد هذا أصبح فيما بعد العقيدة التي يؤمن بها أتباع الكنيسة الشرقية أو الكنيسة الأرثوذكسية بتعبير آخر، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75.

[4]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75.

[5]- بابا الفاتيكان: هو بابا كنيسة روما، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75- 76.

أسقط البطريرك اسم البابا من الدعاء في كنيسته الشرقية، وهكذا ظهرت القطيعة واضحة بين كنيستي روما والقسطنطينية ودب الخلاف بينهما إلى أبعد الحدود[1].

ونستطيع أن نلخص المسألة الدينية خلال الفترة التي نتحدث عنها وهي القرن الخامس الميلادي بأن أتباع ومريدي مذهب المونوفيزية أحدثوا أزمة وانشقاقات عرضت أساس الوحدة المسيحية للخطر، ورغم تدخل أباطرة الإمبراطورية البيزنطية[2] لإيجاد حل للخلافات الدينية، إلاّ أن الفشل كان النتيجة الحتمية لمساعيهم. كما كان من أهم مظاهر الأزمة الدينية الصراع الكبير الذي استجد على الساحة الدينية في العالم الروماني بين كنيسة القسطنطينية المنضوية تحت سلطة الإمبراطور البيزنطي، وبين باباوات كنيسة روما وما عرفوا به من شدة وعناد وحزم وطموح، وقد كانت الانقسامات الدينية من أهم الأسباب التي أدت إلى إعطاء طابع ديني للإمبراطورية البيزنطية يخالف ما تميزت به منطقة غرب أوروبا[3].

لقد أحدثت الإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول (306- 337م) تأثيرات عميقة على الأوضاع الدينية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية خلال حياة الإمبراطورقسطنطين وبعد وفاته عام 337م[4].

ففي هذا الجانب فإن سياسة قسطنطين الأول الدينية قد أحدثت تحوّلات جذرية على الأوضاع الدينية التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الرابع الميلادي وكذا القرن الخامس، صحيح أن قسطنطين لم يعمل على تفضيل عقيدة عن أخرى، أو دين عن آخر أو مذهب عن آخر أو فلسفة دينية عن أخرى، إلاّ أن سياسة حرية العقيدة التي أرسى مفهومها منذ إجتماع ميلانو في مارس 313م، قد جعلت المسيحية تنموا وتزدهر وتتطور وتتبوأ مرتبة الصدارة بين سائر الديانات والمذاهب الدينية الفلسفية[5]، حيث كان الاعتراف الإمبراطوري المصادق عليه

---

[1]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75- 76.

[2]- الامبراطورية البيزنطية: هو اللقب الذي يطلق على الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية بعد تقسيمها سياسيا عام 395م، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 76.

[3]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 76.

[4]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 24.

[5]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 114- 115.

من قبل قطبي ميلانو (قسطنطين وليكينيوس) قد أعطى المسيحية أكسجين الحياة والمناخ السياسي[1]والديني والاجتماعي لتتطور وتنتشر بين أرجاء الإمبراطورية الرومانية التي شملت بين أراضيها مختلف أنحاء العالم القديم[2]، إذ أن السياسة الدينية التي انتهجها قسطنطين كانت أولا قبل كل شيء تحقيقا للمصلحة العليا للإمبراطورية الرومانية، وكذا تحقيقا للمآرب السياسية للإمبراطور حيث أدرك قسطنطين بثاقب بصره بأن من مصلحة الدولة تحقيق الصلح بينها وبين جهاز الكنيسة إذ أن سياسية الاضطهاد والقمع لم تزد المسيحيين سوى عنادا وتشبثا بمبادئهم الدينية، ومن جانب آخر أثارت روح المقاومة والتجلد بالصبر التي تحلى بها المسيحيون طوال فترة الاضطهاد إعجاب أتباع الديانات الأخرى سواء الطبقة الغنية منهم أو الفقيرة، الأمر الذي دفع الكثيرين من أتباع الديانات الوثنية إلى إتباع واعتناق المسيحية، ومن ناحية أخرى فإن نمو المسيحية انجر عنه تراجع الوثنية من ناحية عدد أتباعها، وكذا بدأ الشك يساور أتباعها في مصداقيتها ومدى قدرتها على سد حاجات أتباعها الروحية وتحقيق آمالهم الاجتماعية[3].

من هذا المنطلق شكل عهد قسطنطين نقطة تحول هامة على الأوضاع الدينية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الرابع وفي القرن الذي يليه، فمنذ وفاة قسطنطين عام 337م بدأت الديانات الوثنية في التراجع وفقدان مركزها الديني لصالح الديانة المسيحية التي زاد مريدوها ومعتنقوها بين أفراد المجتمع الروماني، خصوصا أفراد الطبقة الأوروستقراطية[4].

اختلفت سياسة قسطنطين الدينية عن سياسة خلافئه من أسرته أو من أسرة ثيودوسيوس[5].

---

[1]- المناخ السياسي: الأوضاع السياسية الجديدة التي ساعدت على انتشار المسيحية، عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 131- 132.

[2]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 131- 132.

[3]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 135- 138.

[4]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 281- 282.

[5]- عاشور، س. ع. ف، 2009، ص. 42.

فأثناء حكم أسرته الممتد حتى وفاة فالنتنيان الثاني(ValentinienII)(337- 394م)، عمل أباطرة تلك الفترة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية على مُحاربة الوثنية وتدعيم الديانة المسيحية، وذلك بإرساء سياسية دينية مدعمة ماديا ومعنويا لسيادة الكنيسة المسيحية على الساحة الدينية في روما، وذلك بوسائل عديدة منها تخصيص ميزانيات ضخمة من الخزانة الإمبراطورية لبناء وتشييد الكنائس ومنح أساقفة الكنائس الكبرى في العالم الروماني سلطات سياسية ودينية وقضائية واسعة، وتحويل المعابد الوثنية إلى كنائس وأديرة، والعمل على محاربة كل أشكال وصور الطقوس والفروض الدينية الوثنية،واعتبار ممارسة أركان الديانات الوثنية المختلفة جرما يعاقب عليه القانون[1]، ومن جانب آخر عملت السلطة الرومانية على سن سياسة اقتصادية ومالية مساعدة على توسيع وانتشار الديانة المسيحية بحيث أعفيت الكنائس من دفع الضرائب، وتمتع الموظفون المسيحيون بامتيازات مالية هامة ساهمت في تخلي الكثير من الموظفين الوثنيين عن ديانتهم المثقلة بالضرائب والأعباء المهنية، وتنافسوا وسارعوا إلى إعتناق المسيحية التي توفر لهم امتيازات مادية عديدة[2].

غير أن الوثنية لم تستسلم بسهولة مطلقة، إذ أبت إلاّ أن تصحو من جديد، وذلك عندما ارتقى إلى عرش الإمبراطورية جوليان المرتد (361- 363م) الذين كان محافظا على مخلفات وإرث الحضارة الوثنية الإغريقية، فتخلى عن المسيحية قبل أن يصل إلى منصب الإمبراطورية[3]. وما إن تحكم على دواليب السلطة الإمبراطورية حتى أفصح عن كفره بالمسيحية، وعمل على تخليص الوثنية من المحنة التي تعرضت لها نتيجة سياسة أسلافه من الأباطرة الرومان ما بين (337- 361م) الذين عملوا على محاربة الوثنية وإعلاء شأن المسيحية، ولذلك الهدف أمر جوليان بفتح معابد الوثنية التي أغلقت وفقا لمرسوم قسطنطيوس الثاني[4].

---

[1]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 43- 47.

[2]- شنيتي، م.ب.، 1984، ص. 282.

[3]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 43.

[4]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 43.

ويبدوا لنا من واقع الحقائق التاريخية[1] أن الإمبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية وإنما أراد من خلال سياسيته الدينية أن يرفع عن الوثنية وأتباعها الحيف الذي أنزله بهم أنصار المسيحية، أو بتعبير آخر كان في نية جوليان تحقيق نوع من المساواة والتوازن بين الوثنية والمسيحية وفقا للغرض الذي أملي إليه إصدار مرسوم ميلانو عام 313م، ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عدالة واتزانا إذا علمنا أنه امتدح بعض الخصال الحميدة التي دعت إليها المسيحية مثل الإحسان والرحمة والعطف على الفقراء والمرض حتى أنّه كتب إلى كاهن وثني يخبره في صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر إلى مثل هذه الخصال الحميدة[2].

على أن هذا الشعور لم يمنع الإمبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لاتبدوا في مستواها أقل من المسيحية، فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به في الكنيسة واهتم ببناء المعابد الوثنية وتزيينها حتى لا تبدوا أقل جمالا وزينة من الكنائس[3].

وفي الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجانا على حساب الحكومة صحبة البريد الإمبراطوري، كما أخذ يستبعد المسيحيين على مراحل من وظائف الجيش والإدارة ليحل الوثنيين مكانهم[4].

ولكن يظهر أن هذه الصحوة التي مرت بها الوثنية على عهد جوليان لم تكن إلاّ صحوة الموت، إذ لم ينتظر المسيحيون كثرا حتى يسترجعوا في عهد جوفيان (الذي لم تتجاوز مدة حكمه سبعة أشهر) مكانتهم وامتيازاتهم السابقة التي حرمها عليهم الإمبراطور جوليان[5]، ثمّ جاء الإمبراطور جراتياس (Gratias) (375- 383م) فتخلى عن لقب "الكاهن الأعظم"[6] الذي احتفظ

---

[1]- الحقائق التاريخية: هي الأحداث التاريخية، عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 43- 44.

[2]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 43- 44.

[3]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44.

[4]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44.

[5]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44.

[6]- الكاهن الأعظم: هو اللقب الديني الوثني الذي تمتع به مختلف أباطرة روما وباللغة اللاتنية يسمى (Pontifex Maximus)، عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44.

به جميع الأباطرة السابقين، بل إن هذا الإمبراطور سرعان ما واصل عام 382م سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية[1].

حقيقة أن هذه الإجراءات لا تهدف إلى القضاء المبرم على الوثنية، إذ ظلت الوثنية قوية خصوصا في مقاطعات الغرب الروماني وروما حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى نهاية القرن 4م. ولكن تشييد المعابد الوثنية في هذه الفترة المتأخرة أصبح لا يحصل على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل[2].

ثم كانت بداية التطرف في استخدام القوة والعنف ضد الوثنية وأتباعها على عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأول، الذي نجح في توحيد العالم الروماني تحت سلطته منذ عام 394م بعد وفاة فالنتنيان الثاني. وقد استمرت الحرب التي بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين عاما بعد وفاة هذا الإمبراطور، أغلقت خلالها معابد الوثنية وحرقت كتبهم المقدسة ومنعوا من ممارسة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم، بل إن الإمبراطور أركاديوس (395- 408م) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية لا إغلاقها فحسب واستغلال أحجارها وموادها في بناء منشآت عامة[3].

وعندئذ أيقنت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والالتجاء إلى المناطق البعيدة والنائية في إيطاليا وغالة. وهكذا ظل الوضع على حاله حتى مطلع القرن السادس الميلادي عندما أقام القديس بندكت ديره الشهير عام 529م على أنقاض آخر ما تبقى من معابد أبولوا في مونت كاسينو. وفي عام 528م قام الإمبراطور جستنيان بغلق آخر مدارس الفلسفة في أثينا بوصفها ركنا من أركان الوثنية[4].

---

[1]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44.

[2]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44.

[3]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 44- 45.

[4]- عاشور، س. ع. ف.، 2009، ص. 45.

الفصل الخامس:
تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية

الفصل الخامس: تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسية على الأوضاعفي الإمبراطورية الرومانية.

1- تأثير إصلاحات قسطنطين الأول قسطنطين الأول السياسية على الأوضاع.

2- أثر إصلاحات قسطنطين الأول السياسية بعد وفاته.

الفصل الخامس: تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسية على الأوضاع في الامبراطورية الرومانية.

لقد أحدث قرار نقل العاصمة الرومانية، روما القديمة الواقعة في إيطاليا إلى روما الجديدة (القسطنطينية) الواقعة في آسيا الصغرى، والذي كان من صنع عبقرية قسطنطين الأول تأثيرات عميقة على الأوضاع السياسية التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية سواء كتأثيرات مباشرة أو غير مباشرة[1].

فكنتيجة مباشرة كان القرار الإمبراطوري الصادر من الأغسطس قسطنطين من الأسباب الأساسية في إعطاء الإمبراطورية الرومانية طابعا شرقيا هلنستيا مسيحيا مبتعدة عن أصولها الأولى القائمة على الطابع الغربي اللاّتيني الوثني[2].

وكتأثير غير مباشر فإن قرار الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (378- 395م) تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمينشرقي يعرف بالإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية، وغربي يعرف بالإمبراطورية الرومانية الغربية قد أعطى للإصلاح السياسي الذي مارسه قسطنطين على جسم الإمبراطورية الرومانية بعدا آخر إذ يعتبر المؤرخون المختصون في دراسة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية بأن قسطنطين هو واضع نواة الإمبراطورية البيزنطية بعد قرار نقل عاصمة الرومان إلى الشرق وذلك مع مطلع القرن الرابع الميلادي[3].

سنقوم بإبراز وتحليل تأثيرات وانعكاسات التغيرات السياسية التي تولدت على الأوضاع السياسية للإمبراطورية الرومانية بفعل السياسية التي انتهجها قسطنطين الأول في إدارة دفة الحكم في روما ، وسنقوم بتقسيم هذا الفصل الخامس إلى قسمين أساسيين:

I . تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسيةعلى الأوضاع

II. أثر إصلاحات قسطنطين السياسية بعد وفاته.

I- تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسيةعلى الأوضاع:

1- تدشين القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية: تمّ افتتاح العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية رسميا بتاريخ 11 ماي 330م وأطلق عليها تسمية القسطنطينية نسبة إلى

---

[1]-عبيد،ط.خ.، 2010، ص.28.

[2]- الحويري، م.م.،1995، ص. 44- 45.

[3]- سّيد صبره، ع.، 1982، *الإمبراطوريّتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شرلمان*، بيروت، ص. 17- 18.

مؤسسها قسطنطين الأول ومنذ ذلك العام أصبحت مدينة بيزنطيوم الإغريقية[1] التي بنيت على أنقاضها العاصمة الرومانية الجديدة هي المركز الإداري الجديد الذي تدار من خلاله شؤون الإمبراطورية الرومانية، وكان لهذا التغيير السياسي الهام في تاريخ الكيّان الروماني آثارا عميقة على أوضاع السياسية[2].

2- أثر نقل العاصمة الرومانية إلى الشرق: وكنتيجة طبيعية لنقل العاصمة الرومانية إلى شرق الإمبراطورية بدأت طبيعة الإمبراطورية الرومانية[3] تتحول من إمبراطورية غربية وثنية إلى إمبراطورية شرقية هلنستية مسيحية، ومن جانب آخر أصبح مركز ثقل وقوة الإمبراطورية الرومانية متركزا في الشرق وأصبح غرب الإمبراطورية منطقة يدب إليها الضعف، في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية[4].

ومن جانب آخر فإن تحول الأباطرة الرومان إلى الإقامة في القصر الإمبراطوري الذي أقامه قسطنطين في عاصمته الجديدة قد أفقد العاصمة القديمة للإمبراطورية روما قيمتها الحضارية وسرعان ما أصابها الذبول ودب فيها الضعف وأصبحت كالإنسان الطاعن في السن الذي مرت مرحلة شبابه وانتقلت إلى إنسان آخر[5].

ويعد تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم الإغريقي والعالم الروماني يبتعد من خلالها كل منهما عن الآخر شيئا فشيئا، حتى أصبحت وحدة الإمبراطورية الرومانية معرظة للخطر ومسألة صعبة التحقيق، ذلك أنه على حين ظل الحكم الروماني قائما في القسم الشرقي من الإمبراطورية كما تركه قسطنطين، آلت مصائر الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية إلى نهاية

---

[1]- بيزنطيوم الاغريقية: هو الاسم القديم للعاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية الجديدة القسطنطينية التي أسسها قسطنطين في 11 ماي 330م، الحويري، م. م.، 1995، ص. 44.

[2]- الحويري، م. م.، 1995، ص. 44.

[3]- طبيعة الامبراطورية الرومانية: التعريف الحضاري للإمبراطورية الرومانية، توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 12- 13.

[4]- توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 12- 13.

[5]- توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 49.

مختلفة تماما، إذ سقط وتفكك تحت ضربات جيوش القبائل الجرمانية بعد مائة وست وأربعين سنة (330- 476م)[1].

ومن النتائج التي ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، أن المد الاقتصادي[2] أخذ ينحسر عن الغرب الأوروبي فصارت الثروات في أيدي تجار أنطاكيا والإسكندرية وغيرها، ويتضح حجم الخسارة الاقتصادية التي لحقت بالعاصمة روما القديمة في تحول مسار القمح المصري فبدل من أن يصدر إلى روما القديمة أصبحت السفن التي تحملها ترسوا في شواطئ القسطنطينية لإطعام سكانها الذين تزايد عددهم بفعل السياسة التحفيزية التي عمل قسطنطين الأول على تفعيلها منذ إقامة عاصمته الجديدة[3].

ومن النتائج المترتبة على انتقال العاصمة الرومانية إلى الشرق هو تسلل المؤثرات الشرقية[4] في نواحي الحكم والإدارة والآداب في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم ساد الطابع الهلنستي على ذلك القسم، على حين ظل غرب الإمبراطورية متمسكا بتراثه اللاّتيني. ولما كانت المؤثرات اليونانية أقوى من اللاّتينية، فقد تابع الشرق ازدهاره ورقيه وتقدمه، في الوقت الذي أخذ فيه الغرب يسير في اتجاه الاضمحلال والتفكك والتخلف الحضاري، وبذلك بدأت ملامح وبوادر مرحلة العصور الوسطى في أوروبا تبزغ شمسها على المجتمع الأوروبي وتفرض نفسها عليه[5].

3- الأهمية الحضارية لمدينة القسطنطينية: والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التي اتخذها قسطنطين وأثرها العميق على السيرورة التاريخية للعالم الروماني بصفة خاصة والعالم الأوروبي بصفة عامة إذ أن تأسيس القسطنطينية مع بداية القرن الرابع الميلادي أحدث تغييرا على صورة تاريخ أوروبا طوال الألفية القادمة. فلولا قيامها لما استطاعت البابوية في غرب

[1]- الحويري، م. م.، 1995، ص. 44- 45.

[2]- المد الاقتصادي: المكان الذي فيه حركية اقتصادية، الحويري، م. م.، 1995، ص. 45.

[3]- الحويري، م. م.، 1995، ص. 45.

[4]- المؤثرات الشرقية: هي الأفكار والتشريعات الدينية والسياسية الهلنستية (الفارسية الاغريقية) التي سادت الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية، الحويري، م. م.، 1995، ص. 45.

[5]- الحويري، م. م.، 1995، ص. 45.

أوروبا الوصول إلى ما وصلت إليه من قوة ومجد في فترة العصور الوسطى، ولحرم شرق أوروبا من تلك القلعة الحصينة التي استطاعت أن توقف زحف المسلمين إلى البلاد الأوروبية[1].

بالإضافة إلى أن القسطنطينية غدت مركزا للحضارة والفكر اليوناني وللدراسات والآداب الهلنستية، ولولاها لأدت غزوات القبائل السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد إلى محو آثار هذه الحضارة مما يعمل على تغيير وجه التصور الحضاري[2] لأوروبا[3].

إن تأسيس مدينة القسطنطينية عام 330م من قبل الإمبراطور قسطنطين الأول يعتبره المختصون في دراسة التاريخ البيزنطي العصر المبكر للإمبراطورية البيزنطية، ورغم أن ولادة هذه الإمبراطورية سياسيا لم تأت إلى مع قرار التقسيم السياسي الذي قام به الإمبراطور ثيودوسيوسI عام 395م، إلاّ أن بداية استقلال الشرق الروماني عن نظيره في الغرب حضاريا تجسدت بتأسيس القسطنطينية، صحيح إن قسطنطين استطاع توحيد الإمبراطورية سياسيا، إلاّ أن الانشقاق الحضاري[4] بين الشرق والغرب سرعان ما تحول إلى واقع استحال على السلطة السياسية في القسطنطينية إيقاف زحفه والحيلولة دون وقوعه[5].

رغم بقاء الوحدة السياسية طوال عهد قسطنطين وبعض خلفاؤه أمرا ظاهرا ميز الواقع السياسي للإمبراطورية الرومانية إلاّ أن بوادر التصدع والانشقاق الداخلي الذي مس جسم الإمبراطورية سرعان ما طفا على السطح عقب قرار التقسيم السياسي عام 395م، وسرعان ما استقلت الإمبراطورية الشرقية سياسيا وحضاريا عن نظيرتها في الغرب[6].

---

[1]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 26– 27.

[2]– التصور الحضاري: الملامح العامة للحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27.

[3]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27.

[4]– الانشقاق الحضاري: هو الانقسام الحضاري الذي ساد الامبراطورية الرومانية بعد تأسيس القسطنطينية عام 330م، حيث سادت الحضارة الهلنستية في الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية والحضارة اللاتينية في الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 20.

[5]– عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 20.

[6]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27– 28.

وعند الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية، فإن المؤرخين أطلقوا عدة تسميات على هذه الإمبراطورية، مستندين في ذلك على آرائهم وأفكارهم التي تأثرت بدرجة ما بعصر النهضة الأوروبية (La Renaissance Européenne) والاهتمام بالتاريخ اليوناني والروماني ومن أشهر تلك التسميات:

أ- **الإمبراطورية الرومانية (L'Empire Romaine):** ودافع عن هذا الرأي فئة من المؤرخين أشهرهم بوري (Bury) وجيبون (Gibbon) ويؤكدون على أن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ما هو إلاّ فترة من فترات تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ولعل الدافع الذي أدى بهؤلاء المؤرخين والمختصين إلى الأخذ بهذه التسمية، هو أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يعتبرون أنفسهم أباطرة روما وأنهم خلفاء القياصرة الرومان القدماء، فضلا عن أن علاقتهم السياسية الخارجية مع جيرانهم من الشعوب تقوم على هذا المفهوم، إلاّ أن هذه التسمية غير دقيقة، لأن الشعوب التي عاشت على حدود الإمبراطورية لم تكن رومانية ولأن حدود الإمبراطورية الرومانية على عهد الرومان القدماء كانت أوسع من حدود الإمبراطورية الرومانية أيّام قياصرة القسطنطينية، حيث كانت مساحة الإمبراطورية الرومانية القديمة تشمل الكثير من المناطق في أوروبا بالإضافة إلى آسيا الصغرى والشام والساحل الإفريقي حتى الصفة الأطلسية، وكانت العاصمة هي روما[1].

ب- **الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو المتأخرة:** عند إعتراف قسطنطين بالمسيحية كأحد الديانات المسموح إتباعها في الإمبراطورية بعد سنّه لسياسة حرية العقيدة بعد اجتماع ميلانو عام 313م، ونقل العاصمة إلى القسطنطينية عام 330م بدأت الإمبراطورية الرومانية تتأثر بالحضارة اليونانية الهلنستية المسيحية والمؤثرات الشرقية في نواحي الحكم والإدارة، كما تعذر على الأباطرة الرومان حكم الإمبراطورية مركزيا من القسطنطينيةوتعرض القسم الغربي وعاصمته روما ثمّ رافنا[2] في أواخر عمر الإمبراطورية الغربية إلى غزوات القبائل الجرمانية، وتم عزل آخر إمبراطور روماني هو

[1]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17.

[2]- رافنا: هي العاصمة الجديدة للامبراطورية الرومانية الغربية بعد قرار التقسيم السياسي عام 395م، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17.

روميلوس أوغسطلوس[1] (474- 476م) (Romulus Agustulus) الذي كان عمره 12 عاما من قبل أدواكر[2](Odoacre)، وقام هذا الأخير بنفي آخر أباطرة الإمبراطورية الرومانية في جزءها الغربي إلى جنوب إيطاليا مع تخصيص معاش كاف له[3]، وهكذا انهار القسم الغربي من الإمبراطورية، وبقي القسم الشرقي على حاله تقريبا حتى فتح القسطنطينية عام 1453م، كل هذه الحقائق دفعت بعض المؤرخين على تسمية الإمبراطورية البيزنطية بالإمبراطورية الرومانية الشرقية أو المتأخرة[4].

ج- الإمبراطورية الإغريقية أو الهلنستية:ويرى بعض المؤرخين أن للإمبراطورية البيزنطية هي إغريقية هلنستية، ويسمون حاكمها بالإمبراطور اليوناني، ويفسرون ذلك بأن الإمبراطورية البيزنطية هي الإمبراطورية التي ورثت إرث وتركة الحضارة اليونانية القديمة وكانت امتدادا لها، وإذا أخذنا برأي هذه المدرسة التاريخية فأين الحضارة الرومانية التي تأثرت بها الإمبراطورية البيزنطية في القرون الأربع الأولى أي من القرن الرابع إلى السابع الميلاديين. كما أن التركيبة البشرية[5] بالإمبراطورية البيزنطية لم تكن إغريقيةأو يونانية، بل كان اليونانيون يشكلون جزءا ضيق القاعدة الشعبية بالنسبة لشعوب الإمبراطورية ولذا فإن هذه التسمية غير صحيحة إطلاقها على الإمبراطورية البيزنطية[6].

د- إمبراطورية الروم:

أطلق العرب قبل الإسلام وأثناء الفترة الإسلامية على الإمبراطور البيزنطي اسم إمبراطور الروم، وقد جاءت لفظة روم في نقوش الصفا، على أنها اسم لبلاد واسم لشعب وتكررت عدّة

[1]- روميلوس أوغسطلوس: آخر إمبراطور روماني حكم الجزء الغربي من الامبراطورية في الوجهة القانونية بعد قرار التقسيم السياسي، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17.

[2]- أدواكر: هو زعيم الهيرول، أحد فروع الجرمان وهو الذي قام بعزل الامبراطور روميلوس أوغسطلوسوقام بنفيه إلى جنوب إيطاليا وخصص له معاشا كافيا له، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 77.

[4]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17.

[5]- التركيبة البشرية: هي مختلف الأجناس المكوّنة للإمبراطورية البيزنطية، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17- 18.

[6]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 17- 18.

مرات في تلك النقوش، ولم جاء الإسلام، فقد جاء في القرآن الكريم، سورة هي سورة الروم حيث قال الله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم «ألم (1) غُلِبَتْ الرُومُ (2) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المَؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)» صدق الله العظيم.

واستمرت المصادر العربية الإسلامية تطلق كلمة روم، وإمبراطور الروم[1]، وطاغية الروم على حاكم هذه الإمبراطورية، وأحيانا كلمة روم بما يناسبها في التوظيف[2].

هـ- الإمبراطورية البيزنطية: (أنظر خريطة رقم3)

تعتبر هذه التسمية تسمية حديثة، أطلقها عدد كبير من المؤرخين والباحثين آخذين تلك التسمية من عنصرين أساسيين هما:

[1]- إمبراطور الروم: هو اللقب الذي تطلقه المصادر الاسلامية على امبراطور بيزنطة كما تسمي أيضا المصادر الاسلامية الامبراطورية البيزنطية بمملكة الروم، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 18.

[2]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 18.

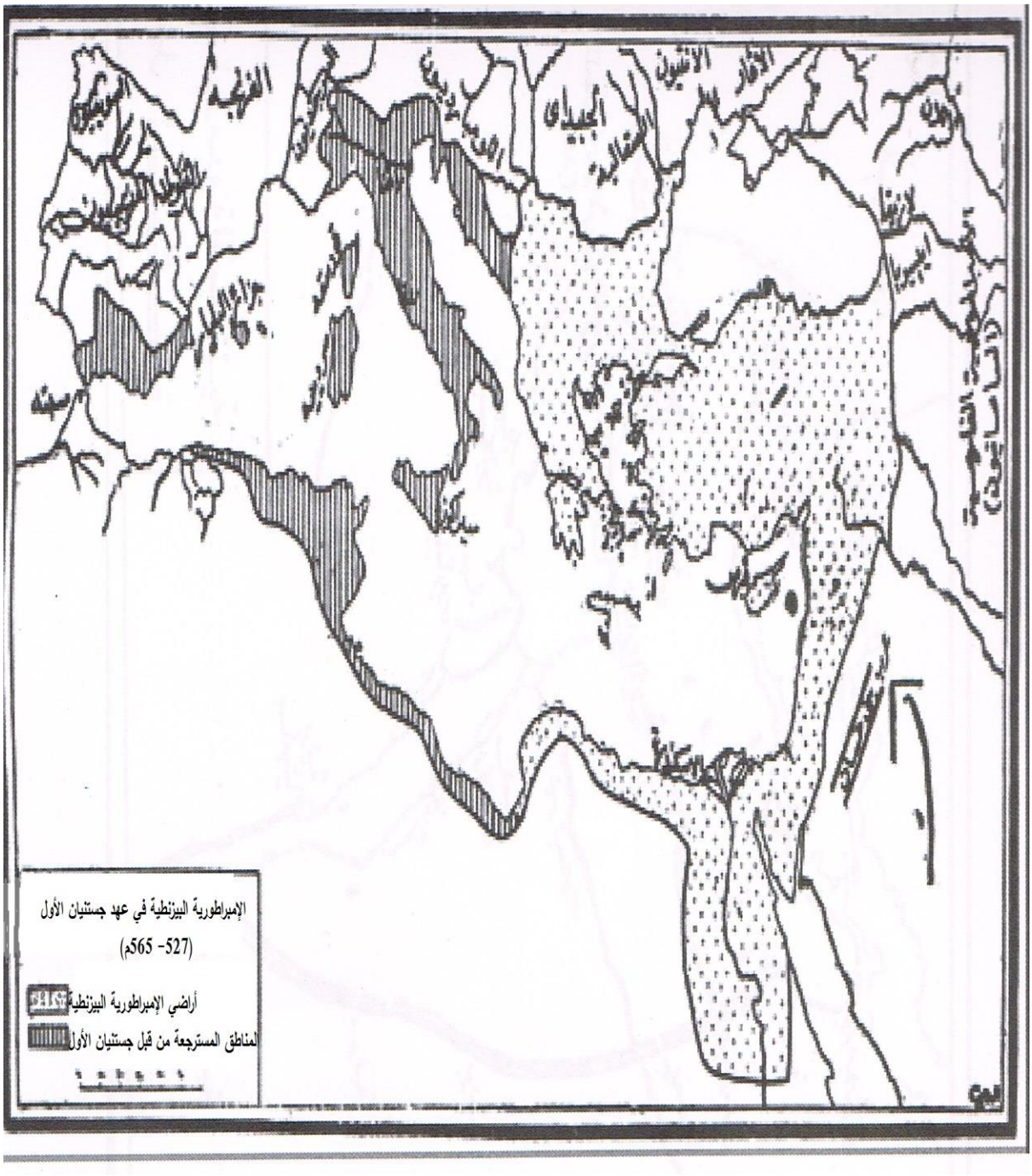

خريطة رقم 3: الامبراطورية البيزنطية في زمن الإمبراطور جستنيان الأول (527- 565م).

عبيد، ط.خ.،2010، ص.272.

. **تحديد كيان الإمبراطورية:**عن طريق تحديد مساحتها الجغرافية وتقاليدها وحضارتها، وهي عكس التسميات السابقة التي تتداخل مفاهيمها فيما بينها، وإن جوهر هذه المفاهيم الثلاث يكمن في طبيعة العناصر الرئيسية التي دخلت في تكوين التاريخ البيزنطي، وهذه العناصر هي مبادئ الرومان ومفاهيمهم السياسية والحضارة اليونانية والديانة المسيحية، وإن اقتران الحضارة الإغريقية[1] بالدين المسيحي في نطاق الإمبراطورية الرومانية أدى إلى قيام ما يعرف بالإمبراطورية البيزنطية[2].

. **تحديدإسم شعب الإمبراطورية:**

حيث أطلق الأثريون في القسطنطينية على سكان الإمبراطورية اصطلاح البيزنطيين في بعض الأحيان حيث كان اسم الرومان أو أهل القسطنطينية اصطلاحين يفتقدان إلى الدقة ولا يعبران عن الحقيقة، ثمّ انتقل اصطلاح البيزنطيين إلى الغرب واستعمله المؤرخون المحدثون من باب التسهيل والتيسير[3].

إن تسمية الإمبراطورية بالبيزنطية هي تسمية مناسبة ودقيقة ولها ما يبررها، فكلمة بيزنطة أصلها ومرجعها إلا أن الإمبراطور قسطنطين الأول، عندما انتهى من بناء عاصمته الجديدة (القسطنطينية) عام 330م بناها على أنقاض مدينة بيزنطيوم (بيزنطة) إلى القسطنطينية وعمم اسم القرية الإغريقية على اسم الإمبراطورية، ولهذا تعد هذه التسمية "الإمبراطورية البيزنطية" أنسب التسميات لهذه الإمبراطورية[4]، ويرى فازيليف[5] (Vasiliev) بأن عبارة بيزنطة لم تقتصر فقط على التعريف السياسي والجغرافي، بل عبارة عن امتزاج بين التعاليم المسيحية والتراث الإغريقي الوثني

[1]– الحضارة الاغريقية: هي أحد الحضارات الانسانية القديمة والتي تنتمي إلى حضارات الشرق الأدنى القديم، مركزها في بلاد اليونان الحالي أهم حواضرها هي مدينة أثينا واسبرطة، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 18.

[2]– عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 18.

[3]– عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 18.

[4]– عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 18– 19.

[5]– فازيليف: مختص في التاريخ البيزنطي، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 19.

تكوّن من خلاله ثقافة خاصة يشار إليها بالثقافة المسيحية الإغريقية كان مركزها بروما الثانية أو الجديدة[1].

و –إمبراطورية القسطنطينية:

وهذه التسمية غير دقيقة من الناحية التاريخية، لأن مساحة الإمبراطورية لم تنحصر على مدينة القسطنطينية، وأن من عرف كيّان الإمبراطورية البيزنطية بتلك التسمية كان هدفه تحقير وتقليل مكانة الإمبراطورية لاسيما عندما اشتدت القطيعة الدينية[2] بين الشرق المسيحي ونظيره في الغرب وازداد استعماله إبان فترة الحروب الصليبية، التي أرجعت وحمّلت أسباب فشل حملاتها العسكرية اللاّحقة على عاتق الإمبراطورية البيزنطية[3].

ونلاحظ أن تعدد التسميات القديمة والحديثة للإمبراطورية يتحكم فيه عاملان مهمان للغاية هما:

1. المساحة الجغرافية التي تفرض فيها السيادة والسلطة عليها.
2. الشعوب التي تسكن تلك المساحة وتبني عليها حضارتها.

ي– مختلف الأراء حول بداية التاريخ البيزنطي:

يرى هيسي[4] (Hessey) أن بوادر انقسام القسم الشرقي عن نظيره في الغربوتوجه قسطنطين الشرقي في النواحي الدينية والسياسية منذ اعترافه بالمسيحية واعتناقه لها وتبنيه قضايا الكنيسة والمواطنين المسيحيين، وبناؤه للقسطنطينية حيث اتخذ منها عاصمة لإمبراطوريته الرومانية الموحدّة، ورمزا للتوجه الثقافي والديني والسياسي والعسكري الجديد الذي أرساه على منظومة الإمبراطورية الرومانية[5].

[1]– عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 19.

[2]– القطيعة الدينية: الانقسام الديني، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 19.

[3]– عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 19.

[4]– هيسي: مختص في التاريخ البيزنطي، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 19.

[5]– عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 19.

ولكن أكثر الآراء دقة هي التي ترى أن الثلاث قرون الأولى التي تبدأ من القرن الرابع إلى غاية القرن السادس الميلاديين وما استجد خلالها من تطورات على النواحي السياسية والتي تعد فترة انتقالية للإمبراطورية ترتبط بعنصرين هما:

1. انتقال عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما القديمة في الغرب إلى القسطنطينية في الشرق.

2. الاعتراف بالدين المسيحي كأحد الأديان المسموح اعتناقه في أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

ولما كان الإمبراطور قسطنطين الأول (306- 337م) هو الذي شيّد العاصمة الجديدة القسطنطينية في شرق الإمبراطورية، وهو الذي اعترف بالديانة المسيحية، فإن بداية التاريخ البيزنطي تبدأ من عهد هذا الإمبراطور[1]، ولهذا الرأي له مبرراته، إذ أن الإمبراطورية الرومانية قد واجهت في القرن الثالث الميلادي ثلاث أزمات نتج عنها تأسيس وظهور الدولة البيزنطية وهذه الأزمات هي:

1- الحروب الأهلية والصراع على السلطة طوال الفترة ما بين انتهاء عهد الأسرة السيفيرية الإفريقية ومجيء الإمبراطور دقلديانوس والتي تحدد زمنيا ما بين (235- 248م) رغم تخلل هذه الفترة من بعض مراحل الاستقرار السياسي كعهد الإمبراطور أورليانوس[2] (270- 275م)، إلاّ أن السمة الغالبة للناحية السياسية، وكذلك تأزم الأوضاع الاقتصادية الذي تعرضت له الإمبراطورية الرومانية سواء فيما يخص تهاوي قيمة العملة الرومانية أو تدهور المستوى المعيشي للمواطنين الرومان.

2- غزوات القبائل الجرمانية على حدود نهر الدانوب والراين وكذا غارات الفرس على الجبهتين الفراتية والأرمينية.

---

[1]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 20، Gonzague, D.R.,1945, *L'empire romain, la formation del'Europe*, Paris, p.210.

[2]- أورليانوس: هو امبراطور روماني قام بإصلاحات مما جعل المصادر المعاصرة تطلق عليه لقب مجدد الامبراطورية، عبيد،ط.خ.،2010،ص.20.

3- عجز الديانة الوثنية وعدم تمكنّها من تلبية حاجات الناس الروحية والاجتماعية.

وبذلك تعد سنة 324م[1] حسب رأي بعض المختصين بداية التاريخ البيزنطي، ففي هذه السنة تمكن قسطنطين الأول من توحيد أراضي الإمبراطورية بجزأيها الشرقي والغربي، وفي هذا العام وضع قسطنطين الأول حجر الأساس لتأسيس عاصمته الجديدة على الشاطئ الأوروبي لآسيا الصغرى[2].

4- الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين:

أ- إدخال قسطنطين لمبدأ الحكم الوراثي في الامبراطورية الرومانية: كان أكبر تأثير أحدثه قسطنطين الأول على نظام الحكم في الإمبراطورية الرومانية هو إدخاله نظام الحكم الوراثي، حيث أصبح الحكم وراثيا، أي أن الأباطرة الرومان الذين تولوا الحكم بعد عام 337م كانوا كلهم من عائلة قسطنطين، حيث حدث بعد وفاة قسطنطين عام 337م أن قسمت الإمبراطورية الرومانية بين أولاده الثلاثة، فأخذ قسطنطين الثاني غرب الإمبراطورية، وكان شرق الإمبراطورية من نصيب قسطنطيوس الثاني، بينما أخذ قسطانز الأول الجزء الأوسط الشامل لشمال إفريقيا وإليريا[3].

ب- إنفراد قسطنطيوس الثاني بحكم الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة قسطنطين الأول: وقد استطاع أغسطس الشرق الإمبراطور قسطنطيوس الثاني أن ينفرد بالسلطة ما بين (350- 361م) وعلى الرغم من ذلك فإن الإمبراطورية الرومانية سرعان ما ظهرت عليها عملية الانحلال السريع في النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي، عندما زادت حدة هجمات الأعداء على حدودها[4]، دون أن تتمكن مجهودات الأباطرة الرومان الذين تولّوا الحكم في هذه الفترة من وقف عملية الانحلال وصد غارات الأعداء مثل جوليان (Julian) (361- 363م) وجوفيان (Jovian) (363- 364م)، وفالنس (Valens) (364- 378م) الذي كان يحكم الجزء الشرقي من

[1]- 324م: هي السنة التي يعتبرها بعض المختصين في التاريخ البيزنطي هي منشأ وأصل الدولة البيزنطية أو العصر الباكر لهذه الدولة وهي تمثل سنة بداية بناء القسطنطينية، عبيد،ط.خ.،2010،ص.20.

[2]- عبيد،ط.خ.،2010،ص.20.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص.42.

[4]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27.

الإمبراطورية في مركز حكمه في مدينة القسطنطينية بالاشتراك مع أخيه فالنتنيان الأول (Valentinien I) (364- 375م) الذي نادى به الجيش إمبراطورا بعد تنحي الإمبراطور جوفيان والذي فضّل حكم الإمبراطورية في جزءها الغربي متخذا من روما القديمة مركزا لحكمه وبعد الإمبراطور فالنتنيان الأول جاء الإمبراطور جراتياس الذي احتفظ لنفسه بحكم الأجزاء الغربية من الإمبراطورية في حين كان الجزء الشرقي من الإمبراطورية تحت حكم عمه فالنس وعندما لقي الأخير حتفه على أيدي القوط الغربيين[1] (Visigoths) بعد موقعة أدرنة[2] عام 378م، انتقل حكم الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الرومانية التي حكم أغسطس الغرب الإمبراطور جراتياس الذي خشي خطر القوط الغربيين فتنازل عن حكم القسم الشرقي من الإمبراطورية للإمبراطور ثيودسيوس الأول، وعاشت الإمبراطورية الرومانية ما بين (379- 383م) يحكمها إمبراطوران جراتياس في الغرب وثيودسيوس الأول في الشرق، وبعد تنحي جراتياس عن الحكم سنة 383م، انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين الجزء الشرقي تحت حكم ثيودسيوس الأول أما الجانب الغربي فكان تحت حكم فالنتنيان الثاني(383- 394م)، وفي عام 394م نجح الإمبراطور ثيودسيوس الأول في توحيد الجزئين الشرقي والغربي للإمبراطورية الرومانية وبذلك أصبح آخر إمبراطور روماني حكم أوسع مساحة امتدت من الفرات، إلى الجزر البريطانية[3].

ج- الامبراطورية الرومانية والأخطار الخارجية:

. الخطر الفارسي: وعند الحديث عن الأخطار التي تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي والتي عجز أباطرة هذه الفترة من مواجهتها وإيجاد حلول لها نذكر الخطر الفارسي الذي فشل الإمبراطور جوليان في صدّه وتحقيق انتصار حاسم يحمي

[1]- القوط الغربيين: هي أحد القبائل الجرمانية الكبرى التي كانت أحد أكبر القبائل التي هددت أمن الامبراطورية وفيما بعد كوّنو مملكة القطر الغربيين التي تركزت في اسبانيا، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27- 28، ص. 44- 45.

[2]- موقعة أدرنة: هي أحد المعارك العسكرية الكبرى التي جمعت الجيش الروماني ضد التحالف الذي جمع شقي قبيلة القوط (الشرقيين والغربيين)، وهنالك من الآراء التاريخية من يربط بداية التاريخ الأوروبي الوسيط بهذه المعركة وهم أصحاب المدرسة الحضارية، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27- 28، ص. 44- 45.

[3]- عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27- 28، ص. 44- 45.

ظهر الإمبراطورية من الجهة الشرقية وأدى دخول جوليان في حرب الفرس إلى مقتله عام 363مالأمر الذي دفع بخليفته جوفيان[1] إلى درء خطر الفرس بالمال، وكذا عبر تنازله لهم بأراضي الإمبراطورية في منطقة بلاد ما بين الرافدين[2].

.الخطر الجرماني: بالإضافة إلى تهديد الجيوش الإمبراطورية الفارسية للحدود الشرقية والجنوبية الشرقية تعرضت الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية لهجمات جيوش القبائل الجرمانية عبد حدود نهر الدانوب في منطقة البلقان، الأمر الذي دفع الإمبراطور فالنس أغسطس الشرق إلى ترك قوات له على الحدود الرومانية الفارسية وراح مسرعا لصد زحف قوات قبيلتي القوط (القوط الشرقيين وإخوانهم الغربيين) وجرت الموقعة الحاسمة عند أدرنة في أوت عام 378م. ولقد تلقى فالنس نصيحة من شريكه في السلطة الإمبراطورية الإمبراطور جراتياس أغسطس الغرب تحثه على تجنب الدخول في حرب مباشرة مع قوات القوط، غير أن فالنس حركته النزعة الرومانية في أمور الحرب ودخل معهم في موقعة من أهم المعارك العسكرية الضارية التي عاشتها الإمبراطورية في مراحل تاريخها، وتمكن التحالف الذي جمع بين شقي قبيلة القوط (القوط الشرقيين والغربيين) من محو الجيش الروماني ولقي إمبراطور الشرق حتفه في المعركة[3]، وبذلك أحدث الهجوم الجرماني خسارة جسيمة لقوات الإمبراطورية الأمر الذي دفع بالإمبراطور جراتياس إلى تعيين أحد قادة الجيش الروماني وهو القائد ثيودوسيوس[4] الذي كان من أصل إسباني وكلّفه الإمبراطور بصد زحف القوط في أراضي الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية ومنحه سلطة الإمبراطور ولقب الأغسطس مقابل نجاحه في إخضاع ثائرة القوط، ووضع حد لثورتهم، وإعادة الأمن والسلام إلى أراضي الإمبراطورية[5].

---

[1]– جوفيان: هو امبراطور روماني حكم روما سبعة أشهر وفي عهده استرد المسيحيون حقوقهم الطبيعية التي سلبهم إياها الامبراطور جوليان المدعم للديانات الوثنية، عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27.

[2]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 27.

[3]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص.67-68.

[4]– القائد ثيودوسيوس: هو القائد الذي بعثه جراتياس امبراطور الغرب لدرء خطر القوط واخضاعهم وفيما بعد تحوّل إلى الامبراطور الذي حكم الامبراطورية الرومانية منفردًا بعد عام 394م وقسمها عام 395م، عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 33.

[5]– عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 33.

وكان هذا التحرك المرعب والسريع لقوات قبائل القوط داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية يعود لضغط قبائل الهون الأسيويين (Les huns) الذي شكل وصول قوات جيوشها إلى وسط أوروبا هلعًا من حالة اللاّ أمن والرعب مس كل منطقة شرق ووسط أوروبا وأحداث نوعًا من تغير الخريطة السياسية لأوروبا في ذلك العهد[1].

وقد كان قرار أغسطس الغرب بإرسال القائد ثيودسيوس قرارا حكيما وصائبا، فقد إستطاع قائد الجيوش الرومانية الجديد تحقيق الانتصار على قوات القوط وعقد معهم معاهدة سنة 382م تنص على إعطاء منطقة شمال تراقيا للقوط الغربيين وإقليم بانونيا (Pannonie) للقوط الشرقيين[2] وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة في الأقاليم الممنوحة لهم في هذه المقاطعات الإمبراطورية، فأعفوا من دفع الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التي أمضوا معاهدة تنص على تقديمها للإمبراطورية الرومانية[3].

كما نصت معاهدة عام 382م على تحول قبائل القوط إلى معاهدين ومحالفين للإمبراطورية(Foederati)[4].

ويؤكد الدارسون لهذه الفترة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية أن المعاهدة الممضاة من قبل الإمبراطور ثيودسيوس من جهة وقائد القوط ألرك[5] (Alaric) من جهة أخرى نقطة تحول كبرى في سياسة الإمبراطورية الخارجية مع قبائل الجرمان الذين أخذوا من ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك جرمانية لهم داخل أراضي الدولة الرومانية، بعد أن اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالإقامة العشوائية في ظل الإدارة والنظم الرومانية على أن قبائل القوط ظلوا محتفظين بمبادئهم وطابعهم، فضلا عن قوانينهم ونضمهم ونمط معيشتهم الاجتماعية، ومذهبهم

[1]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 73.

[2]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 68.

[3]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 68.

[4]– عاشور، س.ع.ف.، 2009، ص. 68.

[5]– ألرك: هو زعيم قبيلة القوط الغربيين توفي في إيطاليا عام 410 م، عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.68.

الأريوسي مع تعهدهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للإمبراطورية وحراسة حدودها. وبقي الوضع على حاله حتى وفاة الإمبراطور ثيودسيوس الأول عام 395م[1].

وبعدها ثارت ثورة القبائل من جديد ممّا استوجب تدخل أغسطس الشرق الإمبراطور أركاديوس إلى مواجهة خطرهم، والحفاظ على أمن ووحدة الجزء الشرقي من الإمبراطورية بعد قرار تقسيم الإمبراطورية السياسي الرسمي، فكان الجزء الشرقي من نصيب أركاديوس، أما الغرب الروماني فكان من نصيب هونوريوس[2].

II- أثر إصلاحات قسطنطين السياسية بعد وفاته:

1- بداية الإنقسام الحضاري بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني: كما بيّنا آنفا فإن نقل قسطنطين الأول للعاصمة الرومانية من روما في إيطاليا نحو القسطنطينية في آسيا الصغرى يعتبره المختصون في تاريخ الإمبراطورية الرومانية أو تاريخ الإمبراطورية البيزنطية هو نواة أو أصل ومنشأ للكيّان البيزنطي، إذ منذ عام 330م بدأ عملية الانقسام الحضاري بين الشرق الروماني وبين نظيره في الغرب[3]، حيث أن المركز الإداري الذي استحدثه الإمبراطور قسطنطين في شرق الإمبراطورية عمل على تركيز مظاهر الحضارة الإغريقية الهلنستية في مدينة القسطنطينية حيث غدت هته الأخيرة مركزا حضاريا هاما تنبعث منه أنوار الحضارة الإغريقية على باقي مقاطعات أو ولايات الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، هذا الجزء الذي أصبح مع مرور الوقت يمتاز بالنزعة الإغريقية اليونانية في جوانبه الحضارية مبتعدا كل البعد عن الحضارة الرومانية القديمة المتركزة في الجزء الغربي من الإمبراطورية المنطقة التي تعد مركز الإمبراطورية

[1]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.68.

[2]- عبيد، ط.خ.، 2010، ص. 33- 34.

[3]- سيد صبره، ع.، 1982، ص. 17- 18.

ومنشئها الأصلي خصوصا إيطاليا[1] أين ترتكز فيها العاصمة التاريخية للرومان الأولين، ومهد حضارتهم ووجودهم[2].

2- تشكل الإمبراطورية الرومانية المسيحية: وفي الجانب الديني فإن بناء القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية قد أحدث تأثيرات عميقة على الأوضاع الدينية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية، إذ أن العامل الديني كان من الدوافع الأساسية التي دفعت قسطنطين إلى البحث عن عاصمة جديدة للإمبراطورية تساعده على تطبيق سياسته الدينية المتمثلة في تدعيمه لوضع الدين المسيحي وأتباعه، ومن ثم فإن مدينة القسطنطينية قد تميّزت منذ تشييدها بالطابع المسيحي المطلق حيث يعتبروها المختصون في تاريخ المسيحية أول حاضرة مسيحية انعدمت فيها أي شكل من معالم الوثنية سواء المعابد أو غيرها من المظاهر الحضارية للديانات الوثنية، هذا الطابع المسيحي الذي رسّخه الإمبراطور قسطنطين في حاضرة إمبراطوريته الموّحدة ساهم مع مرور الوقت في إعطاء الإمبراطورية الرومانية ميزة الإمبراطورية المسيحية[3]، غير أن الثقل الديني للديانة المسيحية تركز أكثر في شرق الإمبراطورية، ممّا ساعد على إعطاء طابع ديني للإمبراطورية البيزنطية التي ولدت سياسيا مع أواخر القرن الرابع الميلادي أو بتعبير أدق عام 395م تاريخ تقسيم الإمبراطورية الرومانية سياسيا[4]، وكانت سيادة المذهب الأرثوذكسي في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية أو الإمبراطورية البيزنطية من العوامل التي أدت إلى ازدياد فجوة الانشقاق الديني بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني حيث سادت الأرثوذكسية في بيزنطة خصوصا في عاصمة الدولة البيزنطية القسطنطينية التي أصبحت مركز الكنيسة الشرقية ذات المذهب الأرثوذوكسي، بينما ساد المذهب الكاثوليكي (العالمي) في غرب الإمبراطورية، وأصبحت

[1]- إيطاليا: هو بلد يقع في جنوب أوروبا حاليا وقديما كانت هذه المنطقة مركز الامبراطورية الرومانية، توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 12- 14.

[2]- توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 12- 14.

[3]- توفيق، ع. ك.، 2009، ص. 43- 44.

[4]- توفيق، ع. ك.،2009، ص.76.

العاصمة الحضارية والتاريخية للرومان والقياصرة[1] الأوائل مركزا للكنيسة الغربية ذات المذهب الكاثوليكي (الأثناسيوسي)[2].

3- تجسد الانقسام الحضاري بعد قرار التقسيم السياسي عام 395م: عند تحليل التأثيرات السياسية التي أحدثها نقل عاصمة الرومان إلى الشرق القرن كتأثير غير مباشرعلى الأوضاع السياسية للإمبراطورية الرومانية، نؤكد أنّه منذ تقسيم الإمبراطورية الرومانية بين ولدي الإمبراطور ثيودسيوس الأول شرقية كانت تحت حكم ابنه أركاديوس[3]، وغربية تحت سلطة هونوريوس تجسد الانقسام الحضاري بين الشرق البيزنطي ذو الطابع الهلنستي المسيحي ونظيره في الغرب الروماني ذو الطابع اللاّتيني الوثني بعد أن أتبعه ثيودسيوس الأول بالتقسيم السياسي الذي جعل وحدة العالم الروماني حضاريا مسألة صعبة المنال[4].

إن توحيد قسطنطين الأول لأراضي الإمبراطورية الرومانية بحكم جزئي الإمبراطورية الرومانية الشرقي والغربي منذ عام 323م، بعد تحقيقه النصر على أغسطس الشرق ليكينيوس بعد موقعتي أدريانوبل وخريسوبوليس[5]، وتشييده لعاصمته الجديدة القسطنطينية منذ عام 330م، أعطى لعهده ميزة خاصة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية[6]، حيث أن توحيده لأراضي الإمبراطورية قد ألغى نظام الحكم الرّباعي الذي أسسه دقلديانوس منذ عام 293م[7]، أمّا فيما يخص نقل عاصمة الرومان، إلى شرق الإمبراطورية فقد أحدث تأثيرا عميقا على الأوضاع الحضارية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية، حيث ابتعدت الإمبراطورية عن وجهها الحضاري القديم القائم على

---

[1]- القياصرة: جمع قيصر وهو لقب يطلق على امبراطور روما، توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75- 76.

[2]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 75- 76.

[3]- أركاديوس: هو الامبراطور الذي حكم الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية ما بين (395- 408م) عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.28.

[4]- عاشور، س.ع.ف.،2009، ص.28.

[5]- عبد الحميد، ر.، 1975، ص. 98- 99.

[6]- عبيد، ط.خ.، 2010 ، ص. 28.

[7]- عبيد، ط.خ.، 2010 ، ص.21-22.

الطابع اللاّتيني الوثني الجمهوري متوجهة وسائرة نحو تحولها إلى إمبراطورية مسيحية شرقية هلنستية[1].

هذا من جانب التأثير المباشر لإصلاحات قسطنطين السياسية على الأوضاع التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية، أما كالتأثير الغير المباشر فإن تشييد عاصمة رومانية جديدة في القطاع الشرقي من الإمبراطورية يعتبره المختصون في التاريخ القديم[2] بداية تشكيل إمبراطورية بيزنطة استمرت في الوجود إلى نهاية العصور الأوروبية الوسيطة وبالتحديد عام 1453م تاريخ الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية[3] حيث ساهم وجود عاصمة رومانية في شرق الإمبراطورية منذ عام 330م في غرس بذور حضارة بيزنطية ظهرت رسميا بقرار التقسيم السياسي الذي أوجده الإمبراطور ثيودسيوس الأول عام 395م بعد أن قسّم الإمبراطورية الرومانية بين ولديه أركاديوس وهونوريوس، وظهور ما يعرف بالإمبراطورية البيزنطية في شرق الإمبراطورية الرومانية في حدودها القديمة[4].

[1]- توفيق، ع.ك.، 2009، ص. 12- 13.

[2]- التاريخ القديم: مرحلة من مراحل التاريخ الانساني تحدد زمنيا منذ اكتشاف الكتابة عام 2800 قبل الميلاد والذي يمثل تاريخ ظهور الأبجدية الفينيقية أول أبجدية في التاريخ وينتهي عند سقوط روما عام 476م، عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 30، ص. 240.

[3]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 30، ص. 240.

[4]- عبيد، ط. خ.، 2010، ص. 33.

خاتمة

خاتمة:

يعد عهد قسطنطين الأول مرحلة انتقالية هامة عرفتها الإمبراطورية الرومانية بفعل الإصلاحات الدينية والسياسية التي قام بها الإمبراطور قسطنطين الأول، حيث شكل الإصلاح الديني المتمثل في الاعتراف بالمسيحية بعد إصدار مرسوم ميلانو عام 313م نقطة تحول هامة عرفتها الإمبراطورية الرومانية في أوضاعها الدينية، حيث ساهمت السياسة الدينية التي عمل على تطبيقها الإمبراطور قسطنطين الأول في إحداث نقلة نوعية على التوجه الديني الذي ساد أراضي الإمبراطورية الرومانية من التوجه الديني الوثني بمختلف دياناته ومذاهبه وفرقه، نحو التوجه الديني المسيحي بمختلف مذاهبه ومدارسه الفكرية بالإضافة إلى الانعكاس الآخر الذي تولد على الأوضاع الدينية التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية حيث تغيرت طبيعة هذه الإمبراطورية من إمبراطورية وثنية نحو إمبراطورية مسيحية.

إن السياسة الدينية التي قام بمباشرتها الإمبراطور قسطنطين الأول والمتمثلة في الاعتراف بالديانة المسيحية لها مبرراتها والأسباب التي أدت إليها، فكما هو معروف فإن السلطة الرومانية وقفت موقفا معارضا لانتشار هذه الديانة، حيث رأى الأباطرة الرومان أن انتشارها يهدد أوضاعها الدينية التي تعد مصدر استقرار الإمبراطورية الرومانية ومصدر قوتها وعظمتها، لذلك حارب الساسة الرومان المسيحية باضطهاد أتباعها ومحاربة مؤسساتها على غرار جهاز الكنيسة. وقد شكل عهد الإمبراطور دقلديانوس (284– 305م) أحد أحلك وأظلم مراحل تاريخ المسيحية في ظل السلطة الرومانية، نظرا للسياسة المتطرفة التي انتهجها هذا الإمبراطور ضد أتباع الديانة المسيحية.

من خلال هذه القراءة السريعة لأوضاع المسيحيين في ظل الحكم الروماني يمكننا فهم الأسباب والدوافع التي دفعت الإمبراطور قسطنطين الأول إلى سن سياسة دينية جديدة اختلفت اختلافا جوهريا على سياسة أسلافه من الأباطرة الرومان منذ زمن الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس.

لقد أيقن قسطنطين أن من مصلحة الدولة الرومانية تدعيم الدين المسيحي نظرا لفشل سياسة الاضطهاد والردع التي مارسها من مكان قبله من الأباطرة الرومان، بل على العكس لقد زادت تلك

السياسة في تمسك المسيحيين بمسيحيتهم وإعجاب أتباع الديانات الوثنية الأخرى بشجاعة هؤلاء المسيحيين وإيمانهم بقضيتهم ونضالهم من أجلها. ومن هذا المنطلق عمل قسطنطين على تدعيم الديانة المسيحية عن طريق الاعتراف بشرعيتها كأحد الديانات المرخص إتباعها في أنحاء الإمبراطورية الرومانية بعد تطبيق مرسوم ميلانو، وبهذا يكون قسطنطين أول من أرسى ثقافة حرية اختيار الدين أو حرية العقيدة في التاريخ. وبعد هذا الاعتراف الإمبراطوري الصادر من السلطة الرومانية، عمل قسطنطين على تدعيم المسيحية عن طريق تخصيص امتيازات عديدة لصالح أتباعها، بالإضافة إلى تدعيم مؤسساتها الحيوية على غرار الكنائس والأديرة عن طريق مجموعة من الامتيازات المالية والسياسية حيث منح قسطنطين الكنيسة المسيحية أموالا طائلة ساهمت في تحسين مستوياتها الاقتصادية، بالإضافة إلى منح مختلف الكنائس أراضي وإقطاعات هامة علاوة على بناء العديد من دور العبادات والكنائس في مختلف مقاطعات الإمبراطورية.

كما خوّل قسطنطين لمؤسسة الكنيسة سلطات قضائية بالإضافة إلى سلطاتها الدينية حيث أعطى قسطنطين لمختلف الكنائس في العالم الروماني سلطة الفصل في مختلف القضايا التي تثار بين المسيحيين ومنحها الحق في الفصل فيها عن طريق القرار أو الحكم الصادر من محكمة الكنيسة.

من جهة أخرى، فإن قرار الاعتراف الإمبراطوري الصادر من قطبي ميلانو (قسطنطين وليكينيوس) والذي منح الشرعية القانونية للديانة المسيحية كأحد الشرائع المرخص إتباعها في أرجاء الإمبراطورية الرومانية قد أحدث انعكاسات خطيرة على أوضاع المسيحيين في هذا العهد الجديد من عمر الديانة المسيحية حيث ظهرت الانشقاقات والاختلافات العقائدية والمذهبية داخل جسم الكنيسة المسيحية، منها ما تولد أثناء عصر قسطنطين كالانشقاق الأريوسي والأزمة الميليتية والأزمة الدوناتية، ومنها ما جاء بعد عصر قسطنطين كأزمة مذهب الطبيعة الواحدة ومذهب النسطورية.

من جانب آخر يعد الإصلاح السياسي الممارس من قبل الإمبراطور قسطنطين الأول والمتمثل في نقل العاصمة الرومانية من روما القديمة على ضفاف نهر التيبر في إيطاليا نحو روما الجديدة على ضفاف مياه مضيق البسفور في آسيا الصغرى والتي تسمت على اسم مؤسسها

قسطنطين بالقسطنطينية قد أحدث انقلابا خطيرا على أوضاع الإمبراطورية الرومانية مع ثلاثينات القرن الرابع للميلاد، حيث أن تأسيس مركز جديد تدار من خلاله شؤون الإمبراطورية الرومانية قد غيّر من طبيعة هته الإمبراطورية. فبعد أن كانت إمبراطورية رومانية مركز ثقلها في الغرب اللاّتيني في النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية،أصبحت إمبراطورية شرقية مركز ثقلها في الشرق الهلنستي في الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية.

أما على الصعيد الديني، فإن بناء عاصمة جديدة لدولة الرومان قد أحدث تغييرات عميقة على الأوضاع الدينية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية. لقد كان من الدوافع الأساسية التي أدت بقسطنطين إلى البحث على عاصمة جديدة للدولة الرومانية، هو الدافع الديني حيث أن السياسة الدينية التي انتهجها هذا الإمبراطور إزاء المسيحية لا يمكن أن تستقيم في روما القديمة ذات الإرث الوثني، لذا كان تأسيس عاصمة رومانية جديدة تحكمت فيه بدرجة كبيرة السياسة الدينية الممارسة من قبل قسطنطين، والمتمثلة في تدعيمه للدين المسيحي لذا غلب الطابع المسيحي علي العاصمة الجديدة منذ تشييدها.

من جانب آخر، كان قرار نقل العاصمة الرومانية نحو الشرق من الأسباب الأساسية التي أثّرت بشكل عميق على إحداث الانقسام الحضاري بين شرق الإمبراطورية الرومانية وغربها.بالرغم من استمرار وحدة الإمبراطورية الرومانية سياسيا أثناء عصر قسطنطين وبعض خلفائه إلاّ أن الجانب الحضاري انقسم إلى قسمين أساسيين:

1- ساد الفكر الإغريقي الهلنستي في شرق الإمبراطورية الرومانية وكل مظاهر الحضارة الإغريقية من نظم للحكم والإدارة وتنظيم للجيش وعمران، حيث كانت القسطنطينية مركزا حضاريا وسياسيا تنبعث منه أنوار هته الحضارة.

2- بينما غلب الطابع اللاّتيني الروماني القديم في الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية في كل المظاهر الحضارية الظاهرة للعيان من فنون، وعمران، وتنظيم السلطات، ونظام للجيشوتنظيم للأمور القضائية وغيرها من المجالات في مختلف الجوانب الحضارية.

كان للإصلاح السياسي الممارس من قبل الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول نتائج سياسية وانعكاسات أخرى، فبعد أن تجلى الانقسام الحضاري بين الشرق البيزنطي الهلنستي

المسيحي، والغرب الروماني اللاّتيني الوثني مع استمرار الوحدة السياسية ظاهريا، إلاّ أن قرار تقسيم الإمبراطورية الرومانية سياسيا عام 395م بعد تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى جزئين الشرق الذي كان تحت سلطة الإمبراطور أركاديوس، والغرب تحت سلطة أخيه هونوريوسكان للإصلاح السياسي الممارس من قبل الإمبراطور قسطنطين بعد آخر، إذ يعتبر المؤرخون عصر قسطنطين وبأكثر دقة عام 330م، والذي تم فيه تشييد العاصمة الرومانية الجديدة بعد أن انتهت أشغال التشييد بها، هو الخلفية التاريخية وأصل ومنشأ الإمبراطورية البيزنطية التي ولدت سياسيا مع قرار تقسيم الإمبراطورية الرومانية رسميا كما ذكرنا آنفا.

هناك من الدارسين من يعلل انهيار الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية عام 476م بقرار نقل عاصمة الرومان الممارس من قبل قسطنطين، إذ أن الدارس لأحوال الإمبراطورية الرومانية أثناء القرن الثالث والرابع الميلادي يدرك أن مركز قوة وثقل الإمبراطورية الرومانية أصبح في الشرق، غير أن الوحدة السياسية التي كانت تربط أراضي الإمبراطورية الرومانية جعلت الضعف والهوان الذي ساد الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية لا يظهر للعيان بسبب اتحاده مع شرق الإمبراطورية القوي، غير أن قرار التقسيم السياسي عام 395م والذي مهّد له قسطنطين عام 330م قد أظهر ضعف وتفكك الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية الذي حافظ على جزء من قوته أثناء عصر الإمبراطور هونوريوس (395-423م) وفالنتنيان الثالث(Valentinien III) (423- 455م)، لكن سرعان ما استسلم لمظاهر التفكك والاضمحلال في العشرين سنة الأخيرة من عمر هته الإمبراطورية التي سقطت بفعل عاملين أساسيين، هما تراجع سلطة الإمبراطور الروماني لصالح سلطة البابا الذي كان يمثل السلطة الدينية، بالإضافة إلى تأثير ضربات القبائل الجرمانية التي احتلت أغلب أراضي الإمبراطورية الغربية عسكريا، وأقامت ممالك جرمانية على غرار مملكة الواندال في المغرب.

حسب رأيي الشخصي، فان حقبة التاريخ الأوروبي الوسيط أو ما يعرف بأوروبا في العصور الوسطى « L'histoire de l'Europe pendant le moyen âge» تبدأ بعهد وعصر قسطنطين الأول، إذ أن هذا الإمبراطور الروماني قام بإصلاحيين أساسيين كان لهما أبلغ الأثر في تحديد الملامح العامة لفترة العصور الوسطى الأوروبية حيث كان الاعتراف بالمسيحية كأحد

الأديان المرخص إتباعها في أنحاء الإمبراطورية الرومانية له مدى واسع وعميق على الأوضاع الدينية التي أضحت تعيشها الإمبراطورية الرومانية بشكل خاص وأوروبا بشكل عام حيث ما لبث أن كان للقرارالإمبراطوري الصادر من ميلانو أثر عميق على مستقبل المسيحية التي أخذت مكان الصدارة أمام نظيراتها من الأديان. وبعد عصر قسطنطين أصبحت المسيحية هي المرجعية الدينية المتحكمة في السلطة السياسية والتي تعمل على محاربة نظيراتها من الأديان الوثنية الأخرى وتعمل على إلغائها وإفنائها من الساحة الدينية في العالم الروماني.

بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام 476م، انتقلت سلطة إمبراطور روما لصالح سلطة بابا الفاتيكان الذي أصبح يمثل نوعا من القيصرية البابوية،أي الجمع بين السلطتين السياسية والدينية، وبذلك غدا الكرسي البابوي أكبر سلطة دينية سياسية في غرب أوروبا، وسرعان ما تحكم البابا في دواليب السلطة السياسية وأصبح الملوك والأباطرة والأمراء يصلون إلى كرسي الحكم عن طريق الشرعية الدينية الممضاة من قبل البابا وإذا ما سحب الأخير تلك المباركة والتأييد ضاع ملك الحاكم وخسر عرشه.

غير أن هذا الوضع الذي ساد الكنيسة الغربية اختلف عن الوضع الديني الذي ساد الكنيسة الشرقية، حيث أصبحت شؤون الكنيسة من مهام وصلاحيات إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية الذي أصبح الرئيس الأعلى على جهاز الكنيسة وهو الذي يعين البطارقة ويعزلهم وفق مشيئته ويدعوا إلى إقامة المجامع الدينية وإقرار القرارات فيها.

من جانب آخر، هناك من المؤرخين من يطلق على العصور الوسطى الأوروبية إسم عصور الكنيسة نظرا لأن الكنيسة المسيحية هي المرجعية الدينية المتحكمة في حياة الأوروبيين في تلك الحقبة من تاريخهم، لذا كان الإصلاح الديني الممارس من قبل قسطنطين وزن كبير في تحديد ملامح الأوضاع الدينية التي سادت أوروبا في الألف سنة اللاّحقة.

أمّا فيما يخص إرتباط فترة العصور الوسطى الأوروبية بالإصلاح السياسي الذي باشره قسطنطين على جسم الإمبراطورية الرومانية فيمكن القول أن تشييد قسطنطين لعاصمة إمبراطوريته الموحدة يعتبره المؤرخون الخلفية التاريخية لتأسيس حضارة بيزنطية التي كانت أولى الحضارات الأوروبية التي قامت في تلك الفترة من عمر التاريخ الأوروبي حيث ساهمت بيزنطة بدرجة كبيرة

فيما يعرف بتكون أوروبا في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والثقافية حيث يصنف المؤرخون الحضارة البيزنطية كأحد أعمدة الحضارة الأوروبية. بالإضافة إلى الحضارات الأوروبية الأخرى على غرار الرومانية التي انهارت مع انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام 476م، وكذا الحضارة الجرمانية على اختلاف أنواعها من حضارة قوطية، وإفرنجية (ميروفنجية وكارولنجية) ، ونورمانية (دانية ونرويجية وسويدية).

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1-المصادر:

أ- المصادرالعربية:

1.*القرآن الكريم*.

2.القيصري، ي.، بدون تاريخ، *تاريخ الكنيسة*، الكتاب 9ترجمة القمص داود، م.، 1998، ط.3، القاهرة .3.القيصري، ي.، بدون تاريخ، *حياة قسطنطين(Vita Constantini)*، ترجمة القمص داود، م.،1975، ط.1،القاهرة.

2-المراجع:

أ- المراجع العربية:

1. توفيق، ع.ك.، تقديم عمران، م.س.، 2009، *تاريخ الدولة البيزنطية*، الإسكندرية.

2. جيبون، إ.، بدون تاريخ، *اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها*، ج.1، ترجمة أبودرة، م.ع.، مراجعة وتقديم هاشم، أ.ن.، 1997، ط.2، القاهرة.

3. حارش، م.هـ .،1992، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي*، الجزائر.

4. الحويري ، م .م .، 1995، *رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية*، ط. 3، القاهرة.

5. سّيد صبره، ع.، 1982، *الإمبراطوريّتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شرلمان*، بيروت.

6. شنيتي، م.ب.، 1984، *التغيرات الإقتصادية والإجتماعية في المغرب ودروها في أحداث القرن 4م*، الجزائر.

7. عاشور، س.ع.ف.، 2009، *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، بيروت.

8. العبادي، م.، 1981، *الإمبراطورية الرومانية النظام الإمبراطوري و مصر الرومانية*، بيروت.

9. عبد الحميد، ر.، 1975، *الدولة والكنيسة*، ج.1، قسطنطين، القاهرة.

10. عبيد، ط.خ.، 2010، *تاريخ الدولة البيزنطية*، ط.1، عمّان.
11. العريني، س.ب.، 1968، *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، بيروت.
12. عمران، م. س.، 2006 أ، *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى*، ط.1، بيروت.
13. عمران، م.س.، 1981، *معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي)*، بيروت.
14. عمران، م.س.، 2006ب، *مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي*، الإسكندرية.
15. كانتور، ن. ف.، بدون تاريخ، *التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية*،ج.1، ترجمة وتعليق قاسم، ق.ع .، 1997، ط.5 ، القاهرة.
16. الناصري ، س .أ .ع. ، 1991، *تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي و الحضاري*، ط.2، القاهرة.
17. يوسف، ج.ن.، 2005، *تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية.*

ب- المراجع الأجنبية:

1. Albertini, E., 1970, *L'empire romain*, 4eme éd.,Paris
2. Bayet, C.,sans date., *L'art byzantin*, Paris.
3. Bergasse, H.,1975, *Le tescin de la décadence romaine, pour les hommes d'aujourd'hui* , paris.
4. Bertrandy, F., Demarolle, J.M., Rémy, B., 1998, *L'empire romain de 192 à 337 après J.-* C., Paris.
5. Besnier, M.,1937,*Histoire romaine,L'empire romain del'avènement des severes au concile de Nicée*,T.4 ,1ER P., Paris.
6. Bloch, G., 1922, *L'Empire romain évolution et décadence*, Paris.
7. Buruy, B.,1923, *History of the later romain empire from.the death of Theodosius I to the death of justinian I* ,Vol. I, London.

8. Duruy, V., 1876, *Histoire romaine jusqu'à l'invasion des barbares*, 13eme éd., Paris.
9. Duruy,V.,1883, *Histoire des romains depuis les temps les plus reculés jusq'à l'invasiondes barbares*,T.7, Paris.
10. Gonzague, D.R.,1945, *L'empire romain, la formation del'Europe*, Paris.
11. Gregoire, H., Porgels, j., Mereau,T. , Amarico,1964, *Les persécutions dans l'empire romain*, T.4 , Bruxelles.
12. Homo,L. , 1941, *Nouvelle Histoire Romaine*, Paris.
13. Jones, A.H., 1964, *The later romain empire 284-602*, Vol.I, Oxford.
14. Lançon, B., Moreau, T., 2012, *Constantin un Auguste chrétien*, Paris.
15. Le Beau, C., sans date,*Histoire du bas empire*, T.9,Paris.
16. Letoubon, F.,1995, *La ruche greque et l'empire de Rome*, Gronoble.
17. Maraval, P., 2007, *Le Christianisme de Constantin à la conquête Arabe*, Paris.
18. Petit, P., 1974, *Histoire généralede l'empire romain. Le bas-empire « 284-395 »*, Paris.
19. Petit, P.,1967, *Précis d'histoire ancienne*, Paris.
20. Remondon, R.,1964, *La crise de l'empire romain deMarc Aurèle à Anastase*, 1er éd., Paris.

3- قائمة الرسائل الجامعية:

1. خياط،ي.،2010، *الدولة البيزنطية من النشوء حتى عهد جستنيان(284-565م)*،الجزائر.

4- قائمة المجلاّت باللّغة الأجنبية:

1. Bréhier, L.,1915, "*Constantin et la fondation de Constantinople*", *Revue Historique*, 4eme année, N.119, Mai 1915, Paris.
2. Medina, G.,1901, "*Le Christianisme dans le nord de L'Afrique avant l'islam*", *Revue Tunisienne*, T.8, Tunis.

الفهارس

1- فهرس الأعلام

2- فهرس الأماكن

3- فهرس المعتقدات والأديان

4- فهرس المحتوى

1- فهرس الأعلام

1- فهرس الأعلام

1- أثناسيوس 35،132،135.

2- أركاديوس 84،204،209.

3- أريوس 35،130،131،132،133.

4- إسكندر 130،131،142،143.

5- أغسطين 46،146،151،169.

6- أوريجن 46،169.

7- بطرس 51،171،173.

8- بولس 50،51.

9- ثيودوسيوس الأول 84،198،199،200،201،203،204.

10- جالريوس 10،12،13،14،15،16،17،63،64،65،148.

11- جراتياس 182،198،199.

12- جيروم 46،169.

13- دقلديانوس 9،10،11،12،16،86،87،88،90،91،94.

14- دوناتوس 146،149،151،152،158،161.

15- سفروس 12،14،15.

16- فالنتيان الأول 198،199.

17- فالنتيان الثالث 209.

18- فالنتيان الثاني 181،183،198.

19- فالنس 197،198،199.

20- قسطانز الأول 11،136،162،197.

21- قسطنطين الأول 9،10،11،16،31،35،41،62،74،141،144،174،209،210.

22- قسطنطين الثاني 11،136،197.

23- قسطنطيوس الثاني 11،136،197.

24- قسطنطيوس كلوروس 9،10،11،12،13.
25- كاليڤولا 49.
26- كايكيليانوس 58،59،60،152.
27- كليمنت السكندري 46،169.
28- لاكتانتيوس 13،31،32.
29- ليكينيوس 16،17،23،24،25،26،27،28.
30- ليو الأول 172.
31- ماكسيميانوس 9،12،14،15،16،17،18.
32- ماكسيمينوس دايا 12،14،16،17،25،26.
33- ماكسنتيوس 14،17،19،20،21،23.
34- ميليتيوس 138،139،140،141،142.
35- نوسطوريوس 175.
36- هادريانوس 49،53.
37- هونوريوس84،204،209.
38- يوسابيوس القيصري 31،32،79،143،146.

2- فهرس الأماكن

2- فهرس الأماكن

1- أرلس 18،60،61،141.

2- الإسكندرية 131،134،135،137،138،139،141،142،144،145،175،176،178.

3- أنطاكية 102،130،144،175،178.

4- بولوني 13.

5- تريفيز 12،27،32،35،86.

6- رافنا 15،84.

7- روما14،22،23،32،34،35،59،60،61،84،89،90،91،92،93،102،105،106.

8- سرميوم 86.

9- قرطاجة 58،59،60،146،147،149،150،151،152،153،154،158،160،164.

10- القسطنطينية 84،85،94،99،100،101،104،105،106،107،108،109،110.

11- كارنونتوم 16.

12- كولوني 17،18.

13- ميلانو 12،20،24،26،27،63،65،67،68،69،71،72،73،86.

14- نيقوميديا 10،11،12،13،25،26،86،107.

15- نيقية 131،140،141،142،143،144.

3- فهرس المعتقدات والأديان

3- فهرس المعتقدات والأديان

1- الأريوسية 35،130،133،134،135،136،137.

2- إيزيس 41،44،45،57.

3- الدوناتية 146،154،155،156،157،158،159،160،161،162،163،164،165.

4- الرواقية 46،47.

5- الطبيعة الواحدة 176،177،178،179.

6- عبادة الإمبراطور 42،47،57.

7- كيبيلي 42،43،57.

8- المتشككة 46.

9- المثرائية 42،43،44.

10-المسيحية 41،50،67،68،69،70،71،73،74،77،78،79،81،179،180،181.

11-الميليتية 137،139،140،141،142.

12-النسطورية 175.

13-اليهودية 47،48،49،50.

4- فهرس المحتوى

4- فهرس المحتوى

- مقدمة .....أ-و

الفصل الأول: التعريف بشخصية قسطنطين الأول 7- 38

1- حياة قسطنطين الشخصية 9

2- حياة قسطنطين السياسية..... 11

3- حياة قسطنطين الدينية 30

الفصل الثاني: الإصلاحات الدينية للإمبراطور قسطنطين الأول (306م-337م).....39-81

I- الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية قبيل عهد قسطنطين الأول 41

1- الديانات الرومانية الوثنية الأصلية 41

أ- ثالوث الكابتول..... 41

ب- ديانات رومانية أخرى 42

جـ- ديانة عبادة الإمبراطور 42

2- الديانات الرومانية الآتية من الشرق..... 42

أ- الديانات الرومانية الوثنية الآتية من الشرق 42

- ديانة كيبيلي 42
- ديانة مثراس 43
- ديانة إيزيس 44

ب- الديانات الرومانية السماوية الآتية من الشرق..... 47

- الديانة اليهودية 47
- الديانة المسيحية 50

II- الأوضاع الدينية للإمبراطورية الرومانية أثناء عهد قسطنطين الأول(306-337م) 56

1- الأوضاع الدينية في الإمبراطورية الرومانية مابين306 و312م 56

2- الأوضاع الدينية في الإمبراطورية الرومانية مابين 312 و337م 57
أ- دعم المسيحية 58
• رسائل الإمبراطور إلى حكام المقاطعات ورؤساء الكنائس..... 58
• إجتماع ميلانو..... 63
• أوضاع المسيحيين بعد قرارات ميلانو 67
ب- المسيحية منذ عام 323م 70
• مراسيم قسطنطين ضد الفرق المسيحية 71
• تراجع قسطنطين على مرسوم ميلانو 72
• بناء قسطنطين للعديد من الكنائس..... 78
الفصل الثالث: الإصلاحات السياسية للإمبراطور قسطنطين الأول(306م-337م)...82- 126
I- الأوضاع السياسية للإمبراطورية الرومانية أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين 86
II- دوافع نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى آسيا الصغرى 89
1- الدافع الديني..... 89
2- الدافع السياسي 90
3- الدافع العسكري 91
4- الدافع الاقتصادي..... 92
5- الدافع الاستراتيجي 92
6- الدافع الشخصي 93
III- تأسيس القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية 94
1- أهمية موقع مدينة بيزنطة..... 96
2- تخطيط مدينة القسطنطينية 99
3- العناصر المشكلة لمدينة القسطنطينية 108

4- النظام الحكومي في العاصمة الجديدة 111
الفصل الرابع: تأثير إصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية 127-183
1- التأثير المباشر لإصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية أثناء عهده 129
أ- الإنشقاق الأريوسي..... 130
• مجمع نيقية الأول عام 325م وقرارته 131
• موقف قسطنطين من أتباع المذهب الأريوسي 133
• الخلاف الديني بين القصر الإمبراطوري وكنيسة الإسكندرية في مصر 134
• إنتشار المذهب الأريوسي في الشرق والكاثوليكي في الغرب 135
ب- الأزمة الميليتية..... 137
• أسبابها 137
• ثورة ميليتيوس 138
• دور قسطنطين في إخماد الثورة الميليتية 139
• وضع أسس القيصرية البابوية 144
جـ- الأزمة الدوناتية وإصلاحات قسطنطين 146
• عوامل ظهور الأزمة الدوناتية 146
• مراحل الثورة الدوناتية..... 159
- مرحلة الظهور والانتشار..... 159
- مرحلة المواجهة..... 161

2- أثر إصلاحات قسطنطين الأول الدينية على الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية بعد وفاته 165
أ- تطور العلاقة بين الامبراطورية الرومانية والكنيسة 165
ب- نشأة البابوية 169
ج- الخلافات الدينية داخل الكنيسة المسيحية الناتجة عن إصلاحات قسطنطين 174
• الخلاف حول الطبيعتين البشرية والإلهية في السيد المسيح 174
• ظهور مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) 176
الفصل الخامس: تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسية على الأوضاعفي الإمبراطورية الرومانية..... 184-204
I- تأثير إصلاحات قسطنطين الأول السياسية على الأوضاع 186
1- تدشين القسطنطينية كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية..... 186
2- أثر نقل العاصمة الرومانية إلى الشرق 187
3- الأهمية الحضارية لمدينة القسطنطينية..... 188
4- الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين 197
أ- إدخال قسطنطين لمبدأ الحكم الوراثي في الامبراطورية الرومانية 197
ب- إنفراد قسطنطيوس الثاني بحكم الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة قسطنطين الأول 197
جـ- الإمبراطورية الرومانية والأخطار الخارجية..... 198
• الخطر الفارسي..... 198
• الخطر الجرماني 199
II- أثر إصلاحات قسطنطين السياسية بعد وفاته..... 201
1- بداية الإنقسام الحضاري بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني..... 201
2- تشكل الإمبراطورية الرومانية المسيحية 202
3- تجسد الإنقسام الحضاري بعد قرار التقسيم السياسي عام 395م 203

خاتمة..... 205-211
قائمة المصادر والمراجع 212-216
الفهارس 217-230
فهرس الأعلام..... 218
فهرس الأماكن 221
فهرس المعتقدات والأديان 223
فهرس المحتوى..... 225